الإمام المغيّب
موسى الصدر وشيعة لبنان



دار الأندلس

الدكتور فؤاد عجمي

الدكتور فؤاد عجمي

الإمام المغيَّب

موسى الصَّدر وشيعة لبنان

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

بسمه تعالى

أهمية هذا الكتاب المترجم ليس في محتواه الفكري، أو النسج الذي حاكه مؤلفه، بقدر ما هو نافذة فتحها فؤاد عجمي.

(وهو الجنوبي الأصل من بلدة أرنون ـ قضاء النبطية ـ واحد من أهم نجوم الاعلام الفكري في الوسط الأمريكي).

عن الامام موسى الصدر:

صدر هذا الكتاب في ظرفٍ احتار فيه الغرب عامةً والولايات المتحدة خاصة لمعرفة كنه هذا العملاق المحروم الذي تصدّى لمجموعة قوى كبرى في جنوبه وضاحيته، وأسهم في اسقاط عصر ونهوض عصر لم تتضح بعد معالمه، وشاع خبره وسار مسار البرق ما سموه (بالارهاب الشيعي) بدلاً من الوقوف على حقيقة جهاده وقوة الدفع التي اخرجته من القمقم ليشتري الحياة بالآخرة مقايضاً الاولى بالثانية.

وجاء هذا الكتاب من «متأمرك» محاولة ايجابية عاقلة رزينة بل من محرج يحاول تسليط الضوء على الانسان الجديد الذي أولده ولا شك موسى الصدر في عصرنا الحاضر كردةٍ على الردة العربية وجواباً عملياً على العصر الاسرائيلي الذي أخذ يطرق أبوابنا منذ عام ١٩٤٨، علّ الغرب يتفهم حقيقة المعاناة التي شاركوا بصنعها وبفضلٍ كبير ضد هذا الانسان المحروم.

بل إن صفة الحرمان هي أحد أهم الدوافع لمكامن التفجير في انسان موسى الصدر!

دون أن ينسى المؤلف ايضاح الفارق بين هذا «الجنوبي» بالمعنى الصدري وبين «الارهابي» المتمثل بخاطف الامام الصدر حاكم ليبيا. وهكذا يبدو من ثنايا الكتاب الفارق بين الخاطف والمخطوف وبين الارهابي والمناضل.

ولعلَّ الكتاب لاقى رواجاً، أحد أسبابه إضافة نور على نور امام الرأي العام الغربي حول حقيقة العدوان الذي يشنه معمر القذافي على الإنسان والبلدان!

وتأتي الطبعة المترجمة، في يد القارىء العربي الكريم في ظرف لا يقل أهمية وحساسية عن الظرف الغربي، لطبع أصل الكتاب. حيث يتعرَّض خط الامام موسى الصدر في لبنان لأشرس هجمه تذكر بالخط الكربلائي الذي اجتمع ضده كل الناس ليتمحور بعده وعلى نهجه المستقبل وجماهيره.

وبالتالي فاذا كانت كربلاء فاصل بين الماضي والمستقبل حتى أصبح يقال قبل وبعد كربلاء. فما يحصل الآن يتخطى الصراع بين اسرائيل وأبناء الامام الصدر، وبينهم وبين دعاة العروبة والاسلام أو بينهم وبين نهج الاستسلام من فلسطينين ولبنانيين ليضحى صراعاً في أحسن احتمالاته:
بين محاولة توحيد لبنان على أساس ضم جنوبه على صورة الموحد أو توحيد لبنان من خلال جنوبه: المقاوم العربي العادل أي على صورة الجنوب.

يبقى أن في الكتاب:
تسجيل لشخص لا يُمحى
تصدر شعباً محى الكثير من العار
ولعلَّ هذا أحد أهم أسباب التآلب عليه وحصاره
فالى الامام مع عجميٍّ بالعربية

نبيه بري

كلمة الناشر

في صيف سنة ١٩٧٨، الإمام موسى الصدر، الزعيم الروحي للطائفة الإسلامية الشيعية في لبنان، اختفى في ظروف غامضة بينما كان في زيارة لليبيا. ومثل الاعتقاد الشيعي حول «الإمام المنتظر»، فلقد ترك هذا الإمام الحديث أتباعه متمسكين بتراثه ومبادئه ومنتظرين عودته. ومع أنه اعتبر غريباً عندما وصل إلى لبنان سنة ١٩٥٩ من أرض ولادته إيران، فقد بدأ تدريجياً يقوم بمهام رجل الدين الذي يستقطب تأييد الناس ليكون لاحقاً أداة تحويل الشيعة، الأقلية الإسلامية الهامدة والمضطهدة، إلى تجمّع سياسي حيوي وملتزم.

أي نوع من الأشخاص كان الإمام موسى الصدر؟
ما هي المعتقدات في المذهب الشيعي التي جسّدتها حياته؟
أين كان موقعه من خلال تشابك الأطراف المتقاتلة في لبنان؟
ماذا كان وراء اختفائه؟

في هذا الكتاب الروائي المدهش، يُحيي فؤاد عجمي تاريخ الشيعة المهمل، القديم والحديث، ويربط حياة وعمل الإمام موسى الصدر مع الخيوط الكبرى للمذهب الشيعي. فهو يرجع إلى الوراء ويعود إلى الأمام في الوقت المناسب ليرسم صورة صادقة وحية لرجل فذّ، متتبّعاً تقدمه وهو يتودد إلى بلده الجديد، يسحر أوصياءه المسيحيين، ويؤسس التحالف الذي حظي على تأييد الأثرياء وفقراء الضواحي معاً. ويتتبّع خطوات الإمام عندما يصبح هدفاً لإعجاب ثوريّ عظيم ويصوّره واقفاً فوق الحدود الفاصلة العربية - الفارسية، وفوق الحدّ الفاصل بين الحديث والتقليد وبين الدين والدنيا.

الإمام المغيّب

موسى الصدر

وشيعة لبنان

الدكتور فؤاد عجمي

إنطلاقاً من كونه مؤهلاً لسرد هذه القصة الرائعة، فقد أجرى فؤاد عجمي مقابلات دقيقة مع كل من ابن الإمام الصدر وأصدقاء الإمام المقربين ومساعديه، واستعان كثيراً بمواد من مجلة «العرفان» التي هي أقدم مجلة للطائفة الشيعية. كما أنه أدخل برقيات وتقارير ديبلوماسية أميركية لتكون أدلة تُعطي فكرة عميقة معبّرة حول الإمام وأسلوبه وسياسته وإنجازاته.

«الإمام المغيّب» هو أكثر من قصة رجل أو بلد. هو كتاب يعالج بمفهوم عميق المنطلقات الرئيسة للمجتمع الإسلامي. ويمكن القول إنه لا توجد أية دراسة أخرى في اللغة العربية أو الإنكليزية تقدم مثل هذا الإيضاح والشرح الغني والحسّاس لعملية التحوّل السياسية والاجتماعية والحضارية التي مرت بها الطائفة الشيعية منذ سنة ١٩٦٠.

فؤاد عجمي، أستاذ الدراسات الإسلامية في كلية الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة «جونس هوبكنس»، نال منحة جائزة ماك آرثر تقديراً لعمله حول السياسة والحضارة العربية. ولد في منطقة شيعية نائية جنوبي لبنان وترعرع في بيروت، وهو مؤلف كتاب «المأزق العربي».

الناشر

«فؤاد عجمي هو الاثنان معاً: شيعي من جنوب لبنان وعالم سياسي أميركي. في هذا الكتاب المدهش والمشعّ، مزج ما بين التفهم والاهتمام اللذين ولدا معه والفطنة والاستقامة اللتين تكونتا نتيجة التطلع نحو المستقبل».

برنارد لويس
قسم دراسات الشرق الأدنى
جامعة برنستون

«هذا الكتاب هو كنز. ولا يوجد في جيلنا عالم استطاع أن ينتج مثل هذا العمل الصادق والمعرفة الحسنة الاطلاع حول القائد المصيري الذي كان ظهوره نقطة تحوّل حاسمة داخل الطائفة الشيعية في لبنان».

مانفرد هالبرن
مركز الدراسات الدولية
جامعة برنستون

المصادر والدوافع

إستعملت ثلاثة أنواع من المصادر في كتابة هذا الكتاب :

إعتمدت أولاً على البرقيات الدبلوماسية والتقارير القنصلية الأميركية. لقد قيل الكثير عن حماقة السياسات الأميركية في لبنان وفي ميادين أخرى. لكن البرقيات الدبلوماسية، التي أرسلها محترفون في هذا الميدان، كانت على غير العادة، كاملة وموثوقة وخالية من أية عقائد وأوهام كبيرة. هذه التقارير الدبلوماسية ربما الناس في داخل البلاد لم تقرأ عنها. لكن هناك دليلاً قاطعاً بأن السياسة الأميركية إزاء لبنان لم تتأثر بما كانت تزوّده هذه التقارير من المعرفة والذكاء. خاصة أن هذه التقارير تبيّن لنا الرؤية الواضحة لأولئك الذين كانوا يرسلونها. وإذا كانت رسائلهم لم تصل إلى الجانب الآخر فهذا ليس خطأهم. وتجدر الإشارة إلى أنني حصلت على هذه التقارير بموجب مرسوم حرية الإعلام والذي يشمل الفترة من سنة ١٩٦٥ إلى سنة ١٩٧٨.

النوع الثاني من المصادر كان من المناقشات والمقابلات الطويلة التي أجريتها مع العديد من الأشخاص الذين عرفوا رجل الدين الشيعي وعملوا معه.

النوع الثالث من المعلومات، زودت به من المجلة الشيعية «العرفان».

كما أنني شخصياً رأيت الإمام موسى مرة واحدة في خريف ١٩٦٣ عندما قام بزيارة مدرستي. وكأمثالي من الشيعة، ذوي جذور من الجنوب الريفي، الحريصين على عبور عالم بيروت بخجل وارتياب، لم أظهر أي

اهتمام في رجل الدين. في ذلك الحين، كان يسيطر على المدرسة تيار القومية العربية التي كان بطلها جمال عبد الناصر. وأي شيء فارسي، وأي شيء شيعي كان محرماً عليّ في ذلك الوقت. . . كان الحدّ الفاصل العربي - الفارسي عميقاً جداً. ورجل دين شيعي يرتدي العمامة السوداء لسيّد يتكلم اللغة العربية بلهجة فارسية كان يشكل إحراجاً لي.

هكذا كانت بيروت في بداية الستينات. لم يكن باستطاعة أحد رؤية رجل دين شيعي يذهب بعيداً جداً في مدينة يسودها حضارة وأساليب الغرب.

بعدها بسنة، غادرت لبنان إلى أميركا. وسلك رجل الدين طريق الشهرة والسلطة. أصبح الشخصية الشيعية الرئيسة في لبنان. وفي سنة ١٩٧٨ اختفى في ليبيا، لكن ليصبح موضع إعجاب عظيم وشديد. بعد عقدين من الزمن على مغادرتي لبنان، أصبحت فضولياً بشدة حول الرجل وقررت التعرف على لغز مهنته في لبنان. كان الكثير قد تغيّر في لبنان، والأهم من ذلك، تغيّر في طبيعة ما كان معتبراً «عصرياً» وفي التوازن بين العلمانية والدنيوية من جهة والدينية من جهة أخرى. في ذلك الحين، رأيت رجل الدين الذي كان قد ظهر في مدرستي قبل عدة سنوات واقفاً على مفترق طرق للعديد من القضايا - على الحدود الفاصلة، العربي - الفارسي، «العصري» و«التقليدي»، الدنيوي والديني. كان يوجد شيء ملموس وواقعي حوله. وكان هناك أيضاً شيء رمزي، شيء في انتصاره واختفائه، في نطاق الأشياء التي قرأها الناس فيه - منتقدوه واتباعه المخلصون -، في التاريخ الذي جسّده، والذي كان أيضاً أكثر قساوة وأكثر إكراهاً. بين الفينة والأخرى، رجل، عن غير قصد، يعمل كنوع من المقراب (تلسكوب): تقف على مسافة منه، فترى عدة أضواء تتركّز عليه، وبعدئذٍ تراه ينير المنظر الطبيعي من حوله.

وأخيراً لا يسعني إلاّ أن أتقدم بالشكر لكل من ساعدني في القيام بهذا العمل المتواضع، وأخص بالشكر الصديق «ريتشارد أولمان» الذي أقدم إليه هذا الكتاب هدية.

مدخل

إختفاء الإمام موسى الصدر

صيف سنة ١٩٧٨، أُسدل الستار على جانب من جوانب قصة السيد موسى الصدر أو الإمام موسى الصدر، كما كان معروفاً لدى أتباعه في لبنان، وانتهت مرحلة من مراحل التاريخ الشيعي. فرجل الدين المولود في قمّ (إيران)، والذي ظهر في لبنان سنة ١٩٥٩، إختفى في ليبيا بينما كان في زيارة لحاكمها العقيد معمّر القذافي. الإمام موسى الصدر، رجل الدين الناشط سياسياً والمثير للاهتمام، وصل إلى ليبيا في ٢٥ آب سنة ١٩٧٨ وشوهد للمرة الأخيرة في ٣١ آب من العام ذاته في أحد فنادق طرابلس الغرب وهو يستعد للتوجّه للاجتماع مع العقيد القذافي كما أخبر مجموعة لبنانيين التقى بهم صدفة. ومنذ ذلك الوقت انقطعت أخبار الإمام موسى الصدر واثنين من مرافقيه: رجل دين وصحافي. جاء الإمام موسى الصدر إلى لبنان وهو في الواحد والثلاثين عاماً، بينما كان عمره خمسين عاماً عندما قام برحلته المشؤومة لليبيا. الليبيون يدّعون أنه توجه إلى إيطاليا في ٣١ آب على متن طائرة أليطاليا. الأدلّة الإيطالية كذّبت الادّعاء الليبي. أمتعته فقط وصلت إلى روما وشخصان ليبيان حجزا غرفتين في فندق «الهوليداي إن»، أحدهما ارتدى ثياب رجل دين وانتحل شخصية الإمام موسى الصدر، والآخر انتحل شخصية مرافقه العادي.

البعض كان على يقين أن القذافي قتل الإمام موسى الصدر، لكن أتباع

هذا الرجل المؤمنين جلسوا تحت صوره مرددين كلماته ومنتظرين «عودته». وفي أعقاب اختفائه، تحوّلت السياسة الشيعية في لبنان في عدة نواحي إلى صراع حول تراث وتركة إمام مغيّب.

هذا الواقع، الذي حدث في ليبيا صيف ١٩٧٨، أعاد إلى الأذهان مراحل تاريخ العقيدة الشيعية في المذهب الشيعي، الإمام الثاني عشر من الأئمة الاثني عشر، الذين خلفوا النبي ﷺ والذين هم من سلالة فاطمة الزهراء، إختفى عن أنظار الناس العاديين خلال عامي ٨٧٣ - ٨٧٤م، ليعود ويظهر في المستقبل لتحقيق العدالة في العالم. هذه هي عقيدة الغيبة أو إخفاء الإمام المنتظر. وهذه العقيدة أتت من جراء المحن الأولى التي تعرضت لها الطائفة الشيعية التي تمثل عقيدة أقلية في عالم الإسلام.

تؤكد التقاليد الشيعية أن الأحد عشر إماماً قضوا في المعارك أو دُسّ لهم السمّ أو ماتوا في السجن على أيدي مغتصبي السلطة الجائرين. وفي صميم التاريخ الشيعي توجد قصة الحرمان. فقصة استشهاد الأئمة أخبرت كيف أن خلفاء النبي ﷺ الفاضلين حُرموا من الحكم والميراث اللذين هما حق لهم.

أسّس النبي محمد ﷺ دولة كانت مملكة سياسية ودينية على حدّ سواء. وتوفي سنة ٦٣٢ ميلادية، أي حوالى عقدين من الزمن بعد نزول الوحي عليه. وفي خضمّ الصراع على خلافة النبي ﷺ، أصرّ الشيعة من عائلته، على أن الخلافة الشرعية هي من حق ابن عم النبي وصهره علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن بعده للمتحدرين من سلالته.

لكن المملكة السياسية لم تكن مملكة علي أو للمتحدرين من سلالته، فقد واجه علي منافسة على الخلافة ثلاث مرات متتالية، وفي فترة حكم الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول، أبو بكر وعمر وعثمان، تجاوز الإسلام مكان

ولادته العربية آنذاك لينتشر في سوريا والعراق وإيران ومصر ثم يصبح في مرحلة من المراحل وسيلة للوصول للثروة والسلطة.

غير أنه بالنسبة لشيعة علي أصبح التاريخ يعتمد على مبدأ القوة. فالمبادىء الدنيوية انتصرت على المبادىء الدينية. وأخيراً جاءت الخلافة لصالح علي بعد ربع قرن من موت النبي ﷺ، لكنها جاءت في فترة انشقاق داخل المجتمع الإسلامي. وبعد فترة قصيرة ومتنازع عليها تمّ اغتيال علي ثم جاء الحسن ليكون الخليفة من بعد والده ولكنه جاء ليتنازل عن الحكم لصالح معاوية، حاكم المنطقة الإسلامية في سوريا، وهو رجل من بني أميّة أو الأمويين الذين كان زعيم قبيلتهم أبو سفيان عدواً للنبي محمد ﷺ. جاء الأمويون وفرضوا على المجتمع الإسلامي نظام حكم وراثي. وبعد قرن أطاح الأمويين سلالة حاكمة أخرى هم العباسيون الذين استغلوا تقدير المؤمنين لعائلة النبي، ولكنهم عندما انتصروا حكموا أيضاً بالسيف. إزاء هذه القصة الدنيوية للإنتصار السلالي، طرح شيعة علي والمتحدرون من سلالته والمحرومون في عالم الإسلام فكرة الإمام (زعيم سياسي وديني) كوريث حقيقي لسلطة النبي ﷺ. وهكذا كانت الإمامة تنتقل بواسطة «ناس» أي بتكليف خاص من إمام شرعي إلى خليفته.

وفي نظر هؤلاء المحازبين، كان الائمة المتحدرون من سلالة فاطمة الزهراء ابنة النبي محمد ﷺ حاملي حقيقة ورسالة الإسلام. وكان يتمّ التخلص من إمام بعد إمام وهكذا استمر التقليد. وبعد حين أي بعد حوالى قرنين من اغتيال أول إمام، اختفى الإمام الثاني عشر وهو طفل، خشية أن يتعرض له الحاكم. ولم يكن من الميسور لأي كان من الناس أن يتصل به ويجتمع إليه خلال سبعين عاماً تقريباً إلّا من خلال سفرائه الأربعة. وعُرفت هذه الفترة «بالغيبة الصغرى» أو الإختفاء أو الظلام الأصغر. بعدها بدأ الإختفاء الكبير، بعد موت آخر سفير من سفرائه الأربعة سنة ٩٣٩م؛

«الغيبة الكبرى» وهي فترة الظلام الأكبر.

أصبح التاريخ اغتصاباً للسلطة. أعمال الناس تداعت وانتظر الناس عودة «رجوع» الإمام المنتظر. واستناداً إلى هذه النظرة المبنية على مخلص منتظر، التي تتفق في جوهرها الإنقاذي مع نظرية الإيمان بالآخرة عند المسيحيين واليهود، يعود الإمام المنتظر كمنتقم كبير أو «مهدي» أي المنقذ [1]. ومن أجل هذه العقيدة التي ولدت من الشدّة والحرمان السياسي، استخدم الشيعة سلطة النبي محمد ﷺ. أحد الأحاديث الشريفة المنسوبة إلى النبي محمدﷺ أتت على ذكر الوعد بعودة المهدي: «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم ويبعث رجلاً من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً!!!» [2].

الطائفة الشيعية التي انهزمت سياسياً في بداية تاريخ الإسلام، خضعت لميزان القوى القاسي، وبقي لها عزاء وعد «الألف عام السعيد» (يوم الخلاص) وانتظار شخص غير عادي ليحقق هذا الوعد. فالوعد الذي قطع للمؤمنين كان «ألف عام سعيد»، وهي فترة تصل ذروتها عندما يتم اصلاح العالم الذي عرفناه... «قريباً جداً سيتم قهر وتدمير الأشرار الكبار في هذا العالم، أما الأشخاص المتواضعين أو أولئك الذين برهنوا أنهم قادرون على المحافظة على الإيمان الحقيقي والاخلاص، سوف يرقّعوا لتقاسم الحسنات الجيدة في هذا العالم» [3].

قصة الإمام موسى الصدر امتزجت مع المعنى السامي ليوم الخلاص عند شعبه، فانتظار يوم الخلاص ورجل غير عادي يقود التاريخ إلى مرحلة اكتمال والذي يظهر عندما تسمح له مشيئة الله، كل ذلك كان مهيئاً للإمام

---

(١) تتبّع العصر الألفي، نورمان كوهين، دار نشر جامعة اوكسفورد ١٩٧٠.

(٢) الإسلام الشيعي، محمد حسين طبطبائي، دار نشر جامعة نيويورك ١٩٧٥ صفحة ٢١١.

(٣) مغامرة الإسلام، مارشال هودغن، دار نشر جامعة شيكاغو، ١٩٧٤، صفحة ٣٧٣- ٣٧٤.

موسى الصدر بشكل طبيعي. ولم يكن هناك حاجة لأحد أن يزوّر التاريخ ويقول بأن هذه القصة الحديثة هي مسرحية تعود إلى عقيدة قديمة. ولو كان الأمر كذلك، لكان الاتقياء تعرضوا لفضيحة.

برز توقع يوم الخلاص في أعقاب إختفاء رجل دين كما حصل عندما تمّ إعلان السيد موسى الصدر إماماً. السيّاد هم طبقة متحدّرة من سلالة النبي محمد ﷺ، سكنوا في مناطق واسعة من العالم الإسلامي واللقب له بعض الإمتيازات ومكانة خاصة في نظر النبي ﷺ.

وإذا أردنا التكلم بدقة، في المذهب الشيعي اثنا عشر إماماً فقط: علي والائمة الأحد عشر الذين جاءوا بعده خلال فترة امتدت حوالى قرنين من الزمن، آخرهم اختفى. وعندما «ظهر» موسى الصدر كإمام بعد عقد من الزمن من مجيئه إلى لبنان، لم يدّع اللقب لنفسه، ولم يرفع إلى مكانة أي من هؤلاء الاثني عشر شخصاً المقدّر لهم أن يكونوا مقدسين، وإلاّ كان ذلك هرطقة. وكما حصل مع الخميني أواخر السبعينات، فقد قام اتباع الإمام موسى الصدر بإعلانه إماماً وتقبّل ذلك رجال الدين. وفي كلتا الحالتين: التعيين المرفق بالتوقع الإنقاذي (يوم الخلاص)، برز في الساحة اللبنانية حيث، كما حصل في إيران بعد عشر سنوات، تمّ فصل رجل دين عن بقية رجال الدين ومُنح لقب له هيبة وقوة مثيرة للعواطف. كلتا الحالتين شكلتا خرقاً للعقيدة الشيعية التقليدية وانتصاراً للنشاط السياسي على التقييد الديني.

وإذا كانت بداية صعود الإمام موسى الصدر توافقت مع غموض العقيدة الشيعية، التي تتلخص بربط ما قيل وما لم يُقلْ، والإعتقاد في شخص غير عادي ليقود ويُخلص الناس، فإنها ليست بعيدة عن عملية الإختفاء التي حصلت في ليبيا. أتباع الإمام موسى الصدر، أصرّوا على القول، إنه سوف يستمر في شغل منصبه كرئيس للمجلس الشيعي الأعلى،

الذي أسسه سنة ١٩٦٩ بعد عقد من الزمن من وصوله إلى لبنان، ولغاية ١٩٩٣ أي عندما يناهز عمره الخامسة والستون عاماً. غموض قصة الإمام موسى الصدر كان بحد ذاته مصدراً لكثير من قوتها. حالة الإضطراب في لبنان: الحرب الأهلية التي اندلعت سنة ١٩٧٥ ولا نهاية لها في الأفق، دخول قوات عسكرية سورية وعربية إلى لبنان سنة ١٩٧٦، الغزو الإسرائيلي خلال شهر آذار ١٩٧٨ مع توقّع مزيد من الإضطراب والخراب والحرب الرهيبة التي شنتها إسرائيل ضد لبنان صيف ١٩٨٢، هذه الحالة كلها جعلت شيعة لبنان خاصة يشعرون بقرب يوم الخلاص. أضف إلى ذلك أن الطائفة الشيعية في لبنان، المعروف عن أفرادها تاريخياً أنهم هادئون مسالمون والتي قادها الإمام موسى الصدر وحاول تغيرهما، كانت بحاجة للشجاعة من أجل المطالبة بحصتها في هذا البلد الممزق.

هكذا جاءت قصة الإمام موسى الصدر لتلبية مجموعة من الإحتياجات وجاء الإمام متمتعاً بشخصية فذّة وبمواهب متنوعة، ينظر إليها كلٌ من زاويته الخاصة. النبلاء من أتباعه نظروا إليه كرجل سياسي معتدل ومُصلح وفي نظر الآخرين موسى الصدر كان ليصبح منتقماً كبيراً. قصته وذكراه هما ضمانة لأعمال جريئة وسياسة لا تقبل حلاً وسطاً. تراثه تبنّاه رجال أغنياء وشبان انتحاريون.

أخذ هذا التراث زخماً عندما انفجر البركان في إيران عدة أشهر بعد اختفاء الإمام موسى الصدر. آية الله روح الله الخميني، وهو رجل دين يقود الرجال «وإمام مُسلح»، أطاح بالنظام الملكي في إيران. وأصبح الرجال والنساء الشيعة في لبنان جزءاً من انتفاضة كبيرة. الثورة الإيرانية رفعت عالياً مبادىء الإسلام الشيعي الذي كان لفترة من الزمن خائفاً ومحرجاً: فالشيعية، وهي لعدة قرون كانت عقيدة التحسر والإذعان، أصبحت حركة تمجيد وتمرّد. رجال الدين والملاّ، أمثال الإمام موسى الصدر عندما كان في مسقط

رأسه في إيران، أقاموا نظاماً خاصاً بهم اسمه ولاية الفقيه أو حكم القاضي. رجل الدين، الذي جاء من قمّ إلى لبنان قبل عقدين من الزمن، خرق تقليد رجال الدين الشيعة السائد الذي كان قائماً على الهدوء والإنكفاء السياسي. الآن في إيران، الدولة الشيعية الوحيدة في عالم الإسلام، يدعو رجال الدين، مثل الإمام موسى الصدر، الناس لحمل السلاح.

أحد الأحاديث الشيعية المنسوبة للإمام السابع موسى بن جعفر (٧٩٩م) تنبأت بظهور رجل إيمان في قمّ وهذا الرجل سوف يقود حركة تمرد: «سيظهر رجل من قمّ يدعو الناس إلى الصراط المستقيم. يلتفّ حوله رجال كقطع الحديد لن تهزها رياح عاتية وتعتمد على الله» (٤).

هذا الحديث الذي يعود تاريخه إلى القرن الثامن ميلادي، تكرّر في إيران كثناء لرجل الدين العجوز آية الله روح الله الخميني الذي أقام سنة ١٩٧٩ «حكم فضيلة» وأعلن جمهورية إسلامية يحكمها رجال دين وذلك بعد أن أمضى خمس عشرة سنة في المنفى. لكن بالنسبة للرجال والنساء الشيعة في لبنان، الذين عرفوا واحتضنوا الإمام موسى الصدر وما زالوا ينتظرون عودته، وجدوا أن هذا الحديث من القرن الثامن ميلادي مطابقاً عليه.

وفي نيسان ١٩٨٠، تمّ إعدام شخصية شيعية مرموقة في العراق، العالم والمرجع الديني آية الله محمد باقر الصدر وهو ابن عم وصهر الإمام موسى الصدر، من قبل حاكم العراق صدّام حسين ـ وهذا ما ساعد على تغذية الشعور الديني لدى شيعة لبنان وبالذات العودة بهم بالذاكرة إلى تعاليم وتراث الإمام موسى الصدر.

جوهر التاريخ الشيعي هو الإستشهاد: موت الأئمة والقادة، أصحاب الحق، عن طريق التسمم أو في القتال على أيدي المغتصبين الظالمين. صدام

(٤) الخميني والدولة الإسلامية، محمد جواد مغنية، دار العلم، بيروت، ١٩٧٩ صفحة ٣٨- ٣٩.

حسين، حاكم العراق الظالم، كان يجسّد السلطة الوحشية، ومحمد باقر الصدر، الرجل المثقف وصاحب الطبيعة الهادئة، كان الشخصية التي ليس لها مثيل لأن تكون دور الشهيد. لقد تمّ إعدام محمد باقر الصدر وهو في الخمسينات من عمره واختفى الإمام موسى الصدر في ليبيا وهو في الخمسين من عمره. محمد باقر الصدر كتب بشكل واسع حول أمور تتعلق بالإقتصاد الإسلامي والفلسفة الحديثة واعتبرت مؤلفاته بمثابة مراجع دينية لمختلف مذاهب الدين الإسلامي في كافة انحاء العالم، هذه المؤلفات تطرقت إلى قرنين من الزمن: التوفيق ما بين تقاليد وقيود الإسلام مع أفكار وممارسات خطر الغرب. لم يكن محمد باقر الصدر رجلاً سياسياً، غير أن الثورة الإيرانية التي حصلت سنة ١٩٧٩، استغلت لتوسيع الشرخ السني - الشيعي في العالم العربي. ومن الحدود العراقية كشفت إيران عن نواياها بتصدير ثورتها، فكان لها تجاوب في العراق. حكم صدام حسين، حكم الأقلية المعتمد على الضباط وموظفي الدولة، كان في وضع «الموت أو الحكم» محمد باقر الصدر كان هناك وكان عليه أن يكون مثلاً. أحد العلماء كتب عنه قائلاً: «إنه رجل الفقه الشيعي الأكثر اطلاعاً في العراق والمرجع الديني الأول للشعب. علاوة على ذلك، وبدون أي تشجيع منه، بدأ مزيد ومزيد من الشيعة ينظرون إليه كقائد سياسي، حتى أن الإذاعات الإيرانية الناطقة باللغة العربية أشارت إليه مراراً بأنه خميني العراق. بالنسبة للحكم العراقي ظهر بأنه الخصم القادر على استقطاب الشعب وبالتالي فهو رمز لخطر وشيك» (٥).

هكذا كان العالم العربي في فترة قائمة بشكل خاص. السياسة السائدة فيه كانت مبنية على المكر والدهاء. كان يتمّ اغتيال الخصوم. محمد باقر الصدر وشقيقته أعدما. الحزن الشيعي والكتابات حول مفهوم الإستشهاد وجدت من ينفذها في هذا الوقت المعاصر. انتهت حياة محمد باقر الصدر

(٥) الحركات الشيعية السرّية في العراق، حنا باناتو، مجلة الشرق الأوسط عدد ٣٥، خريف ١٩٨١، صفحة ٥٩٠.

نهاية حزينة. الناس شيّعوه وتعهدوا له بالإنتقام. بينما قصة ابن عمه الإمام موسى الصدر تُركت عالقة بدون حل وكانت القصة الأكثر إيلاماً.

صيف سنة ١٩٨٤ وفي الذكرى السادسة لاختفاء الإمام موسى الصدر، شُلّت المناطق الوطنية في لبنان تعبيراً عن الولاء المطلق لهذا الرجل الذي عمل لصالح شعب لبنان عامة وشيعته خاصة لفترة عقدين من الزمن كما حصل عرض رمزي للقوة والمكانة الجديدتين لأتباع الإمام في المدينة المدمّرة بيروت. وبدون شك كان هناك أولئك الذين اعتقدوا وأرادوا الإعتقاد أن «الملا» الأنيق والطويل القامة سوف يظهر بينهم ثانية وسوف يطلق سراحه من قبل معتقليه.

الغموض الذي أحاط اختفاء الإمام موسى الصدر والإشاعات حول ظهوره بين حين وآخر في إيران ودمشق وأنه شُوهد يصلي مع مرافقيه في الصحراء الليبية، كلها كانت جزءاً من لغز الرجل، فالغموض، الذي لاحق موسى الصدر من وقت وصوله إلى لبنان حتى حصول الحادثة في ليبيا، جاء ليثبت صفة رجل حافظ على أسراره الخاصة لدرجة أن البعض من أتباعه المخلصين استمر في التساؤل حوله. الإمام موسى الصدر، هذا الرجل، ذو الأسلوب الخاص، الذي كان يعرف كيف يجذب الأنظار ويحافظ عليها، دخل عالم شيعة لبنان على طريقته الخاصة. غير أن التاريخ كيّف بشكل ملائم رحيله، ويمكن القول غيابه. اختفى الإمام موسى الصدر تاركاً الناس يجعلون منه ما يريدون وما يحتاجون.

يتذكر البعض الإمام موسى الصدر كرجل ذي متطلبات بسيطة، فهم يتباهون بالقول إنه كان يتجول في سيارة فولكسفاكن صغيرة. البعض الآخر يتذكره كشخصية فريدة، رجل يحجب أتباعه، مختال في شكله، متكلف ومأساوي في مظهره، شعره الأشعث الظاهر من تحت عمامته لم يسبق للناس أن لاحظوه على رجل دين متزمت ومتواضع. موسى الصدر قدّم نفسه لعدة

سنوات كمدافع عن القضية الفلسطينية في لبنان، ومع ذلك فإن العديد من وارثيه ومساعديه المقربين يعتقد أن الليبيين نفّذوا ما طلبه منهم قادة منظمة التحرير الفلسطينية. في بداية الستينات، كان بعض المسيحيين في لبنان يقول إن موسى الصدر يتمتع بملامح ومزايا يسوع المسيح، بعد عقد من الزمن، المسيحيون ذاتهم، المتتبعون نشاط الميليشيا الشيعية التي أسّسها الصدر أواسط السبعينات، وصفوه «براسبوتين» لبنان. بعض أخصامه العرب، اعتبر وصوله إلى لبنان كعميل لمخابرات حكم الشاه «السافاك» واعتبر اختفاءه سنة ١٩٧٨ ضحية أعمال مخابرات السافاك المرعبة. لقد كان الإثنين معاً: رجل ثوري ورجل يتودد إلى الملوك والأغنياء. أحد المصريين الماركسيين الذي التقى موسى الصدر ولم يكن يثق به قال عنه: إنه «أميركي براغماتي» يؤمن «بفلسفة الذرائع». أحد الدبلوماسيين الأميركيين في بيروت، والذي كان يعرفه ويرسل بالتقارير الدقيقة الملموسة عنه إلى دولته، قال: إنه «رجل فارسي ماكر». لقد كان رجل دين وابن آية الله، ينتقد القيود والتزمت الديني خاصة عندما كان «يفكر بصوت عال». بالنسبة للبعض، كان موسى الصدر قائد حملة شيعية في لبنان بغية الوصول إلى مكانة جديرة بالإحترام، فهو الرجل الذي قال: لبنان هو الوطن النهائي للشيعة؛ بالنسبة للبعض الآخر كان رجل دين طموح، وجد ملجأً مؤقتاً في لبنان يسعى من خلاله في الحقيقة ليترك بصماته في إيران.

الآن قصة موسى الصدر هي ملك أتباعه في لبنان؛ ملك الطائفة الشيعية التي حضنته. هذه القصة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تاريخ هذه الطائفة، تعكس إحساساً بالوجود المتميّز عن الآخرين، إحساساً بالإستقامة والحرمان. هذه القصة وبشكل حاسم، لم تسرد لإحراج السيد موسى الصدر أو الإمام موسى الصدر «الحقيقي» إنما سردت لتصوّر كيف يستطيع رجال، بحاجة إلى مساعدة، الإستفادة من ظهور رجل غريب ومن ثمّ من غيابه.

الغريب الحميم:

السيد موسى القادم من قمّ

الطريق ما بين إيران وشيعة لبنان التي استقدمت السيد موسى إلى لبنان يعود تاريخها إلى أكثر من أربعة قرون. ومنذ أن فرضت السلالة الصفوية الحاكمة المذهب الشيعي دين الدولة في إيران في القرن السادس عشر الميلادي، حمل الإتصال بين البلدين رجال الدين الشيعة إلى الإنتقال من جبل عامل الفقير (جنوبي لبنان) إلى العالم الكبير في إيران حيث الحاجة إلى رجال دين لنشر المذهب الشيعي[1]. ورغم أن هذا المذهب انتشر في إيران متأخراً، فإن إيران أصبحت المركز الديني الثاني في عالم الشيعة بعد العراق. وكون المذهب الشيعي فُرض بالقوة على إيران من قبل السلالة الحاكمة الجديدة، كان يجب أن يُنشر ويُعلّم ويُرشد الناس إلى العقيدة الشيعية الصحيحة.

كتب وتقاليد المذهب الشيعي جرى تفسيرها وتوضيحها في قلب العالم العربي الإسلامي. ووضع أسس الفقه الشيعي، الإمام السادس من الأئمة الإثني عشر، الإمام جعفر الصادق (٧٥٧م). غير أن هذه الكتب والتقاليد والأسس لم تكن معروفة في العالم الصفوي؛ وكانت السلالة الصفوية الحاكمة، المندفعة لفرض المذهب الشيعي، بحاجة لرجال دين شيعة لمحاربة انتشار المذهب السني ولكبح اتجاهات شيعية متطرفة وقرّت الأئمة لدرجة أن وضعت الطائفيين الغلاة ما وراء حدود الإسلام ذاته. وهكذا كان على رجال الدين الشيعة، الذين تم استدعاؤهم إلى العالم الصفوي، أن يتبعوا خطاً وسطاً بين التركيبة السنية المسيطرة من جهة وتجاوزات الدين الشعبي من جهة أخرى. رجال الدين المحترفون، الذين أتوا إلى العالم الصفوي، جعلوا من أنفسهم حلفاء مثاليين للحكام: كانوا غرباء، كانوا يتوددون للرعاية

(١) تاريخ جبل عامل، السيد محسن الأمين، مطبعة الإنصاف، بيروت ١٩٦١.

الملكية التي هم بحاجة إليها.

هناك قصة الحنين إلى الوطن التي لا تتأثر بمرور الزمن. بهاء الدين العاملي (١٦٢٢م)، رجل دين شيعي، حقق شهرة عظيمة ومنزلة رفيعة في مدينة أصفهان الفارسية، تكلم عن العالم الفقير الذي تركه في جبل عامل قائلاً:

«آباؤنا وأجدادنا في جبل عامل يُكرّسون أنفسهم للمعرفة والعبادة والزهد وكانوا رجالاً ذوي مكانة مرموقة وكرامة. كان يقال عن جدي شمس الدين إنه في إحدى المرات تساقط الثلج بغزارة في أرضنا ولم يكن عنده أي شيء لإطعام عائلته وأولاده. إلتفت جدي إلى جدتي وطلب منها أن تعمل على إسكات الأطفال ليتسنى له الصلاة إلى الله ويسأله أن يزوّد أطفاله بالطعام. أخذت جدتي بعض الثلج إلى الفرن وقالت هذا هو الخبز الذي سأحضّره.. ثم صنعت من الثلج أرغفة مستديرة. وهذا ما حصل بينما كان جدي منهمكاً بتأدية الصلاة بعد مرور ساعة من الزمن كان لديهم عدة أرغفة من الخبز. عندما شاهد جدي ذلك توجّه بالشكر والحمد لله... هذه هي طريقتنا في جبل عامل. كل هذا انتزع منّا عندما جئنا إلى بلاد العجم (بلاد الفرس)»[٢].

تمّ أخذ بهاء الدين إلى بلاد الفرس عندما كان طفلاً. والده، عبد الحسين العاملي (المتوفى خلال عامي ١٥٧٦ - ١٥٧٧) هاجر إلى بلاد الفرس عندما قام العثمانيون، الذين كانوا يحكمون بلاد الشام حيث يوجد جبل عامل في زاوية بعيدة منها، بإعدام سيدة بتهمة الهرطقة. في بلاد الفرس، أصبح بهاء الدين واحداً من المع العلماء في عصره. درس علم الفقه، والرياضيات والطب وأبدع كعالم ديني وكاتب. جذب أنظار الحاكم، الشاه عباس، وأصبح واحداً من أصدقائه الحميمين. في أصفهان التي كانت في

(٢) تاريخ جباع، علي مروة، بيروت ١٩٦٧، صفحة ٧٢.

ذلك الحين المدينة البارزة في العالم الأصفهاني، توصل ليتبوأ مركز شيخ الإسلام أي أعلى مركز ديني مرموق في المدينة.

أعطت بلاد الفرس بهاء الدين أفضل ما يمكن لعالم ولرجل دين أن يطمح للوصول إليه. لكن بقي لهذا العاملي روحية الأفكار الرئيسية التي ورثها وحديّة المكان الذي هرب منه والده. كان يوجد شيئاً ما في شخصية بهاء الدين المتجوّل والقلق دفعه إلى ترك بلاد الفرس وتمضية سنوات من حياته في مصر وسوريا وأجزاء أخرى من العالم الإسلامي. في إحدى المؤلفات المشهورة «الكشكول»، التي قدّمت خليطاً من رحلاته وآرائه، تذمّر بالقول إن مصيره كان التعرّف على الملوك وحاشيتها[٣]. وندب حظّه قائلاً لو إن والده لم يأتِ إلى بلاد العجم لوفّر عليه مشقة رعاية ومشاركة الملوك. عمل والد بهاء الدين عند الحاكم الصفوي «تاهماسب» وعُيّن شيخ الإسلام في خراسان الواقعة شمالي شرقي إيران.

خلف تحسر بهاء الدين كان يوجد شيء أكثر من نكران جميل لرجل غير قادر على تقدير ما قدّمه له العالم الجديد: كان يوجد أيضاً عشق مع الحدّية الإجتماعية والسياسية. في جبل عامل كانت الأيدي نظيفة، والفقر أعطى معنى للنبل والعزلة. في أصفهان كانت السلطة تنتزع العلامات المميّزة للغريب وتتساءل عن حق التذمر من الوحشية والتجاوزات. رغم ذلك، كان بهاء الدين غارقاً في تقاليد والده، تقاليد جبل عامل ومتكيّفاً مع موقعه الجديد. التقليد الشيعي السائد نصح بالإبتعاد عن السلطة السياسية. غير أن الإذعان لسلطة الدولة كان يحصل على مضض ومترافقاً بالشعور بالضغينة في أحسن الأحوال. إيران الشيعية تحدّت ذلك التجاوب. الدولة الشيعية أو الدولة التي تبنت المذهب الشيعي كدين لها، أثارت بعض المشاكل الجوهرية لرجال الدين الشيعة. بعض علماء الدين، الذين أتوا إلى العالم، تمّ

(٣) الكشكول، بهاء الدين العاملي، القاهرة، دار إحياء الكتب، ١٩٦١.

منحهم سلطة وثروة قيّمة. التنافر بين تقاليد الحدّية السياسية والسلطة السياسية لم يكن سهل الحل؛ من هنا جاء تحسر بهاء الدين العاملي.

الإمام موسى الصدر، الذي قدم إلى لبنان من قم سنة ١٩٥٩، عكس وجهة السير المعتادة على الطريق ما بين إيران ولبنان. جاء من مركز كبير للعالم الشيعي إلى موقع خلفي منعزل. وصل موسى الصدر مع لهجة فارسية وأسلوب فارسي في التكلّم في اللغة العربية. ولو أردنا التكلم بدقة، الإمام موسى الصدر كان غريباً؛ لم يكن يحمل الجنسية اللبنانية؛ لقد أتى مع زوجة إيرانية وجواز سفر إيراني. وقف على الحد الفاصل ما بين الفرس والعرب - شرخ قديم يعود تاريخه إلى النصر الذي أحرزه الإسلام على بلاد فارس في القرن السابع الميلادي، هذا الشرخ الذي هو أقدم بكثير من عمر الدولة الإيرانية. ما وراء لبنان كان يوجد عالم شيعي أكبر في العراق وإيران. الإمام موسى الشاب أتى من أعلى قمة في العالم الشيعي؛ الصدريّون كانوا إحدى العائلات الأكثر شهرة برجال الدين والعلماء في ذلك العالم. جلب معه إلى لبنان هيبة سلالته ومسقط رأسه. علاوة على ذلك، ادّعى أنه متحدر من جبل عامل. هذه هي الطريقة. التي قدّم الإمام موسى الصدر نفسه كما جاء في مجلة العرفان العدد ٥٨ لعام ١٩٧٠:

«أنا أنتمي إلى عائلة جذورها موجودة في لبنان: أنا متحدر من سلالة الإمام موسى بن جعفر (الإمام السابع من الأئمة الإثني عشر والمتوفى سنة ٧٩٩م) أجدادي تركوا لبنان عندما وصل الإضطهاد التركي إلى ذروته وتمّ إحراق كتبنا وقتل علمائنا. لقد غادر أجدادي إلى العراق وإيران حيث أسّسوا عائلة كبيرة.

أنا ولدت في إيران حيث والدي، صدر الدين الصدر، عاش وأسس جامعة دينية في مدينة قمّ. درست في البداية في تلك الجامعة، بعدها نلت شهادة جامعية في القانون من جامعة طهران. أكملت دراستي الدينية في

النجف، في العراق. استلمت مهامي الدينية في جنوب لبنان بعد وفاة أحد أقاربي السيد عبد الحسين شرف الدين»[٤].

لقد كان قادماً جديداً ولكن قدومه لم يكن بدون أهمية. البلد الحسّاس، الذي أتى إليه، كان يملك أفكاراً راسخة حول رجال خُلقوا ليقودوا ورجال كتب عليهم أن ينقادوا. رجال المؤسسات الدينية والأدبية من شيعة لبنان، الذين سافروا إلى العراق وإيران، كانوا يعرفون عن عائلته. السيد محسن الأمين (١٨٦٧ - ١٩٥٢) أحد كتّاب الأدب والعلماء الأكثر إنتاجاً في جنوب لبنان، أعاد إلى الذاكرة رحلة قام بها مع ابن عمه إلى العراق وإيران سنة ١٩٣٤ عندما كان السيد موسى نفسه في السادسة من عمره. في العراق، نزل ضيفاً على آل الصدر، وفي مشهد، حيث يوجد مقام الإمام الثامن الإمام علي الرضا، نزل ضيفاً على والد السيد موسى، صدر الدين الصدر: «مضيفنا هناك كان العالم السيد صدر الدين الصدر. إعتاد السكن في قم ومراقبة مدرسة الشيخ عبد الكريم اليازدي. لقد كان ناظرها ومديرها. ثم انتقل إلى مشهد إلى مقام الإمام الرضا حيث كان في طليعة علمائها. وبعد أن غادرنا داره إلى منزل استأجرناه لتمضية إقامتنا هناك، كان يقوم بزيارتنا كل صباح ومساء؛ كان يرافقنا في ذهابنا إلى بيوت الناس الذين سبق أن قاموا بزيارتنا[٥]». الشهرة كانت تنتشر. الرجال عُرفوا من خلال سمعتهم؛ لقد ورثوا الشهرة عن أجدادهم. الرجل حمل معه حسبه ونسبه في المجتمع الإسلامي. وإن معرفة حسب ونسب الرجل كانت ضرورية «لتقدير قيمته». تقارب الرجل من الآخرين لم يبدأ من لا شيء. لهذا فإن حسبه ونسبه ساعد الآخرين على الحكم لمعرفة طينته. كان يوجد اعتقاد أن من يرث تركة مميّزة عليه أن يتقيّد بتقاليد أجداده. وكما قال أحد المؤرخين: «الرجل الذي أجداده يملك موهبة عظيمة وملكية كبيرة، يخشى فقدان التركة التي ورثها

(٤) العرفان، عدد ٥٨، أيار ١٩٧٠، صفحة ١٢٩.
(٥) رحلة السيد محسن الأمين، محسن الأمين، بيروت، دار الغدير، صفحة ١٩٠ - ١٩١.

عنهم»(٦).

من السلالتين معاً، المتحدرتين من الأب والأم، حمل السيد موسى الصدر العبء والهدية عن أجداده المميّزين. لقد كان ابن آية الله صدر الدين الصدر (١٨٨٢ - ١٩٥٣)؛ جده من أمه، آية الله حسين القمّي (المتوفى سنة ١٩٤٥)، كان رجل دين ناشط في طليعة المعارضة للحاكم الإيراني رضا شاه البهلوي، ولمحاولة هذا الأخير التي حصلت في أواخر العشرينات من هذا القرن لجعل الدولة مركزية وتفويض دور رجال الدين الشيعة.

كاتب سيرة حياة السيد موسى الصدر، وفي معرض كتابته في أواسط الستينات أي بعد سبع سنوات من وصول الإمام إلى لبنان، بدأ بحديث للنبي ﷺ نُقل عن النبي محمد ﷺ قوله: «أنا وعائلتي شجرة في الجنة، لها فروع في هذا العالم. من يمسك بهذه الفروع يجد طريقه إلى ربّه». السيد موسى، يقول كاتب السيرة، «هو فرع من هذه الشجرة التي قاعدتها النبوة وفروعها الإمامة»(٧).

هذه السيرة تنسبت جذور الإمام موسى إلى جبل عامل، إلى بلدة معركة في قضاء صور وهي واحدة من ثلاثمائة قرية في جبل عامل. أحد أجداد السيد موسى، السيد صالح شرف الدين كان «عالماً كامل الصفات» و«رجلاً تقيّاً يخشى الله». في أواخر القرن الثامن عشر، تعرّض صالح شرف الدين للاضطهاد من قبل الحاكم العثماني أحمد باشا الجزّار (دام حكمه من سنة ١٧٧٥ حتى سنة ١٨٠٤) الرجل القاسي الذي وُصف في موسوعات التاريخ الشيعي كأفظع مُنكّل بالمؤمنين. إثنان من أولاد السيد صالح قُتلوا؛ هو نفسه

(٦) الولاء والزعامة في المجتمع الإسلامي الأول، روي متهادي، دار نشر جامعة برنستون ١٩٨٠ صفحة ١٠١.

(٧) الشيعة على المفترق، نجيب جمال الدين، بيروت ١٩٦٧، صفحة ١٥٥.

حُكم عليه بالموت و«تمّ حرق منزله وكتبه وكنوزه». لقد سُجن كما يقول كاتب سيرة موسى الصدر، غير أن الأسطورة قالت إن حراس سجنه، المتأثرين بورعه وصلواته، سمحوا له بالهرب. بعد فراره من السجن، شقّ صالح شرف الدين طريقه إلى المدينة الشيعية المقدسة في العراق، النجف وهي الدار التي تضمّ طائفة كبيرة من العلماء ورجال الدين. ولداه الإثنان اللذان بقيا على قيد الحياة، صدر الدين (والد جد الإمام موسى الصدر) ومحمد علي ثمّ نقلهما إليه في النجف. وفي النجف، أصبح صدر الدين واحداً من العلماء المميّزين، غير أنه بعد فترة وفي وقت غير معروف غادرها ليستقر في أصفهان في بلاد فارس. كان أباً لخمسة أولاد، جميعهم أصبحوا علماء.

كان اسماعيل الصدر (جد الإمام موسى) أحد أبناء صدر الدين، الابن الأكثر بروزاً. وُلد اسماعيل في أصفهان، أكمل دراساته الدينية في النجف، في العراق، ومن ثمّ عاد إلى أصفهان. يقول كاتب سيرة الإمام، إن اسماعيل درس مع المجتهد الكبير مرزا حسن شيرازي (المتوفى سنة ١٨٩٤) الذي قاد حركة تمرد كبيرة في ايران خلال سنتي ١٨٩١ - ١٨٩٢ ضد قرار الشاه القاضي بمنح احتكار التبغ لشركة بريطانية. كان السيد اسماعيل أباً لأربعة أولاد: السيد محمد مهدي الذي شارك في حركة تمرد عراقية ضد البريطانيين سنة ١٩٢٠؛ السيد صدر الدين (والد الإمام موسى الصدر)، السيد محمد جواد والسيد حيدر، جميعهم رجال تقوى ومعرفة. ولقد وصل السيد اسماعيل إلى رتبة مرجع وأمضى آخر سنوات حياته في النجف حيث توفي سنة ١٩١٩. سيرة اسماعيل الصدر تصوّره بأنه رجل ذو «أيدي نظيفة» في الأمور المالية.

«ثروة كبيرة جاءت للمرجع الديني السيد اسماعيل الصدر ولكنه رفض مسّها بنفسه وأوكل الأمور المالية لشخصين معروفين بأمانتها وتقواهما. في

إحدى المرات، لاحظ هذان الشخصان، اللذان كانا بمثابة أمينَيّ الصندوق، أن أولاد المرجع الأربعة كانوا يرتدون ثياباً بالية فحاولا الحصول على اذنٍ منه لصرف أربع ليرات لشراء ثياب جديدة لهم. ولم يخبراه عن الهدف الذي من أجله طلبا المال لأنهما كانا يعرفان مسبقاً أنه سيرفض. غير أن المرجع أصرّ على معرفة الغرض الذي من أجله سيصرف المال. عندها انفعل أحد الشخصين قائلاً: إن المال هو لأربعة متحدرين من سلالة النبي ﷺ كان مصيرهم التعرف على شخص ظالم مثلك»[٨].

اتّخذ رجال الدين خيارهم: كان بإمكانهم معانقة هذا العالم «الدنيا» أو كان بإمكانهم الترفع فوقه. كان بإمكانهم أن يدخروا الثروات، أن يجيّروها لأولادهم وورثتهم، أو كان بإمكانهم استعمال الثروات المتوفرة لهم من متبرعين أثرياء لمساعدة الأيتام والأرامل وطلاب العلوم الدينية الذين جاءوا للدراسة معهم. كانت اغراءات الدنيا موجودة أمام السيد اسماعيل، يقول كاتب سيرة الإمام، لكنه ترفّع فوقها.

آية الله صدر الدين الصدر، والد الإمام موسى،، يتابع كاتب سيرة الإمام قوله، كان رجلاً متواضعاً «يحب العزلة أكثر من حشد الناس». درس مع اثنين من ألمع وأشهر علماء الدين الشيعة في النجف... ثم في أواسط العشرينات، عبر الحدود إلى ايران حيث أقام في خراسان، واستقر أخيراً في قمّ. كان السيد صدر الدين الصدر أحد اركان «المدرسة»، المعاهد الدينية في قمّ. «والمعروف»، يقول كاتب سيرة الإمام، أن مركز «مرجع التقليد» الذي كان يشغله آية الله حسين بورو جردي (المتوفى سنة ١٩٦١)، «كان لآية الله صدر الدين الصدر لو طالب به». توفي صدر الدين الصدر في قمّ سنة ١٩٥٣، وكان رجلاً ذا منزلة عظيمة ولديه وسائل مالية متواضعة، يقول كاتب سيرة الإمام ان الإمام موسى أخبره: «كان عمري خمسة وعشرين عاماً

(٨) الشيعة على المفترق، سالف الذكر، صفحة ٢٦.

في ذلك الحين (عندما توفي والدي). لا أتذكر أبداً أنني شاهدت سجادة عجمية في منزل والدي».

في مثل هذا البيت، بيت «المراجع والمجتهدين الدينيين الثوّار» في قمّ وفي سنة ١٣٤٧ هجرية (سنة ١٩٢٨م)، وُلد ذلك العربي اللبناني، الإمام موسى بن صدر الدين الصدر، ابن اسماعيل، إبن صدر الدين، ابن صالح شرف الدين، الثائر ضد الجزّار في جنوب لبنان». الحسب والنسب كانا أهم من مكان الولادة. الرجل، الذي وصل إلى مدينة صور الساحلية كمفتي لها استطاع أن يُرجع سلالة أجداده إلى عالم ديني من جنوب لبنان، لا بل إلى أبعد، إلى الإمام السابع. العالم الشيعي، في ايران والعراق ولبنان، أعطى الإمام موسى الصدر شرعيته، مكان الولادة الإيرانية، التي كانت موضوع جدل عند بعض العرب السّنة الذين أعطوا الأولوية للجنسية على العقيدة، لم تشكل عقبة عند الناس الذين اتبعوا الإمام. كاتب سيرة الإمام وجّه تحية إجلال إلى قم قائلاً: «قمّ كانت لأهل البيت كما كانت المدينة المنورة في الحجاز للنبي محمد ﷺ ومكة المكرمة لله: لقد كانت مكاناً مباركاً»[٩].

ليس مؤكداً إذا كان السيد صدر الدين الصدر، والد الإمام موسى، اعتبر انتقاله من العراق إلى إيران في العشرينات بمثابة عبور حدود دولية، لقد كانت فترة تغييرات سياسية مهمة. الأمبراطورية العثمانية انهارت في الحرب العالمية الأولى. أساليب الحكم، المتبلورة في العراق على مجرى القرون والتي كانت مبنية على التوازن بين السلطة الأمبراطورية وبين قوة وجهاء البلد المحليين وعاداتهم، تحطمت، وعندما فرضت السلطنة العثمانية سيطرتها على مناطق جغرافية في العراق، كان عليها تكييف نفسها مع تنوع البلد - أرضٌ تضم المسلمين السّنة والشيعة، عرب وأكراد، ومجموعات صغيرة من المسيحيين واليهود. قوة المسؤولين العثمانيين، المتمركزة في مدن كبيرة كالموصل

(٩) الشيعة على المفترق، سالف الذكر، صفحة ٤٨.

وبغداد والبصرة، لم تكن أبداً قادرة على اختراق الريف والمناطق الجبلية، رغم كونها دولة سنّية متعددة الجنسيات، لم تسع الأمبراطورية العثمانية لتهدئة الأكثرية الشيعية في البلاد. وحسب الممارسات والقوانين العثمانية تمّ استبعاد الشيعة عن المناصب الحكومية، لكن المدن الشيعية الدينية سُمح لها بمقدار كبير من حرية العمل والاستقلال الذاتي. في هذه المدن الشيعية المقدسة، النجف وكربلاء، رجال الدين علموا وعقدوا محاكم وحافظوا على تقاليد علماء الدين الشيعة. المدينتان كانتا، لاحظ عالم انكليزي، «المقاطعتين المستقلتين اللتين كان العثمانيون يميلون إلى عدم التدخل فيهما إلّا إذا تم استفزازهم. علاقات العقيدة، التجارة والعائلة ربطت النجف وكربلاء مع المراكز الدينية الفارسية على طول امتداد الحدود. النجف وكربلاء، تطلعتا نحو قم ومشهد أكثر من تطلّعها نحو بغداد والبصرة»(١٠).

مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، وقع العراق تحت السيطرة البريطانية. كان البريطانيون قد شقّوا طريقهم هناك في مجرى الحرب ووصلوا لأسباب دفاعية، في شهر تشرين الأول سنة ١٩١٤ إلى مدخل الخليج الفارسي، لحماية المصالح البريطانية. كانت توجد مصالح بريطانية في حقول النفط جنوبي إيران وكان هناك اهتمام السلطات البريطانية القديم العهد في الوزارة الهندية بأمن الأمبراطورية في الهند وبأمن الطرق التجارية والمواصلات. لكن في مجرى الحرب، وبعدها في اعقاب نتائجها الفورية، ما أسماه البريطانيون «الزحف إلى مسوبوتاميا» تحوّل إلى هيمنة على العراق. القرار الذي اتّخذ في سان ريمو سنة ١٩٢٠، القاضي بمنح انتداب بلاد الشرق الأدنى، أعطى الدخول البريطاني إلى العراق، لأسباب دفاعية، نوعاً من موافقة شرعية. مزوّدين بقرار الانتداب وقوة السلاح الجوي الملكي، شرع البريطانيون في تشكيل حكومة عراقية جديدة. معتقدين أن ذلك ممكن التحقيق،

(١٠) بريطانيا في العراق، بيتر سلاغليت، دار نشر إيثاكا، لندن ١٩٧٦ صفحة ٣٠١.

كما أن المصالح البريطانية في العراق يمكن تأمينها إذا تمّ إعطاء «إدارة محلية» زخارف السلطة بينما تكون السلطة الفعلية في أيدي مستشارين بريطانيين.

في أرض يوجد فيها أكثرية شيعية وأقليات مسيحية ويهودية وكردية كبيرة، وقبائل متمردة وشرسة في مناطق نائية، دعم البريطانيون وعملوا من خلال حكومة أقلّية تمّ تأليفها من وجهاء سُنّة من المدينة وبيروقراطيين وضباط عثمانيين سابقين. في البداية، عندما شقّوا طريقهم إلى العراق، كان البريطانيون مقتنعين بأن ابتعاد الشيعة عن العثمانيين سوف يجعل الشيعة يقبلون بالحكم البريطاني، لكن المدن المقدسة الشيعية لم ترضخ. في استفتاءات أجراها البريطانيون خلال سنتي ١٩١٨-١٩١٩، تبين أن المجتهدين الشيعة في النجف وكربلاء يعارضون الحكم البريطاني في العراق ويعارضون الحكومة التي جاء بها البريطانيون. كان واضحاً أن بريطانيا كانت تريد حكم أقلية، هذه الرغبة كانت تمنع إقامة تحالف مع الشيعة.

يقول أحد علماء الدين في جملة موجزة ملائمة: «مع وجود السّنة في الحكم، البريطانيون يستطيعون السيطرة على البلاد بواسطتهم؛ مع وجود الشيعة في الحكم، لن يكون هناك حكم انتداب»(١١). من أجل تنفيذ المخطط البريطاني، كان يجب تحطيم قوة «علماء الدين الشيعة الرجعيين» (هذه الكلمات تكررت في التقارير البريطانية المرسلة من العراق) وإرغام العلماء الأكثر تمرداً من بينهم على عبور الحدود إلى ايران.

«جرترود بل» Gertrude Bell، المستشرقة والرحالة، المشهورة، التي عملت كسكرتيرة للشؤون الشرقية للمفوض السامي في العراق، احتفظت بمذكرة حول هذه الفترة المضطربة. كتبت مراراً عن صعوبة «الاتصال بالشيعة»، خصوصاً مع قادتهم الدينيين، المجتهدين، في تدوينها الذي كتبته

(١١) بريطانيا في العراق، سالف الذكر، صفحة ٣١٤.

في ١٤ آذار ١٩٢٠، نلتقي بالصدفة عائلة الصدر: «توجد مجموعة من هؤلاء النبلاء في الكاظمية، المدينة المقدسة التي تبعد ثمانية أميال عن بغداد، وهم مؤيدون بشدة للإسلام ومعارضون للبريطانيين. على رأس هؤلاء النبلاء توجد عائلة اسمها الصدر، التي من الممكن أن تكون مشهورة بالعلم الديني أكثر من أية عائلة أخرى في العالم الشيعي كله»(١٢).

أحد «الشيعة المتقدمين» و«المفكرين الأحرار» في بغداد رافق السكرتيرة للشؤون الشرقية في زيارة أحد المجتهدين الكبار، حسن الصدر وابنه السيد محمد، ابن عم والد الإمام موسى الصدر والملّا الناشط سياسياً وهو في بداية الثلاثينات من عمره، والذي لعب دوراً رئيسياً في السياسية العراقية لفترة ربع القرن التالية. (السيد حسن الصدر، إبن عم اسماعيل الصدر، كان متحدراً من نفس سلالة صالح شرف الدين الذي ترك منزله في جبل عامل في بداية سنة ١٧٨٠؛ كان عند صالح ولدان والسيد حسن كان متحدراً من الابن الأصغر بينما اسماعيل الصدر كان ينتمي للفرع الأكبر).

تجدر الإشارة أن زيارة «جرترود بل»، التي قامت بها إمرأة أجنبية تتمتع بروح مستقلة، كانت قد رفضت ارتداء الحجاب في هذه المناسبة:

«السيد محمد ابن السيد حسن وقف على الشرفة لاستقبالنا، كان يرتدي ثوباً أسود، لحية سوداء وعلى رأسه عمامة المجتهد الضخمة ذات اللون الأزرق الداكن. جلس السيد حسن في الداخل، وهو شخصية مهيبة وحتى مخيفة، لحيته البيضاء متدلية نزولاً حتى صدره، وعمامة حجمها أكبر من حجم عمامة السيد محمد. جلست بالقرب منه على السجادة وبعد تبادل التحيات الشكلية بدأ التكلم عن الفترات المتقلبة التي مر بها العالم الديني... تحدثنا عن عائلة الصدر في كل فروعها، الفارسية، السورية

(١٢) رسائل جرترود بل، دار نشر ارنست بن، لندن، ١٩٢٧، صفحة ٤٨٤.

والموسوبوتامية (العراقية) وبعدها تكلمنا عن كتب ومجموعات كتب صدرت في القاهرة، لندن، باريس وروما..

قلت أريد أن أخبره عن سورية وأخبرته كل شيء أعرفه حتى تفاصيل آخر برقية التي أفادت أن فيصل سيتوج ملكاً. «على كل سوريا حتى البحر» سأل باهتمام مفاجىء. «كلا» أجبت، «الفرنسيون يبقون في بيروت»، «هذا ليس عملاً جيداً»، أجاب، ثم تناقشنا في الأمر مع كل تأثيراته. بعدها تكلمنا حول البلشفية. وافق أنها كانت نتيجة الفقر والجوع، «لكن»، أضاف «كل العالم فقير وجائع منذ هذه الحرب»، قلت حسب مفهومي إن الفكرة البلشفية هي جرف كل شيء موجود والبناء من جديد. كنت خائفة من أنهم لا يعرفوا فن البناء. لقد صادق على ذلك»(١٣).

بعد أشهر قليلة من حصول هذا الاجتماع، اندلعت ثورة واسعة النطاق، لعب فيها السيد محمد الصدر دوراً رئيسياً ضد البريطانيين في العراق، وصف مؤرخ غربي السيد محمد أنه «من أنشط الوطنيين الشيعة في بغداد»(١٤). مجتهد آخر من عائلة الصدر، السيد محمد مهدي الصدر، (عم الإمام موسى من الأب)، وُجد أيضاً بين صفوف علماء الدين الشيعة الثائرين. المرجع الكبير محمد تقي شيرازي اعطى «موافقة دينية» على الثورة عندما أصدر فتوى مفادها أنه «لا أحد غير المسلمين له الحق أن يحكم المسلمين»(١٥).

الثورة، التي استمرت بعنف طوال صيف سنة ١٩٢٠، تمّ قهرها في خريف تلك السنة، حصيلتها كانت ابتعاد شيعي أعمق عن البريطانيين، في أعقاب هذه الثورة.

(١٣) رسائل جرترود بل، سالف الذكر، صفحات ٤٨٤-٤٨٥.
(١٤) العراق، ايرلاند، دار نشر روسل، نيويورك ١٩٧٠ صفحة ١٤٦.
(١٥) الثورة العراقية الكبرى، عبد الله فياض، دار نشر الارشاد، بغداد ١٩٦٣، صفحة ١٦٨.

توضحت الأمور بشكل أكثر: بريطانيا سوف تضاعف من اعتمادها على وجهاء السنّة سكان المدينة وعلى الطبقة السياسية العثمانية السابقة؛ ونظام الحكم العراقي الجديد سيمضي لوحده ويستبعد الشيعة. جرترود بل نفسها اعترفت بالمشكلة. في سجلها اليومي في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٩٢١، كتبت تقول: «الحكومة الحالية، التي هي بغالبيتها من السنّة، لا تعمل أي شيء لاسترضاء الشيعة. هي الآن تدرس عدداً من التعيينات الإدارية للمناطق؛ تقريباً كل الأسماء التي تمّ اختيارها هي أسماء سنيّة، حتى للمنطقة الشيعية الواقعة على نهر الفرات»(١٦).

نظام الحكم العراقي الذي يدعمه البريطانيون، تمّ تزويده بملك من خارج العراق وبمزيد من الضباط والبيروقراطيين العثمانيين السابقين. الملك، الأمير فيصل، إبن حليف بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، الشريف حسين الهاشمي من مكة، كان قد أعلن حق المطالبة بسوريا وكان قد أقام هناك «مملكة عربية» قصيرة العمر لكن الفرنسيين كان لديهم مشاريع أخرى لسوريا: سوريا كانت لهم، هم أصرّوا، «شرف» فرنسا ومصلحة فرنسا كانتا تتطلبان وجوداً في منطقة الشرق، وهكذا في صيف سنة ١٩٢٠. طرد الفرنسيون فيصل وحاشيته من الضباط والبيروقراطيين. فيصل الآن أصبح أميراً يفتش عن منطقة خاضعة له. أصدقاؤه والمعجبون به من البريطانيين، ومن بينهم لورانس وجرترود بل، رفعوا «ترشيحه» للعرش العراقي(إحدى القصص الخيالية كانت تقول إن فيصل كان الإختيار الحرّ لشعب العراق). كان البريطانيون يريدون ملكاً يتولى السلطة ولا يحكم. فيصل، وهو شريف، متحدر من سلالة النبي غريب عن العراق، كان مرشحاً مثالياً. في أواخر شهر حزيران سنة ١٩٢١، سنة بعد طرده من دمشق، وصل فيصل إلى العراق، غريب يعتمد على قوة وحسن نية أسياده البريطانيين. على

(١٦) رسائل جرترود بل، سالف الذكر، صفحة ٥٨٥.

متن السفينة التي أحضرته من ميناء جدة، كان يوجد عدة وجهاء عراقيين يواكبونه للبلد الذي كان يطالب بعرشه. من بين هؤلاء الوجهاء كان السيد محمد الصدر، إبن المجتهد الكبير حسن الصدر. وكان لا يزال ممكناً لشخص مثل محمد الصدر ليأمل أن الحكم الجديد وملكه المقترح سوف يمدان أيديهما للشيعة.

«بطريقة أو بأخرى»، كتبت جرترود بل في سجلها اليومي في ٣٠ حزيران ١٩٢١، «كان على فيصل أن يُعلن ملكاً». كل شيء لم يكن «ممهداً بعد» هي اعترفت: «إستلمنا تقارير تفيد أن قبائل نهر الفرات في المنطقة السفلى يحضّرون عرائض هائلة لصالح جمهورية وأن جميع المجتهدين الشيعة هم ضد فيصل». هي لن «تشارك أبداً في صناعة الملوك مرة ثانية، هو عمل مجهد جداً»، كتبت في مقدمة سجلها اليومي في ٨ تموز سنة ١٩٢١. مهمة «صناعة الملوك» تمّت في أواخر شهر آب سنة ١٩٢١(١٧).

إستمر المجتهدون بالمطالبة بالاستقلال العراقي من البريطانيين، بدعوة أتباعهم للثورة والمطالبة بعدم التعاون مع البريطانيين. كان من الصعب معرفة أين انتهت معارضة العلماء للحكم البريطاني وأين بدأت معارضة السيطرة السنيّة. في شهر تشرين الأول سنة ١٩٢٢، المرجع الديني المؤثر مهدي الخالصي ندّد بالملك الهاشمي وقال إن شعب العرق تخلّى عن تعهده بالطاعة الذي كان قد قطعه للملك فيصل. في شهر تشرين الثاني، صدرت فتوى من قبل عدة مجتهدين بارزين ضد انتخابات مقترحة، أراد من خلالها الحكم الملكي والبريطانيون المصادقة على معاهدة عراقية - إنكليزية وإعطاء قبول واحترام أكبر للوجود البريطاني داخل الحياة السياسية في العراق. في منتصف شهر أيار من السنة التالية طالب علماء الدين في النجف تأييد ورأي زملائهم في مدينة الكاظمية الدينية، كتبوا للمرجع الديني مهدي

(١٧) رسائل جرترود بل، سالف الذكر، صفحات ٦٠٦ - ٦١٠.

الخالصي، للسيد حسن الصدر، وللسيد محمد مهدي الصدر، مطالبين بفتوى ضد الانتخابات. بعد أن أصدر العلماء الثلاثة قراراً قوياً بشكل خاص ضد الانتخابات، أصدرت الحكومة العراقية والسلطات البريطانية أمراً بطرد المرجع الديني مهدي الخالصي الذي برز كالرئيس الروحي للمقاومة ضد الحكم العراقي وأسياده البريطانيين. عدد من المجتهدين الآخرين عبر الحدود إلى إيران تضامناً مع المهدي الخالصي.

كان عالم المجتهدين يتمّ تقويضه بشكل متزايد، الحضارة التي أعطت المجتهدين مقداراً جيداً من السيطرة على الأمور الدينية والثقافية، كان يتمّ إخضاعها لدولة تتبع اسلوباً سياسياً وحضارياً مختلفاً تماماً. فيصل نفسه، رئيس هذه الدولة المعيّن، كان رجلاً متسامحاً ودنيوياً. كشريف (رغم أنه سنّي) أرجع سلالته من خلال الإمام حسن بن علي بن أبي طالب، الإمام الثاني من الأئمة الاثني عشر إلى النبي (ﷺ). لم يكن يضمر عداوة خاصة للشيعة، لكن الطبقة السياسية المحيطة به كانت مصنوعة من طينة مختلفة. بعض أركان حاشيته استقدم للحكم الجديد نظرة متشددة، المانية الواقع، حول القومية، التي كانت تقريباً عنصرية في افتراضاتها حول من كان «عربياً» ومن لم يكن. كانت حضارة المجتهدين في المدن الشيعية المقدسة، والمؤلفة من الحضارتين الفارسية والعربية، عاملاً صمّمت الطبقة السياسية الجديدة على تحطيمه. النظام التربوي، الذي حدّد وفرض مبادئه شخص اسمه ساطع الحُصري (١٨٨٠ - ١٩٦٨)، وهو الأيديولوجي القومي العربي الأكثر تأثيراً في ذلك الحين، اعتبر أن المجتمع الشيعي في العراق وطبقته الدينية يشكل عوائق في طريق حضارة عضوية متجانسة. من موقعه كمدير عام لوزارة التربية، ساطع الحصري، الذي كان عثمانياً متحمّساً، طبق النظام التربوي الذي أعاد كتابة الكثير من التاريخ الإسلامي وعزا مفخرة المكان لجوهره العربي، نابذاً أو مشوهاً بذلك مساهمات الحضارة السامية للإسلام الفارسي

في القرون الوسطى. في علم التاريخ العربي «الصافي» لساطع الحُصري وطبقته السياسية، الشيعة والمجتهدون الشيعة كانوا أناساً ما وراء حدود «الأمة العربية». العراق، في نظر ساطع الحُصري والأيديولوجيين الذين يفكرون مثله، كان يشكّل نواة كيان عربي أكبر خلافاته يجب إزالتها؛ طوائفه المتنوعة يجب إخضاعها. المؤرخ البريطاني «إيلي كيدوري» Elie Kedourie لخّص وجهة نظر وعقلية هذه الطبقة السياسية: «موقف الطبقات الحاكمة نحو السكان الذين كانوا تحت حكمهم كان موقفاً مبنياً على الازدراء والنفور: كانوا رجال مدينة يحكمون سكان الريف البدائيين؛ كانوا الحكومة مع ما تمثله من عظمة رفيعة وقوة لا حدود لها، الآخرون كانوا أشخاصاً تابعين يجب عليهم أن يكونوا خاضعين للطاعة»[١٨] مثل شيعي شعبي عبّر عن الشعور المتزايد للحرمان السياسي لدى الشيعة بالقول: «الضرائب والموت هما من نصيب الشيعة بينما المناصب هي من نصيب السنّة».

من بين هؤلاء المجتهدين، الذين لم يتحنوا أمام الرياح أو يقبلوا بالقوانين الجديدة. إختاروا أن يُقيموا بيوتاً جديدة لهم في المدن الدينية في إيران. خليط من الابعاد القسري للمجتهدين ونزوح طوعي إلى إيران كان يستنزف الكثير من المجموعة الدينية الشيعية في العراق. حوالى اثني عشر ألف عالم ديني كانوا قد درسوا في «المدارس»، المعاهد الدينية في النجف، قبل مجيء البريطانيين؛ الآن، لاحظ هذا البريطاني، «الرقم ينقص يوماً بعد يوم؛ ويُخشى أن ينقرض العلم الديني في أحد الأيام»[١٩].

المدارس الدينية الشيعية في إيران أخذت زخماً كبيراً من الأحداث في العراق. خلال القرن السابق، كما قال أحد الطلاب الأميركيين في إيران، المدارس الدينية في قمّ سقطت في «الإهمال والخراب والمدينة كانت تعاني، ما

(١٨) مملكة العراق، إيلي كيدوري، دار نشر نيقولسن، لندن ١٩٧٠، صفحة ٢٦١.
(١٩) رحلة السيد محسن الأمين، سالف الذكر، صفحة ١٠٦.

أسماه رئيس تحرير صحيفة ومدرِّس بارز، من مجاعة فكرية» القادمون الجدد كانوا بحاجة إلى الحرم في قمّ وشرعوا في إعادة تعميره. أحد القادمين الجدد الشيخ عبد الكريم يازدي (المتوفى سنة ١٩٣٥)، كان المحرك الرئيس وراء هذا الإحياء؛ قادم جديد آخر هو والد السيد موسى الصدر، كان زميل الشيخ يازدي ومساعده الرئيسي.

تبعاً للظواهر، كان عبور الحدود من العراق إلى إيران، الذي قام به آية الله صدر الدين الصدر، عبوراً إلى دولة المؤمنين، إلى دولة شيعية. لكن في إيران أيضاً، كانت فترة صعبة لرجال الدين الشيعة. جندي طموح، اسمه رضا خان، لاحقاً رضا الشاه، أعلن نفسه ملكاً سنة ١٩٢٥ وشنّ «ثورته الخاصة به من فوق». كان رضا الشاه رجلاً عديم الرحمة. مراكز القوة المناوئة له ـ القبائل والملاّ ـ كان يجب سحقها. الوقت كان وقت الخيبة بالنسبة للملاّ. كان رضا الشاه مصمماً، كتب مؤرخ غربي، «على استبدال الإسلام كقوة لتلاحم المجتمع بالولاء للدولة الإقليمية. واعتبر الطبقات الدينية عائقاً أمام سياسته»[٢١]. سنة ١٩٢٩، أي سنة بعد ولادة السيد موسى الصدر، صدر مرسوم يسمح «باللباس العصري» لجميع الرجال الإيرانيين. سيطرة علماء الدين على النظام التربوي كانت تواجه تحدّياً. في سنة ١٩٣١، محمد رضا بهلوي، ابن الشاه رضا، كان عمره في ذلك الحين اثني عشر عاماً، أُرسل للمدرسة في سويسرا. المدارس الدينية في إيران فقدت من زخمها ونشاطها: مثل هذه المدارس المخصصة للفقراء، كانت من الماضي في مكان يسعى إلى الهروب من الماضي. بعدئذٍ وفي سنتي ١٩٣٥ - ١٩٣٦، «شُنّ صراع رمزي آخر للتخلص من حجاب النساء. الدولة اختارت هذا

(٢٠) إيران: من النزاع الديني إلى الثورة، مايكل فيشر، دار نشر جامعة هارفارد، ١٩٨٠، صفحة ١٠٩.

(٢١) إعادة النظر في موقف مرجع التقليد والمؤسسة الدينية، آن لامبتون، دار نشر جامعة يال ١٩٨١، صفحات ٧٩ - ١١٢.

الموضوع البالغ الحساسية لتسليط الأضواء على الصراع بين أساليبها الجديدة والأساليب التي كان يدعمها ويدافع عنها رجال الدين».

دولة الحاكم المطلق الأوتوقراطي العصري وضعت رجال الدين في موقع الدفاع. جاءت المساعدة لرجال الدين من البازار (السوق الشرقية)، قلعة التقاليد الوطنية. لكن كان يوجد ثمن يجب دفعه: مثل هذه المساعدة جعلت الأوصياء على المؤسسة الدينية يعتمدون كثيراً على الرأي العام وعلى تبرعات البازار المالية لدرجة أنهم كانوا خائفين من محاولة إجراء أي تجديد كبير. الشيخ يازدي، بالذات هو رجل يتمتع بأساليب منفتحة نسبياً، فكر مرة بإرسال بعض الطلاب الدينيين إلى أوروبا لدراسة اللغات الأجنبية وتعلّم الأساليب الغربية. لكن جماعة البازار رفضوا الفكرة وهددوا بقطع تبرعاتهم وبذلك تمّ التخلّي عن المشروع. التسجيل في المدارس الدينية انخفض. السيد محسن الأمين، العالم الديني من جنوب لبنان الذي سافر إلى إيران سنة ١٩٣٤ واجتمع بوالد السيد موسى، كتب عن النظام التربوي الديني في مخاض الأزمة. كان يوجد تسعماية طالب يدرسون مع الشيخ يازدي، يقول السيد محسن: كان عندهم طبيبهم الخاص الذي قدّمه لهم الشيخ يازدي، وكانوا يأكلون ويسكنون في منازل من أموال متوفرة للشيخ. «نحن نربي ونثقّف الطلاب»، الشيخ يازدي قال لزائره: «ولكن عندما ينتهي التثقيف، يخلع الطالب عمامته ويرتدي لباس أهل الحكم وينضم إلى إحدى المصالح الحكومية»[٢٢].

كان الإمام موسى الصدر الشاب نفسه مشدوداً للنظام التربوي العلماني. كونه ابن عالم ديني ـ وكان من الطبيعي لعلماء الدين من رتبة سيد أن يتبعوا خطى آبائهم ـ يتذكّر الإمام موسى أنه بدأ دورة تربوية علمانية، رغم أن والده كان قد أقنعه بعكس ذلك. الإسلام والثقافة الإسلامية كانا

(٢٢) رحلة السيد محسن الأمين، سالف الذكر، صفحة ١٧٠.

«في خطر». وكانت مواهبه مطلوبة لتعزيز مهنة رجال الدين التي كانت في ذلك الحين في موقع الدفاع. أوامر الأب تمّ التقيّد بها، لكن ليس بدون بعض المواربة. الواقع بأن الإمام موسى الصدر كان قد تسجّل في كلية الحقوق في جامعة طهران، عندما كان في أواسط العشريتات من عمره وهذا دليل على أن لديه قالب عقل عصري، ونوعاً من عدم الرضى بما كانت تقدمه دنيا رجال الدين وثقافتهم. دنيا رجال الدين كانت، بالإجمال، «غيتو» معزول. وكان هذا الإمام الوحيد الذي يتجلى بفضولية حول العالم الآخر.

هذا التيقظ الذي استرعى انتباه أحد أقارب الإمام موسى الصدر، دفعه لدعوته إلى لبنان. السيد عبد الحسين شرف الدين (١٨٧٣ - ١٩٥٧)، مفتي صور، كان قد شاهد الإمام موسى الشاب أثناء إحدى الرحلات التي كان يقوم بها رجال دين من لبنان إلى العراق وإيران. كانت توجد روابط عائلية وثيقة بين أسرة السيد عبد الحسين وأسرة الإمام موسى. كان السيد عبد الحسين يكبر والد الإمام موسى بعقد من الزمن. وكان الإمام موسى الشاب قد جلب أنظاره أثناء رحلة قام بها إلى إيران في أواسط الثلاثينات. واستمر في تعقب الطالب الشاب. في سنة ١٩٥٥ عندما كان السيد عبد الحسين في الثانية والثمانين من عمره، أُرسلت دعوة للإمام موسى لزيارة عائلة شرف الدين في صور. الهدف كان لإثارة اهتمام الإمام موسى في لبنان. مراقب شيعي من الخليج الذي عرف عائلة شرف الدين وعائلة الصدر قال إن السيد عبد الحسين، هو رجل يتمتع ببعض المنزلة في العالم الشيعي، رجل وُلد وتعلم في العراق، خاب أمله بمنزلة أولاده. العباءة الدينية يجب أن تنتقل لوريث؛ والسيد عبد الحسين، يائس من أولاده، فكر بالإمام موسى كوريث جدير. السيد عبد الحسين كان قد أمضى أكثرية الثلاثة عقود الأولى من حياته في المدن المقدسة في العراق بين الصدريين. كان جده من أمه واحداً من عائلة الصدر، وكان عمه من أمه المجتهد الكبير حسن الصدر (إبن

عم جد السيد موسى) الذي ذكرناه سابقاً. كان السيد عبد الحسين قد أخذه والده إلى لبنان عندما كان في الثامنة من عمره بينما كان والده يكمل علومه الدينية، ثم رجع بعد عقد من الزمن من أجل دراسات خاصة به وبقي في العراق لغاية سنة ١٩٠٥، عندما كان في بداية الثلاثينات من عمره.

في عصره كان السيد عبد الحسين شخصاً فعالاً ومصلحاً. كان قد عاد إلى لبنان خلال السنوات الباهتة للأمبراطورية العثمانية.. كاتب سيرة حياته يصف وقت وصوله «بعصر مظلم» من الجهل والإقطاعية: الجماهير، الأمة، تخاف من أسيادها ومالكي الأرض، ومن طبقة المسؤولين العثمانيين. وإذا استعملنا كلمات كاتب السيرة، كان الناس يأخذون الحياة «استعباداً وطاعة»[٢٣]. إلى هذه الزاوية البعيدة من بلاد الشام استخدم السيد عبد الحسين أسلوباً دينياً فعّالاً؛ كان اهتمامه ناشطاً في الأمور السياسية. عندما اندلعت اضطرابات القومية الأولى في هذا المجتمع الريفي بعد انهيار الأمبراطورية العثمانية، بعض رجال الأدب والأعيان في جبل عامل طالبوا بسوريا كبرى مستقلة بقيادة ابن الشريف حسين الأمير فيصل. السيد عبد الحسين كان فعّالاً في هذه الحركة. ترأس وفداً شيعياً إلى دمشق في سنة ١٩٢٠ لطرح موضوع الوحدة السورية. المحاولة فشلت. أرجأ الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان مسألة استقلال سوريا. في تلك السنة، مدن صيدا وطرابلس وبيروت الساحلية والعالم الشيعي في جبل عامل وسهل البقاع، تمّ ضمّهم من قبل سلطة الانتداب الفرنسية إلى القلب الماروني في جبل لبنان. لبنان الكبير كان هدية قدمها الفرنسيون إلى الموارنة الذين يعتمدون عليهم.

كان الانتداب الفرنسي مرحلة شكّلت بعض الصعوبة للسيد عبد الحسين. بيته في صور نُهب على أيدي جنود فرنسيين، كتبه ومخطوطاته

(٢٣) كتاب المراجعات، عبد الحسين شرف الدين، بيروت، دار الاندلس، ١٩٦٣، صفحات ١٢ - ١٣.

صُودرت، ومنزل آخر في قرية مجاورة تمّ إحراقه. فرّ إلى دمشق ولكن كان عليه أن يغادر تلك المدينة إلى مصر، وبعدها بقي فترة قصيرة تبلغ عدة أشهر في فلسطين قبل أن يسمح له بالعودة لقاعدته في صور. مع الموارد المحدودة المتوفرة له في تلك المدينة ومع بعض التبرعات التي قدمها مغتربو المدينة في أفريقيا الغربية، وهم رجال هاجروا من جنوب لبنان بسبب الفقر، استطاع السيد عبد الحسين بناء جامع ومدرسة ثانوية كانت صور بحاجة ماسّة إليها، حتى أنه بنى مدرسة للبنات سنة ١٩٤٢. وهذا العمل الأخير كان دليلاً على أساليب الرجل المتسامحة نسبياً.

أرض صور ساعدت السيد عبد الحسين على كتابة مؤلفات استمر في كتابتها في الأمور الدينية، وعلى بناء شهرة محترمة لنفسه حول العلوم الدينية في مدارس النجف وقمّ البعيدة. وبقي لديه اهتمام قوي في الأمور السياسية. في منتصف شهر أيار سنة ١٩٤٥، الفرنسيون، في محاولة رمي أخيرة للنرد للاحتفاظ بموطىء قدم في سوريا ولبنان بوجه المعارضة المحلية والحلفاء، أرسلوا جنوداً سنغاليين إلى بيروت لتعزيز الوجود الفرنسي. إندلعت مقاومة عنيفة ضد الفرنسيين في دمشق، أرسلت عرائض للبريطانيين والأميركيين في بيروت تطالب باستقلال كامل لسوريا ولبنان. عريضة في ملفات البعثة الأميركية في بيروت أرسلها مجتهد صور، السيد عبد الحسين شرف الدين: «نحن أهالي جبل عامل نحتجّ بشدّة ضد إنزال جيوش أجنبية في بلدنا الذي هو مستقل. هذا استخفاف بحريتنا وازدراء لشرفنا. نحن على استعداد للدفاع عن استقلالنا. لن نتردد بذرف آخر نقطة من دمائنا في هذا الخصوص»(٢٤).

كان هذا الميراث المتواضع الذي أراد السيد عبد الحسين تجييره إلى

(٢٤) عريضة السيد عبد الحسين شرف الدين كما جاءت في التقرير الشهري السياسي للقنصلية الأميركية في بيروت، ٢٤ أيار ١٩٤٥.

الإمام موسى الصدر. قدّم أولاد السيد عبد الحسين بعد وفاة والدهم، العرض في شهر كان الأول سنة ١٩٥٧. في ذلك الحين، كان الإمام موسى الصدر قد أكمل سنواته الأربع من العلوم الدينية في النجف، العراق، وعاد إلى قم. في النجف كان تحت رعاية المرجع الأكبر آية محسن الحكيم (١٩٧٠م). كان محسن الحكيم يمارس نفوذاً دينياً عظيماً على شيعة لبنان؛ واعتبر رجل الدين العجوز هذا، الذي اتخذ النجف مركزاً لعمله، أن شيعة لبنان هم ميدان عمله الخاص. لذلك كان بعض الأثرياء هناك يقدمون تبرعاتهم للسيد محسن، باعتبار أنه مرجعهم. وكان والد محسن الحكيم، السيد مهدي، قد عاش وعمل في بنت جبيل وهي مدينة في لبنان الجنوبي؛ وبعد وفاة السيد عبد الحسين شرف الدين، الذي ترك فراغاً في لبنان، فكر المرجع بملئه من قبل رجل دين يتمتع بتباشير النجاح. عندها نصح السيد محسن الحكيم تلميذه الشاب أن يقبل الدعوة المرسلة إليه من صور. وأرسل المرجع محسن الحكيم رسائل عدة إلى أعيان الشيعة يخبرهم فيها عن مواهب الإمام موسى الصدر.

أخذ رجل الدين المولود في إيران وقته قبل أن يقبل الدعوة. وتكفي المقارنة ما بين إيران الكبيرة (مساحتها ٦٢٨،٠٠٠ ميل مربع) ولبنان (مساحته ٤١٠٥ أميال) عندها يصبح من السهل تفهم تردد رجل الدين في الذهاب إلى المكان الصغير. علاوة على ذلك، كانت إيران وطن الإمام موسى الصدر ولغتها لغته الأولى. ورغم الأسطورة في لبنان حول «العربي» الذي وُلد في قم، كان الإمام موسى الصدر رجلاً من إيران مكوناً من تيارات أفكارها. رجل سياسي بشدة، الإمام موسى الصدر كان شاباً يافعاً عندما حاول جدّه من أمه كبح حملة رضا الشاه ضد رجال الدين. كان في أواسط العشرينات من عمره في بداية عام ١٩٥٠ عندما مرت إيران بانفجار قومي انتهى بفوز قصير المدى لمحمد مصدّق، الوطني المتحرر والمثقف غربياً، على

الشاه وبنفي هذا الأخير. (تمّ تحطيم تجربة مصدّق سنة ١٩٥٣ في محاولة قادها الأميركيون ضده). الإمام موسى، إبن آية الله بارز، ومن جهة أمه هو حفيد آية الله إيراني، ذو مكانة عظيمة، لم يكن مرغماً على ترك مسقط رأسه. حالته لم تكن حالة رجل يتمّ نفيه من بلده وبحاجة للتفتيش عن الشهرة والحظ في مكان آخر. كونه رجل حذق، كان الإمام موسى يعرف أن عليه أن يسحر ويتودد إلى بلد جديد، يتعلّم أساليبه، ويسعى إلى موافقته. علاوة على ذلك مسعى سياسي وديني، يقوم به في أواخر الخمسينات رجل إيراني الولادة في مكان يتكلم مكانه العربية، لم تكن مهمة سهلة. نوع حاد من العروبة سيطر على منطقة الشرق في أواخر الخمسينات وبداية الستينات. رجل شاب إيراني الولادة متأمل في خياراته قد يكون ساوره القلق حول ما ينتظره في البلد الذي كان قد زاره مرة فقط صيف سنة ١٩٥٧.

لكن الدعوة قُبلت. تبعاً للظواهر، كان الإنتقال من إيران إلى لبنان انتقالاً إلى مكان أصغر. لكن سنة ١٩٥٩ لم تكن وقتاً سيئاً لرجل دين إيراني الولادة ليجرّب حظه في عالم شيعي بعيد. وقت مغادرة الإمام موسى الصدر من إيران كان وقتاً هادئاً بالنسبة لعلماء الدين في إيران [٢٥] حتى أن روح الله الخميني محرك الثورات، الذي عرّض نفسه لغضب الحكومة عندما حرّض على انتفاضة شعبية صيف ١٩٦٣، والتي أدت إلى نفيه من البلاد سنة ١٩٦٤، حافظ على مستوى منخفض من النشاط في أواخر الخمسينات.

رجل الدين البارز في هذه الفترة، مرجع التقليد، كان آية الله حسين بوروجردي (المتوفى سنة ١٩٦١). بوروجردي، رجل الدين ذو الطبع المحافظ، لم يكن معادياً للشاه. كان يؤمن في فصل الدين عن السياسة وكان ينظر بنفور إلى النشاط السياسي[٢٦]. الحكم الديكتاتوري الملكي كان في

(٢٥) جذور الثورة، كيدي، سالف الذكر، صفحات ١٤٢ - ١٨٢.

(٢٦) جذور الثورة، سالف الذكر، صفحة ٢٠٠.

ذروته في أواخر الخمسينات. رأي حاشية بوروجردي حول الدور الذي يجب أن يلعبه رجال المؤسسات الدينية لخصه رجل دين كما يلي: «واجبنا أن نقدم النصيحة وليس القتال»[٢٧] في مثل هذه الروح رفض بوروجردي معارضة إطاحة رئيس الوزراء المحبوب محمد مصدّق سنة ١٩٥٣.

كان عند رجال الدين شكواهم ضد الملك الإيراني. لكن كانت تعوزهم الثقة بالنفس والأفكار لمحاربة ديكتاتورية محمد رضا الشاه. مدعوماً بالمال والدعم الأميركي وثروة النفط، شرع الشاه في إعادة رسم إيران على نحو غربي. كانت توجد الجزرة والعصا بشكل كافٍ في ترسانته لقهر رجال الدين. إلى جانب ذلك، كان هؤلاء الأخيرون بين الصخرة والمكان الصعب. فإضافة إلى معارضتهم لملك نظر إليهم بازدراء، كان رجال الدين قلقين أيضاً من شعبية الحزب الشيوعي في إيران. هذا الوقت لم يكن وقت رجال الدين. خيبة الأمل بالعمل العصري الذي أعطاهم فرصتهم في أواخر السبعينات لم تكن قد وصلت بعد. إيران كانت تتلمّس طريقها في الخمسينات: التوق للتغيير، للاشياء والأساليب الغربية، كان قوياً بشكل كافٍ ليضع علماء الدين في موقع الدفاع. لم تتم صياغة رد «إسلامي» أو ديني لمواجهة معضلات مجتمع يتمدن ويتثقف بشكل متزايد. بُذلت بعض المحاولات في هذا الإتجاه في بداية وأواسط الستينات، أي سنوات قليلة بعد أن غادر الإمام موسى مسقط رأسه. بعض رجال الدين المنفتحين وبعض المجتهدين المسلمين أدركوا الحاجة لتكييف رسالة ومحتوى المفهوم الديني مع مجتمع قيد التغيّر: كانوا خائفين، وهم على حق، على أنه إذا لم تبذل هذه المحاولة فإن المؤسسات الدينية ستصبح مؤسسات مهجورة بشكل ميؤوس منه. لكن سنة ١٩٥٩ لم تكن تماماً وقت ربيع لرجال الدين في إيران. لقد دفعت رجل الدين الطموح والقلق لاختيار مكان جديد.

(٢٧) تصريح منسوب إلى آية الله أرباب أصفهان كما ورد في «الدراسة الإسلامية» ١٩٧٣، صفحة ١١٥.

المكان الجديد لم يكن بدون جاذبية: رغم أن لبنان كان أصغر بكثير من بلد مسقط رأس الإمام موسى، كان أيضاً بلداً ذا محيط أكثر مرونة. المؤسسة الدينية الشيعية لم تكن متبلورة ومدروسة كما هي في إيران. لهذا السبب، كان المكان بناءً يسهل تدميره وتحدّيه. في إيران كان على الإمام موسى الصدر أن يشق طريقه نحو الأعلى من خلال الرتب ويكافح من أجل مكانته الخاصة. لا يوجد لدينا أرقاماً دقيقة حول عدد الملاّ في إيران سنة ١٩٥٩ عندما غادر الإمام موسى إلى لبنان. لكن الأرقام، لفترة أواخر السبعينات، قدّرت عددر الملاّ في إيران في حدود ما بين ١٢٠،٠٠٠ و١٨٠،٠٠٠. من الممكن أن يكون لدى إيران مئة ألف رجل دين عندما جاء الإمام موسى إلى لبنان. حتى لرجل موهوب مثله كان عليه أن يواجه مجتمعاً مزدحماً جداً ليشق طريقه فيه.

الإبتعاد قليلاً عن المكان حيث أبدع والده وجده من أمه ربما كان حافزاً آخر للمجيء إلى لبنان. الإمام موسى كان سيبقى في إيران إبن آية الله صدر الدين الصدر، حفيد آية الله الكوميّ. (هكذا كان مصير واختيار أخيه الأكبر رضا، المولود سنة ١٩٢٢، والذي بقي في قُم). في لبنان، الإمام موسى الصدر كان عنده فرصة ليبدأ من جديد، في محيط خاص به. هيبة سلالته انتقلت إلى المكان الجديد. لكن عبء أجداده كان أخف.

غالباً ما يكون الإبداع أسهل في مكان جديد. التكييف الذاتي ولعب الأدوار الضروريان للإبداع، هما أصعب للتحقيق في مكان مألوف. المكان الجديد يُطلق طاقات الرجل، ولبنان فعل ذلك للإمام موسى الصدر. مواهب القادم الجديد حول الإمكانيات التي قدمها له بلد جديد تمّ ترسيخها في وقت قياسي.

مواهب الإمام موسى الصدر تكمن في الحقل السياسي، في مقدرته على قيادة الرجال، وفي المقدرة الرائعة على الإتصال بالغرباء. لم يكن مجتهداً

كبيراً. لا تتوفر لديه الأبحاث الصعبة التي كان على رجال الدين القيام بها «ليظهروا» ويقفوا بين زملائهم في إيران والعراق. المقاييس الإحترافية، الجدية، الجليلة والمتكلفة، التي كانت ستقيّده في إيران، تمكن خرقها مع حصانة نسبية في لبنان.

المهارات والقدرة على رؤية الأشياء التي تعلمها في إيران يمكن تنفيذها وتجربتها في لبنان. الإمام موسى الصدر جلب معه إلى لبنان مواهب آيات الله وعلماء الدين الإيرانيين العظماء. المسألة لم تكن أنه حاول نسخ إيران في لبنان. كان رجلاً أكثر ذكاءً وبراغماتياً أكثر مما ينبغي لأن يفكر في مثل هذه الأساليب. لقد عرف إيران؛ بالنسبة إليه إيران لم تكن كتاباً مدرسياً أو أرض الخيال كما كانت بالنسبة لبعض الشيعة في لبنان. لكنه جاء إلى لبنان بعد فترة طويلة من انتهاء سنواته التقويمية. حتى بينما كان يتكيّف مع محيطه الجديد، مسقط رأسه ـ الأفكار والإنجازات الكبيرة لأعضاء مهنة رجال الدين ـ استمر في جذبه والهامه. على مدى أربعة قرون، منذ استقدام الإسلام الشيعي إلى إيران، كان علماء الدين الإيرانيون قد أيدوا وعارضوا الملوك، حشدوا ودفعوا أموالاً لجيوش خاصة، ألفوا تحالفات شملت الساحة السياسية بأكملها، إبتداءً من التجار الأغنياء إلى سواد الناس في المدن. هذا هو النوع من المعرفة والتاريخ الذي استقدمه معه إلى لبنان رجل الدين المولود في إيران.

«من الوحل نحن نستطيع أن نصنع أميراً»، قال أحد الروس عندما كان يُدلي بشهادته ليبرر لماذا هو وآلاف آخرون تبعوا «إمليان بوكاشف»، الذي زعم أنه هو القيصر المتوفي بطرس الثالث في انتفاضة عنيفة خلال سنتي ١٧٧٣ - ١٧٧٤. كان بطرس الثالث قد أغتيل في سنة ١٧٦٢؛ المدعي لم يحمل أي شبه جسدي له. لكنه وعد المتمردين المهددين من دولة تتوسّع بما يلي: «الحرية الأبدية، الأنهار والبحار، كل أنواع الإستفادة والمساعدات،

الطعام، البارود والرصاص، المنزلة والشرف، والحرية للقرون القادمة»(٢٨).
الناس يصنعون قادتهم عندما يريدونهم ويحتاجون إليهم.

في أقل من لمح البصر، برز الرجل المولود في قُم في لبنان. مع أنه لم تكن هناك حاجة لبذل مجهود كبير للصنع من الإمام موسى الصدر الشخص الذي لم يكن هو. في نواحٍ عديدة كان الإمام موسى الصدر حلم مخرج سينمائي لشخصية موضع إعجاب يقارب العبادة. من طول قامته المهيبة (ستة أقدام وست بوصات) في بلد حيث الرجال قصيرو القامة نسبياً، إلى الطريقة المبهرجة التي ارتدى فيها عمامته، ونظافة وأناقة لباسه، الإمام موسى الصدر ملائم للدور، كان لبنان لفترة طويلة بلداً صعب الإرضاء حول مظهر، ميزة وهيبة أي زعيم. الشيعة في شكل خاص عُرف عنهم أنهم شعب عنده بعض الغرور. في التقاليد الشيعية، الأئمة لم يكونوا رجالاً معصومين أخلاقياً فحسب، ولكنهم كانوا أيضاً كائنات كاملة جسدياً. رجل أعمى أو رجل أعرج لم يكن يتم قبوله كإمام. الإمام موسى الصدر، رجل وسيم ذو مظهر ملفت للنظر، كان مخلصاً لنزوة شعبه حول طريقة ظهور رجل التقوى ومنزلة وولادة رفيعة تم اختيارها لأشياء أكبر. كان بالإضافة لذلك، خطيباً رائعاً في حضارة مجّدت الكلمة المنطوقة وأولئك الذين استطاعوا التعبير في لغة عربية كلاسيكية عما يجول في عقول الآخرين.

كان موسى الصدر، كما قيل مراراً، «رجلاً غير الآخرين». كان فيه شيء ما خاص به. كانت ميّزة، حتى الذين لا يمّتون إلى العقيدة الشيعية بأية صلة، الغرباء، شاهدوها بسهولة. أحد الديبلوماسيين الأميركيين، الذي زاره في إحدى المناسبات، أبرق إلى بلاده الرسالة التالية:

«قمت بزيارة مجاملة للإمام الصدر دامت ساعة.

(٢٨) الثوار الروس، بول آفريش، نورتون، نيويورك، ١٩٧٦ صفحات ١٩٢ - ١٩٣.

رغم أننا تحادثنا من خلال مترجم، هو بدون جدال واحد من أكثر الأشخاص إن لم يكن الأكثر، إثارة للإعجاب من بين الذين اجتمعت بهم في لبنان. يتجاوز طول قامته الستة أقدام، ويتمتع بعيون حادة وراسخة، رغم أنه تكلم في أسلوب متجرد وهادىء، استطيع أن أتخيله يحرّض مجموعة رجال للجوء إلى أي اجراء متطرف يرغبه، موهبته الخارقة واضحة واخلاصه الظاهر يبعث على الخوف.

ركّز لبعض الوقت على إعجابه بالتزام بلدنا بحقوق الإنسان وبالكتب التي قرأها عن واشنطن، لنكولن وآخرين من زعمائنا. بعدئذٍ ناقش الخط الشيوعي... هو متفائل أن السلام يمكن أن يعود إلى هذا الجزء من العالم وأن المسلمين يستطيعون أن يكرّسوا طاقاتهم لترميم الإنتهاكات التي ارتكبها الشيوعيون في السنوات الأخيرة... يعتقد أن حكومة لبنان ومراقبين آخرين هنا استهانوا بفاعلية الدعاية الشيوعية التي وجدت أرضاً خصبة بين الجنوبيين الشباب القادرين بسهولة على مقارنة التبذير في بيروت مع التخلّف والفقر الموجود فقط على مسافة ساعة من العاصمة المترفة. «الحكام» في بيروت بدأوا يدركون ببطء أهمية هذه المشكلة»(٢٩).

لبناني من أصل ارثوذكسي، وأحد الرجال الأكثر اعتدالاً في لبنان، الذي ترفع فوق نزاعات البلد وكان يعرف الإمام موسى لعدد من السنوات، سجّل انطباعه عن رجل الدين قائلاً:

«الهدوء»، «القوة الهادئة»، وجهه مميّز بدماثة عميقة، الإمام موسى الصدر يبدو أنه أتى من المجهول... من خلال موهبته الخارقة، أرغم أخصامه وأصدقاءه على حدٍ سواء على توقيره واحترام قدرته على الإستبصار. مصداقيته لم تكن أبداً موضع شك، رغم الاشاعات حول أصله... لقد

(٢٩) رسالة السفير الأميركي «جورج غودلي» إلى وزارة الخارجية الأميركية، برقية رقم ٥٠٥٩ صادرة عن السفارة الأميركية في بيروت في شهر نيسان ١٩٧٤.

كان طويلاً، طويلاً جداً لدرجة الظهور أنه يرتفع فوق حشود الناس التي غالباً ما تكون منفعلة والتي جمعها وجوده بعضاً ببعض: عمامة سوداء تمّ ارتداؤها بإهمال بسيط. بدا لخصامه أنهم سحروا بابتسامته الغامضة والخيّرة، بينما وجد أصدقاؤه أن وجهه الملتحي عكس باستمرار مسحة حزن عميق... غالباً ما يأخذ الواحد منا انطباعاً، عندما يراقبه، ان رأسه الضخم يحاول باستمرار الارتفاع إلى الأعلى. يداه أعطت انطباعاً عن تجميع ثوبه العائم، العباءة التي لف بها نفسه، وكأنه يستعد للخروج من مجسّم مصغر عتيق.

حتى عندما كان يخطب في الجماهير، كلماته كانت هادئة، شخص حكيم يدعو للمحبة والأمل، كلماته كانت تقطعها لمحات غامضة من بعض رؤية صوفيّة مشدودة للعقل وللقلب معاً.

إتصالاته الشخصية كانت طقساً من طقوس الإغراء. عندما يفتح الباب بتواضع ويدعوك لدخول مكتب متواضع أو صالون عادي لأحد المنازل التي آوته، يتساءل الواحد منّا لماذا كان هذا الرجل هناك، وفقاً لأي سر، وكيف مثل هذا الرجل الأسطوري استطاع أن يظهر مألوفاً جداً. وبعدئذٍ، كالمجسّم المصغّر الفارسي، يجلس الواحد منّا قريباً منه، ويتطلع ليكسب تعاليم المعلم، إلاّ أنّه يغادر مع أسئلة أكثر مما جلب أحدنا له»[٣٠].

كلمات وانطباعات شخصين غريبين عن العقيدة الشيعية: ربما هي أصداء مردّدة على ما شاهده فيه الرجال الذين اعتبروا موسى الصدر كقطعة من تاريخهم والذين تفهّموا رموزه وكلماته.

توجد المناسبات، قال أحد المراقبين الأدباء الشيعة، عندما «يمشي التاريخ على قدمين». وفي حالة السيد موسى، أضاف هذا المراقب الشيعي،

(٣٠) غسان التويني، حرب الآخرين، دار نشر جان كلود لاتيه، باريس ١٩٨٥، صفحات ٩٧ - ٩٨.

التاريخ الشيعي مشى على قدمين. كانت توجد مجسمات فارسية صوّرت أئمة الشيعة وأركان أهل البيت كرجال يرتدون عمامات سوداء، عباءات متدلية ومظاهر مهيبة. الشعر الشعبي (قطع جاهزة لندب معاناة أهل البيت) صوّر الإثني عشر إماماً وأهل البيت من عائلة النبي ﷺ كرجال شجاعة ذوي سلوك نبيل. من خلال عمامته السوداء وطول قامته ولغته العربية المفرّسة، جسّد الإمام موسى الصدر ذلك التاريخ واستدعى قوته.

قصص أخبرها بعض شيعة لبنان السريعي التأثر حول عيون القادم الجديد، حول القوة التي شاهدها الناس في عيونه. قد يكون أنه في مجتمع خائف تاريخياً، تأثر الشيعة بحقيقة الأمر أن موسى الصدر لم يكن عنده أي اعتذار أو خوف من الطريقة التي نظر بها إلى الناس الآخرين. قالوا عنه، بُعَيْد وصوله إلى لبنان بقليل، أنه يعرف سبع لغات. في الواقع كان يعرف لغتين، العربية والفارسية. (كان ملمّاً بالإنكليزية والفرنسية). لكن القادم الجديد الذي برز مثل قوس القزح في لبنان غذّى عبر ميزة الغموض وشجعها. في بلد صغير جداً حيث لا وجود للأسرار والخصوصية؛ تستطيع الناس أن تتخيّل الأشياء عنه، وتفرد كل أنواع القوة له. لقد كان دون الشك الذاتي لأتباعه ودون الازدراء الذاتي الذي صوّره الناس في الآخرين مثل أنفسهم. وفي بلدٍ حيث الرجال والنساء لديهم ذاكرة طويلة للنزاعات ونقاط ضعف الرجال، أُعطيت ميزة للقادم الجديد بأن عنده ماضياً غير مألوف.

«ظهر مثل مخلوق ليس فقط من نوع آخر بل من جوهر آخر. لو لم يُشاهد يصل في زورق لكان الإعتقاد أنه نزل عليهم من الغيوم. مهما يكن، فهو وصل في زورق مجنون جالساً على علبة من قصدير - التي أخذها مني - وكان يضع في حضنه مسدساً من نوع الأسطول البحري - قدمته له عندما افترقنا - الذي، بفضل تدخّل العناية الإلهية، أو بفضل إحدى الأفكار

العنيدة الخاطئة، التي كانت تماماً مثله، وإما بفضل ذكاء فطري محض، كان قد قرر أن يحمله غير محشو. هكذا صعد نهر باتوسان PATUSAN. لا شيء يمكن أن يكون أكثر مللاً وأكثر خطراً، أكثر صدفة بشكل مسرف وأكثر عزلة»[٣١].

هذا هو كونراد يكتب عن الوصول المتواضع للورد جيم، الغريب الذي أتى لتخليص نفسه من الخطيئة في زاوية بعيدة في مالايا، والذي كان محبوباً ومطاعاً في مكانه الجديد. قصة موسى الصدر، أيضاً، كانت بدايتها متواضعة. عقدان من الزمن قبل اختفائه في ليبيا، وصل الإمام موسى الصدر إلى مدينة صور الساحلية الصغيرة حاملاً رسائل تعريف من المرجع محسن الحكيم في النجف لمدينة صغيرة؛ وصل مع زوجته الإيرانية التي كان عمرها عشرون سنة ـ نفسها ابنة مُلّا ـ وطفلين ذكر، طفل عمره أربع سنوات وطفل عمره ستة أشهر. جاء موسى الصدر ليعمل وسط شعب هادىء سياسياً في جمهورية حيث الطائفة الشيعية كانت طائفة هامشية، وحاملة تقليد الندب والإذعان.

(٣١) جوزف كونراد، كتاب لورد جيم، دار نشر بنغوان، هارموندورث، ١٩٤٩، صفحات ١٧٤ - ١٧٥.

العالم الذي تبنّاه رجل الدين

كانت توجد طريقة شيعية في سرد التاريخ في جبل عامل، طريقة تمزج الفخر والندب. كان الفخر يكمن في شجاعة الرجال، في علمهم، في التقاليد الدينية والأدبية التي كان هؤلاء الرجال الورثة المفترضين. وكان الندب حصيلة النتائج بشكل عام: المنظر الطبيعي الريفي المهدّم، القرى الخشنة، الفقر الذي قاد الرجال من هذه المنطقة النائية إلى أقصى حدود الأرض.

كانت توجد شخصية في ذلك التاريخ، مثيرة للذكريات وترمز إلى القساوة والخراب: شخصية الحاكم العثماني في أواخر القرن الثامن عشر، أحمد باشا الجزّار. ولقد كان ملائماً وضع مسؤولية الأحداث التي أنهت تاريخ عائلة الصدر في جنوب لبنان والخراب وهروب الجدّ صالح شرف الدين على أكتاف الجزّار. كان حكم الجزّار وحملاته العسكرية بمثابة حدٍ فاصل كبير في التاريخ والذاكرة الشعبية لشيعة جبل عامل. الأوقات التي سبقت وُصفت بأنها أيام ازدهار واستقلال، والأيام التي تلت وُصفت بعهود الحرمان. مؤرخ محلي للأحداث في العالم الشيعي يصف الفترة ما قبل الجزّار بوهج الحنين إلى الوطن كما ينسب سكان الأراضي الزراعية في استعادتهم الماضي لنوع من العصر الخيالي من النعيم والوفرة.

«كان العامليون يعيشون في عهد حكمهم الإقطاعي حتى في زمن الحروب والأهوال في عز ومنعة، لا ضرائب ترهقهم ولا حكام قساة تظلمهم وتنهب أموالهم وتضيق أنفاسهم وتستحل أشرارهم. وكانوا بعد هدوء الأحوال واستقرارها ينصرفون إلى استثبات أرضهم واستغلالها كيفما شاءوا وأرادوا لا أعشار ولا رسوم ولا احتكار.

وكان حكامهم بهم أرفق، وعليهم أحنّ وأشفق. وكان الشيعي إذا سار إلى غير بلده يسير معتزاً بقوميته، لا يجرؤ أحد على تحدّيه أو احتقاره.

وكان الوفاق بين الزعماء عاماً، والإتحاد محكماً. وكل زعيم حر في مقاطعته يتصرّف بشؤونها، ويحمي حدودها، ويحفظ كيانها. لا سلطة فوق سلطته، ولا رقيب على أعماله سوى سلطة العلماء»[1].

الكتب والمكتبات الضخمة العائدة للشيعة، أُحرقت في مركز سلطة الجزّار عكا القريبة. كان إنتاج علماء الدين ورجال الأدب الشيعة ضخماً لدرجة أن الكتب أبقت أفران عكا تعمل لستة أيام. كان الناس مستقلين، لكن الجزّار أخذ روحهم المستقلّة.

مجرداً من العاطفة والتحسّر. كان حكم الجزّار جزءاً من الصراع المتكرر الذي اكتنف الأمبراطورية العثمانية بين الملتزمين (ملتزمي الضريبة، «قبضايات»، شيوخ محليين) وأولياء (حكام) المقاطعات العثمانية. جبل عامل، زاوية بعيدة في بلاد الشام، عالم من مدن وقرى منكمشة، كان قد وقع تحت السيطرة العثمانية في بداية القرن السادس عشر عندما اجتاح العثمانيون أكثرية العالم الإسلامي من حولهم. كل ما كانت تطمح إليه هذه المنطقة الشيعية النائية والتي هي جزء من دولة عثمانية (سنّية) هو أن تُترك لوحدها مع أساليبها القديمة جداً. وباستثناء غارات عرضيّة شُنت من مركز المقاطعة في دمشق، عالم جبل عامل (كان شيعة هذا الجزء من بلاد الشام معروفين بـ «المتاولة») كان معزولاً عن حضارة وأساليب ومتناول يد الدولة العثمانية. في أواسط القرن السابع عشر، أقامت السلطنة العثمانية ولاية منفصلة في مدينة صيدا الساحلية القريبة. لكن روح الخاصية المحلية وضعف النظام العثماني أبقى سلطة الدولة، في وضع حرج. في أواسط القرن الثامن

(١) تاريخ جبل عامل، محمد جابر آل صفا، بيروت، دار النهار، ١٩٨١ صفحة ١٠٤.

عشر، تقلصت سلطة الوالي حتى مدينة صيدا نفسها[2]. في السنوات التي سبقت وصول الجزّار، كان العالم الشيعي قد وقع ضمن فلك قائد قبلي مشهور من الجليل اسمه ظاهر العُمر. استغل ظاهر العُمر ضعف المركز العثماني، وبرز في بداية سنة ١٧٧٠ كحاكم على كل فلسطين. فالتحقت به العائلات والعشائر البارزة في العالم الشيعي في جبل عامل متجاهلة سلطة الحاكم العثماني. وخلال الفترة التي كان فيها جبل عامل خاضعاً لنفوذ ظاهر العُمر، إنتعشت زراعة القطن. فمن عكا، عمل تجار مارسيليا الفرنسيين، قدموا قروضاً للمزارعين، واشتروا محاصيلهم. عرف المكان فترة من الإزدهار النسبي. احترم ظاهر العمر عمل نظام العشائر ووجهاء البلد، فأخذ حصته من الضرائب دون التدخل في شؤون العالم الشيعي الخاصة. إضافة إلى ذلك، فقد وطّد التزاوج الروابط بين ظاهر العمر وبين الأعيان المحليين[3].

استمرت الأمور هكذا إلى أن سعى الجزّار لوضع حدٍ لسيطرة ظاهر العُمر ولفرض حكم مركزي خاص به. فأُرسل الولاة العثمانيون إلى المقاطعات وطُلب منهم إدارة امارات تكفي نفسها بنفسها، وإرسال حصة الدولة إلى العاصمة العثمانية. كان الجزّار رجلاً طموحاً لا يرحم، «أسداً هائجاً ضد الإنسانية»[4] كما قال عنه الديبلوماسي والرحّالة الفرنسي بارون دي توت. تجارة القطن المزدهرة وأرباحها يجب أن تكون له، ويجب سحق حكم ظاهر العُمر وحكم العشائر الشيعية المتحالفة معه.

أثارت الحماسة الدينية الجنود العثمانيين، وأعطت الصراع بين الجزّار والعشائر الشيعية مزيداً من الشراسة. في إحدى سجلات الأحداث العثمانية المكتوبة بعد حملة شُنت ضد المنطقة الشيعية النائية، قال أحد المسؤولين

(٢) فلسطين في القرن الثامن عشر، آمنون كوهين، ١٩٧٣، صفحة ٨٣.
(٣) للبحث عن تاريخنا في لبنان، علي الزين، بيروت ١٩٧٣، صفحات ٤٥٧ - ٦٠٣.
(٤) مذكرات بارون دي توت، بارون دي توت، دار نشر روبنسون، لندن ١٧٨٥، صفحة ٣٢١.

العثمانيين إن الخراب الذي أصاب الشيعة كان «ثأراً أخذ لحياة أبي بكر وعمر»(٥). بعد حوالى أحد عشر قرناً، كان المسؤول العثماني ينبش خلافاً إسلامياً قديماً بين السنّة والشيعة، وفي ملاحظة ملائمة تدعو للسخرية، لم يكن هذا المسؤول يعرف تاريخه الإسلامي: لم يكن هناك ما يدعو لأخذ الثأر لحياة أبي بكر، لأنه توفي وفاة طبيعية. تلك الملاحظة غفل عنها المسؤول العثماني. لكن الشرخ الشيعي بين امبراطورية مركزية وبين «المنشقين عن العقيدة» في المنطقة النائية كان أكثر من كاف لتبرير الإجراءات القاسية.

أضافت أحداث حصلت خارج العالم الصغير لجبل عامل البؤس والبؤس ضمن المملكة العثمانية. على صعيد السياسة الامبراطورية، كانت الدولة العثمانية منشغلة في نزاع مزمن مع الدولة الصفوية (الشيعية) في بلاد الفرس. لعلّ المذهب الشيعي أنقذ الدولة الفارسية، وفصلها عن الامبراطورية العثمانية المتوسعة. لكن الناس، الذين كان مصيرهم على الجانب الخاطىء من الحدّ الفاصل ـ السنّة في المملكة الصفوية، الشيعة في الدولة العثمانية، كان مكتوباً عليهم أن يعانوا. كان الأتراك العثمانيون قد استولوا على راية الإسلام السنّي التقليدي استقدموا لنظرتهم للإسلام حماسة مهتدين جدد، قالب عقلي حرفي (واقعي). في بدايته، إندلع الإنقسام الشيعي السنّي ضمن حدود المجتمع العربي، معركة عشائر. الشخصيات المبجلة في الإسلام الشيعي، الإمام علي وابنه الحسين رضي الله عنهما، كانوا قد أتوا من قمة المجتمع العربي. الأتراك العثمانيون، القادمون المتأخرون، كانوا قد صبغوا النزاع العربي بطابع مفرط في الإستقامة بوجه الإنحراف. زاد الصراع الطويل للامبراطورية العثمانية مع الصفويين في عمق التباعد العثماني عن المذهب الشيعي والموالين له. لعلّ الجزّار، الذي تسبب في الخراب في المنطقة الشيعية النائية وفي وضع مداخيلها ومحاصيلها الزراعية

(٥) فلسطين في القرن الثامن عشر، سالف الذكر، صفحة ١٠٢.

تحت سيطرته، كان مقتنعاً أنه كان يُنفّذ عمل الله ويحافظ على العقيدة الصحيحة.

كونت دي فولني Comte de Volney، الرجل الفرنسي الذي أخذ ميراثه وسافر إلى كل من مصر وسوريا، زار هذه الزاوية الشيعية من سوريا بعد واحدة من حملات الجزّار الكبرى. أعاد فولني للذاكرة وجود «أمة صغيرة» «مجتمع متميّزه»: «متاولة» سوريا. لاحظ انفصالهم، شكك أنهم سيبقون على قيد الحياة: «يقال إنهم وجدوا لفترة طويلة كامنة في هذا البلد، رغم أنه لم يذكر اسمهم أبداً أي كاتب أوروبي قبل القرن الحالي... مثل الفرس، هم من طائفة علي، بينما جميع الأتراك يتبعون طائفة عُمر... منذ سنة ١٧٧٧، عمل الجزّار، حاكم عكا وصيدا، على تدميرهم.. من الممكن أنهم سيبادون كلياً، وحتى اسمهم سينقرض»(٦).

لم تتم إبادتهم. هم والآخرون الذين دخلوا على طريق الجزّار كان عليهم انتظار فرصة ملائمة، وكما قال بارون دي توت: «إنتظار تدمير الطاغية»(٧).

أسدل الستار على نظام الجزّار ربع قرن بعد فرضه. لكن الذاكرة بقيت: بالنسبة للشيعة، قصة الجزّار علمتهم عدم جدوى العمل السياسي. كانت السلطة ميزة الرجال ذوي النزوة. التاريخ الشيعي نقل ذلك النوع من النفور للسلطة. فكان الجزار مخلصاً لهذا التوقع. لذلك كانت خلاصة ما استنتجه الشيعة من ذكرى الجزار، هي موقف هزيمة وانكفاء سياسي. نصف قرن بعد عهد الجزّار، سمع رحالة بريطاني قصصاً جديدة عن أعماله وسجّل ندب مضيف شيعي محلي: «قال إنّه في ذلك الحين دُمرت مئة قرية بأكملها، وإن البلاد لن تتعافى أبداً من الخراب الذي سببه الجزّار، وإنهم لم يكن

(٦) رحلات إلى مصر وسوريا، فولني، دار نشر جون تيبوت، نيويورك ١٧٩٨، صفحة ٥٦.
(٧) مذكرات بارون دي توت، سالف الذكر، صفحة ٣٢٦.

لديهم ماء، وواجهوا ضرائب ثقيلة الوطأة. كان يأمل بمجيء أيام أفضل»[٨]. هذه كانت شكوى في أواسط سنة ١٨٠٠. بقيت هذه الشكوى. هكذا كان العالم الذي عندما يتأمل في وضعه حزن لنفسه.

أما الرحالة البريطاني من القرن التاسع عشر، ديفيد أوركهارت، لخص حدّية هذه الطائفة المهزومة كما يلي:

«من أين جاءت، كيف جاءت، ما هو عرقها، ما هو طبعها، ومن أين اسمها هي أمور كانت... تثير الكثير من الشك والغموض، لجميع التساؤلات التي تحترمهم، من على حدودهم الفورية، كانت الأجوبة الوحيدة التي تمّ الحصول عليها خرافات تكشف عن جهل كامل مختلط بالخوف والكراهية. هذا مؤكد، أنهم لا ينتمون إلى الشعب الأصلي في لبنان، وأن قدومهم لا يعود تاريخه إلا لفترة حديثة، بالتأكيد ليس قبل القرن الرابع عشر، والأكثر احتمالاً، أو على أي حال الأحداث بشكل رئيسي، في أواسط القرن السابع عشر. في طبعهم، الذي يجمع كرامة السلوك، ومفخرة التحدّر مع شراسة وفوضى التصرف، يمكن تقفي أثر الإنحراف من سلالة شريفة، وتعاقب عدة أجيال من الصراع، البؤس، والاضطهاد، في الدين، هم شيعة، في العرق هم عرب. إلى هذا الإنحراف الذي، وحده، جعلهم غير طبقيين، يجب إضافة انحراف آخر؛ أنهم توقفوا عن أن يكونوا بدواً، دون المرور كسكان مزارعين.... لقد فقدوا الطابع القبلي لشعب؛ لقد حُرموا بسبب إنفصالهم الديني من المشاركة في النظام الإداري للأمبراطورية. لم يكن مركزهم في لبنان مركز أمراء يحكمون ولا... مركز قبيلة شردت السكان الأصليين واحتلت الأرض»[٩].

رجال «غير طبقيين»، في منطقة بين العرب والفرس كانوا، قال

(٨) لبنان، دايفيد أوركهارت، دار نشر توماس، ١٨٦٠، صفحة ٣٣٠.
(٩) لبنان، سالف الذكر، صفحات ٩٤ - ٩٥.

اوركهارت، «مكروهين من الفرس كعرب، ومن الأتراك والعرب كشيعة»[١٠]، وما أشار إليه «أوركهارت» ورد في مفكرة رحالة آخر، لورانس أوليفانت Lawrence oliphant تحت عنوان أرض جيلو Gilead (١٨٧٠): «يشعر المتاولة بكره سري وقوي نحو الحكومة التركية؛ ورغم اعلانهم الظاهري للولاء، جميع عواطفهم السريّة هي مع بلاد الفرس التي يتطلّعون إليها كمعقل لدينهم وحصن عقيدتهم»[١١].

«الكره السري» نزعة لها أسس في العقيدة والنفسية الشيعية، وهذا ما يُعرف «بالتقيّة» (تظاهر احترازي، اخفاء عقيدة الشخص) التي سُمح بها من قبل الأئمة والقضاة الشيعة؛ لقد كانت جواباً من أقلية منهكة على عالم سني أكبر وعلى ميزان قوي قاسٍ. رجال مطاردون، منشقون يعيشون في ظل ظروف سياسية معاكسة، الرحالة الشيعة، لجأوا إلى ممارسة التقية. انكفأ التاريخ الشيعي الذي كان في الأغلب تاريخ استقامة وهدوء. فتمّ تحمّل نير السيطرة العثمانية في هذا العالم. وهذا ما جعل المذهب الشيعي، وعادات وانعزال منطقة نائية، يُهيء الرجال للإنكفاء السياسي.

مع انتهاء القرن التاسع عشر، كانت الأمبرطاورية العثمانية تعيش أواخر عهدها. عندما انهارت أخيراً بعد الحرب العالمية الأولى، لم يحزن أحدٌ لموتها. ولكن المنطقة الشيعية النائية لم تُسقطها؛ كان الشيعة شعباً لم يشن ولم يُزيف صراعاً كبيراً ضد الاستعمار. «اليقظة العربية» التي بالغت بالمسافة بين العنصر التركي الحاكم وبين الميادين العربية للأمبراطورية العثمانية، كانت غريبة عن هذا الشعب الهادىء والمُفقر. هنا بقي التاريخ خاماً لا تحجبه الأوهام. وبالفعل أعادت «اليقظة العربية» كتابة التاريخ؛ كانت قد قرأت العقائد الحديثة للقومية في وقت سابق عندما قبل العثمانيون والعرب تحديداً

(١٠) لبنان، سالف الذكر، صفحة ٩٦.
(١١) أرض جيلو، لورانس أوليفانت، لندن ١٩٧٠، صفحة ١٤.

اسلامياً للمجتمع، وعندما كان العثمانيون فقط سلالة حاكمة عسكرية تحكم باسم الإسلام. كانت القومية العربية الأولى عقيدة المدن في العالم العربي؛ ظهرت أيضاً في شعارات المسيحيين العرب، الذين رأوا في النهاية المحتمة للدولة الإسلامية العثمانية فرصة لطرح تصوّر حديث للقومية العلمانية علّه يكون فيه مكان لطموحاتهم وميولهم السياسية. كما أن بعض الأصوات الشيعية ادعت جزءاً من ذلك التاريخ القومي المستحدث. فأحد المؤلفين الشيعة من مدينة النبطية، محمد جابر (١٨٧٥-١٩٤٥)، عبّر عن قلق رجال الأدب الشيعة القلائل الذين أرادوا الاشارة إلى أنهم أيضاً كانوا هناك عندما بدأت القومية العربية في تحدي الأمبراطورية العثمانية:

«لم يُعقد مؤتمر سوري، ولا نُظم اجتماع قومي عربي، إلاّ وكان ممثلوهم (الشيعة) في الطليعة يجاهرون بالاحتجاج على وضعية بلادهم الحاضرة، ويطالبون بالانضمام إلى الوحدة السورية. ولولا ظروف قاهرة اقضت مضاجعهم، وأضعفت اقتصادياتهم، وطوحت بأبنائهم وزهرة شبابهم للهجرة في طلب الرزق إلى ما وراء البحار، لما سكتوا على حالةٍ لم تألفها طباعهم ووضعية شاذة نفرت منها نفوسهم»[١٢].

انهارت دولة اسلامية كبيرة متعددة الجنسيات؛ وكانت هناك فكرة قومية جاهزة لوراثة عباءتها. رافعوا الشعارات وخبراء الدعاية في المدن العربية كانوا جريئين؛ فأراد الشيعة المتعلمون الانتساب. لكن الحركة القومية الجديدة حافظت على بُعدها عن المنطقة النائية.

في معرض تأملهم مصير شعبهم، فهم بعض الكتاب الشيعة المخلصين الوضع على النحو الصحيح: كان جبل عامل على هامش التاريخ القومي. علي الزين، ناقد مستقل وجريء، في تلك الحقبة من الزمن، أعطى

(١٢) طريق جبل عامل، سالف الذكر، صفحة ٢٣١.

شرحاً واقعياً لسياسة شيعة جبل عامل بقوله: «لم يعرف رجال الدين والأعيان الشيعة طبيعة القومية وأفكارها. كانوا متشائمين وطائفيين. هذا الاتجاه الذي جعلهم يبتعدون عن أية حركة أو ثورة سياسية». لم يرغب رجال الدين والأعيان الشيعة تكرار تاريخ القرن الثامن عشر الذي جلب لهم «الموت، الجوع، والنفي»[١٣] جُربت الثورة في الماضي، فأدّت إلى الخراب، وثبت الرجال في حذرهم السياسي، وفي تجنبهم القضايا السياسية.

حلّت مجموعة من الغرباء مكان مجموعة أخرى في سنة ١٩٢٠؛ حلّ الإنتداب الفرنسي مكان الحكم العثماني، ورُفضت المحاولة من أجل مملكة عربية مستقلة في سوريا قام بها الأمير فيصل وجماعته، وضُمّ عالم الشيعة في جبل عامل وسهل البقاع للقلب الماروني من لبنان الكبير من قبل الفرنسيين. كان الفرنسيون قد قسموا منطقة نفوذهم التي حصلوا عليها مؤخراً في سوريا ولبنان إلى أربعة كيانات اقليمية: لبنان الكبير، سوريا، جبل الدروز (الواقع جنوبي شرقي سوريا)، ومقاطعة العلويين في زاوية أخرى من سوريا.

تم تأسيس الحكم الفرنسي في سوريا ولبنان بعد أن كان الاستعمار قد وصل لذروته. كان محبوباً فقط بين الموارنة في جبل لبنان، خاصة أنه كانت فرنسا لوقت طويل حامية وحليفة الموارنة. لكن بين المسلمين والدروز، كان الفرنسيون بشكل خاص مكروهين. ضايق الانتداب القوميين في دمشق الذين ارادوا إدارة شؤونهم الخاصة، فضلاً عن استيائهم من الطريقة الجائرة التي طرد الفرنسيون بها الشريف الهاشمي فيصل من دمشق. وبعد وقت قصير من مجيء الفرنسيين، اصطدم حكمهم مع حساسية الدروز في مقاطعتهم الجبلية المستقلة تقليدياً في سوريا.

طائفيون بشدّة، أراد الدروز أن يُتركوا لوحدهم في مقاطعتهم الخاصة بهم. في ظل الحكم العثماني، تمّ منحهم استقلال ذاتي مهم مع إعفائهم من

(١٣) أثر المنعطفات في تاريخنا، مجلة العرفان عدد ٥٨، أيار ١٩٧٠، صفحة ٣٦.

الضرائب والخدمة العسكرية. ولم تُمس تركيبة السلطة التي ثبتت المجتمع الدرزي والتي هي حكم العائلة «الأميرية» ورجال الدين. عائلة الأطرش، كانت قد سيطرت في منطقة نفوذها الخاصة بها. سلطتها نجحت من الاضطرابات التي عمّت المقاطعات العثمانية عندما شرع الأتراك الشبان، بعد سنة ١٩٠٨، في تحدي التطورات والممارسات السياسية التقليدية في القرون العثمانية السابقة. وبعدئذٍ شهد المجتمع الدرزي مجيء نظام الحكم الهاشمي لدمشق ومن ثُمّ طرده؛ كان أعيان الدروز قد نظروا إلى ذلك النظام القصير العمر بحذر. وعدت فرنسا الدروز بالاستقلال الذاتي، كذلك، أخذ الدروز موقف التريث، ولكن بعد ثلاث أو أربع سنوات من الانتداب، بدأ المسؤولون الاستعماريون الفرنسيون بدفع المجتمع الدرزي إلى أقصى ما استطاع ذلك المجتمع تحمله، متحدين، قولاً وفعلاً، سلطة عائلة الأطرش، حسب كل الدلائل، ظهر الحكم الفرنسي أنه مصمم على ضرب المجتمع الدرزي، على اخضاعه للنظام، على فرضه نظام ضرائب وعمل قسري، على عدم اعطاء القادة امتيازاتهم، وعلى اخضاع الدروز لنظام تربوي مُجهّز بمعلمين مسيحيين يستقدمهم الفرنسيون من جبل لبنان الماروني. لم تكن الثورة بعيدة. اندلعت في اواسط سنة ١٩٢٥. في شهر تشرين الثاني من تلك السنة، إجتاح الدروز منطقة جبل حرمون في جنوبي شرقي لبنان، والمنطقة الشيعية في الجنوب من لبنان. لأول وهلة، بدا أن الثورة قد تمتد من خلال جنوب لبنان، ربما إلى بيروت نفسها[١٤].

وجدت الثورة الدرزية الكبيرة في سنة ١٩٢٥ أن الشيعة هم شعب هادىء. «شيوخ الشيعة في جبل عامل»، ذكرت إحدى الرسائل الصحفية، «كتبوا رسائل إلى المفوض السامي يؤكدون ولاءهم»[١٥]، قائد الثوار،

(١٤) مذكرات سلطان الأطرش، مطبعة الشرق، القدس، ١٩٦٩.
(١٥) جريدة التايمز، لندن، ٩ كانون الأول ١٩٢٥.

السلطان باشا الأطرش، كان متسامحاً وكريماً نحو الشيعة. قال الأطرش إن الفرنسيين طلبوا من الشيعة تشكيل وحدات لمقاومة الدروز ولكنهم امتنعوا عن ذلك[١٦]. تجنّب الشيعة القتال. كان التراث الدرزي تراث ثورة، بينما كان التراث الشيعي تراث إذعان.

سُحقت الثورة الدرزية. كانت، كما قال أحد المراقبين، ثورة «القرن السادس عشر ضد القرن العشرين»[١٧]. لكن الدروز اعطوا الدليل أنهم سيقاتلون من أجل هويتهم المذهبية المنفصلة واستقلالهم الذاتي. لم تندلع إنتفاضة مشابهة في المنطقة الشيعية النائية.

إحدى المذكرات، التي كتبها في ذلك الحين شيعي، تعطي لمحة عن الأساليب والمواقف السياسية للشيعة، تصف المذكرات زيارة قام بها المفوض السامي الفرنسي، مكسيم ويغان (نيسان ١٩٢٩ - تشرين الثاني ١٩٢٤)، إلى مدينة صور الساحلية، تمّ تحضير وجبة طعام مُترفة ومتقنة للزائر الفرنسي. وصلت وفود القرى المجاورة لتقديم التحية للمفوض السامي. مؤلف المذكرات، تلميذ مدرسة في ذلك الحين، استجمع شجاعته ليقدم عريضة إلى المفوض السامي ويخبره عن احتياجات صور وقرى الجنوب. «أنت لا تستطيع الذهاب إلى قرى ما بعد صور»، قال للمفوض، «هذه القرى هي بحاجة إلى الطرقات والمدارس والعيادات». ربّت المفوض على ظهر الولد وسأله ماذا يُفضل أولاً أن يكون عنده في قريته: الطريق، المدرسة، أو الطبيب؟ قال الولد إنه يفضل رؤية الطريق أولاً. الطريق عندئذٍ، وكان واثقاً من كلامه، ستجلب الطبيب والمدرسة. وعد المفوض بشق الطريق[١٨].

أحد المصورين، الذين كانوا برفقة المفوّض السامي، تقدم وأخذ

(١٦) مذكرات سلطان الأطرش، سالف الذكر، صفحة ٢١٩.
(١٧) في جبل الدروز، فون، ويل، صفحة ٨٥٤.
(١٨) الذكريات، حسن الأمين، بيروت دار الغدير، ١٩٧٣، صفحات ٧٨-٨٠.

صورة للشاب الشجاع، بعد بضعة أشهر، أُرسلت الصورة له. (الصورة معروضة بفخر في المذكرات).

الطريق، ومع ذلك، كانت موضوعاً آخر. يبدأ العمل فيها ولكن التنفيذ...

حسناً، لم يحصل. بدأ العمل في العديد من الأشياء في هذه المنطقة، ولم تُنجز أبداً.

المشهد مع المفوض السامي سوف يُمثّل ثانية ولعدة مرات في السنوات القادمة، قبل وبعد منح الاستقلال من قبل الفرنسيين في سنة ١٩٤٣. تغيّر شيء واحد مع الاستقلال: كان الزوار «بكوات»، أسياد إقطاعيين من هذه الطائفة أو وزراء في حكومات متعاقبة، كونهم من أهل البلد، لم يتوجب على الزوار الجدد أن يربوا الأولاد الشبان على ظهورهم أو يرسلوا صورهم بالبريد. إذا حصل وكان الزائر عضواً في مجلس النواب، سيتعهد بإثارة موضوع المدارس والعيادات مع رئيس الوزراء إذا دعت الحاجة لذلك. لا داعي للقلق، كان يقال لسكان القرى: مياه نهر الليطاني، في الوقت المناسب، ستنتج الكهرباء وتروي الأرض الجافّة، الطرقات المعبدة سوف تأتي؛ مساحة الأرض المرخصة للزراعة من شركة إحتكار التبغ سوف تُزاد. سيكون هناك أسعار أكثر إنصافاً عند شراء محصول التبغ من قبل شركة (الريجي) احتكار التبغ. وفي حال تعرض عضو البرلمان للضغط يستطيع دائماً أن يقلد ذلك لنكران جميل سكان القرى.

إحدى المذكرات المرفوعة في سنة ١٩٤٣، عام الإستقلال، أعطت هذا الوصف لثلاثماية قرية ذات الغالبية الشيعية في لبنان الجنوبي «لا يوجد مستشفى واحد في كل المنطقة، لكن يوجد مكتب صحي في صيدا، صور والنبطية... وهذه المنطقة هي محرومة أيضاً من مشاريع الريّ حتى أن غالبية

الناس تشرب مياه راكدة»(١٩).

كان يوجد النزر القليل الذي تستطيع الدولة اللبنانية فعله أو يمكن أن تفعله في المستقبل للمنطقة الشيعية النائية. فكرتان مسيطرتان تمّ جمعهما مع بعض في نظام الحكم اللبناني: تصوّر ماروني شدّد على هوية لبنان المسيحي، وإيمان عربي سنّي راسخ، مدعوم من تجار بيروت، طرابلس وصيدا، اعتبر أن البلاد هي جزء من العالم العربي الأكبر. كلا التصوّرين كانا غريبين عن الشيعة: كان الشيعة قاطعي الأخشاب وعمال جر المياه في لبنان. عشية الاستقلال، قدرت الإحصاءات اللبنانية (مهما كانت قيمتها وصحتها) عدد الشيعة بحوالي مائتي ألف شخص من أصل مليون نسمة. عددياً، كان الشيعة بعد الموارنة والسنّة. لكن السيئات لم تكن فقط، ولا حتى بشكل رئيسي، عددي. كلاهما الموارنة والسنّة استقدما إلى نظام الحكم الجديد أفكاراً واسعة خاصة بها وبمكانتها في جمهورية لبنانية. بالنسبة للموارنة، كان لبنانهم أمة مسيحية منفصلة عن مسلمي المدن والسهول، أمة لها أسسها وجذورها في جبل مستقل، مع أديرتها ورهبانها وتقاليدها الخاصة بها. بالنسبة للسنّة في المدن الساحلية، كانوا ورثة حضارة الأمبراطورية العثمانية في الأربعة قرون السابقة. من هذا التصوّر الأخير، تطلّع لبنان إلى شرقه وشارك في حضارة وأساليب العالم الإسلامي والعربي الأكبر.

أعطى المعنى الماروني للانفصال الطائفة المارونية الثقة بالنفس والوعي الذاتي لتأكيد استقلالهم إزاء العالم العربي من حولها. كان التاريخ الماروني مبنياً على فكرة وروحية الانفصال: طائفة مسيحية هاجرت، في القرن السابع، من سهول سوريا إلى نقاوة جبلها الخاصة بها. ما تركت وراءها كان طغياناً، ما بنته كان دنيا طهارة. «تلك الأرض (سوريا) كانت أرض

(١٩) مذكرة قدمت من قبل رئيس الكتلة الإسلامية محمد جميل بيهم إلى رئيس الجمهورية وجاءت في إحدى البرقيات للقنصلية الأميركية في بيروت ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٣.

الاضطهاد والمكان الذي هدّد بمحو هوية الشخص؛ هذه الأرض (لبنان) هي أرض الحرية والاستقامة»، كتب أحد الموارنة، في معرض تلخيصه لوجهة نظر شعبه النفسية، الذي كان ضمن الجزء الجديد من الأرض كان «هوية منفصلة»؛ الذي كان خارجه كان «غريباً أو عدواً»[20]. التاريخ الماروني، الذي صاغه علماء دين وكهنة، أدى إلى نوع من التصلّب في اللبنانية وحملته الفخورين به الموارنة. خلافاً لذلك، العضوية السنيّة، في عالم عربي أكبر، أعطت هذا المجتمع معنىً مستقراً للنفس والهدف. بالنسبة للسنّة، لبنان، أو بشكل دقيق أكثر، المدن الساحلية التي سكنوها كانت جزءاً من عالم أكبر.

كان الشيعة في وضع لا يطاق. مثل الموارنة، كان الشيعة رجال لبنان. لكن ليس مثلهم، لم يعلنوا مبدأ الاستقلال والاستقلال الذاتي. مثل السُّنة، كان الشيعة مسلمين، لكنهم كانوا منشقين. الكتب الشيعية، التي صدرت في ذلك الحين، كانت أحياناً صاخبة وحريصة على التأكيد أن الشيعة كانوا «عرباً»، وأنهم كانوا قد أتوا إلى لبنان من شبه الجزيرة العربية منذ فجر الإسلام. الكتّاب والإختصاصيون بعلم الأنساب الشيعية فعلوا الشيء العادي في مجتمع مجّد السلالة: نسبوا جذورهم لإحدى القبائل العربية وقالوا إن أهالي جبل عامل تحدّروا من سلالة «عاملة بن سبأ من قبيلة قحطان اليمنية». لكن لم يكن يوجد شعور حقيقي بالانتماء للعالم العربي الأوسع، لقد وقف التاريخ الشيعي في الطريق، وهكذا فعل الانعزال الريفي.

لاح في الأفق البعيد عالم إيران الشيعي الكبير. وكانت إيران معروفة لعدد قليل من رجال الأدب ورجال الدين والرحّالة الشيعة. غير أنه كانت توجد مؤاساة صغيرة تُستخرج من إنجازات مخيلة لدولة شيعية كبيرة. لكن عندما قيل وفُعل كل شيء، كانت بلاد الفرس، عالم العجم، بعيدة. كان

(٢٠) الوجدان التاريخي الماروني بين القديم والجديد، حميد موراني، بيروت ١٩٨١، صفحات ٦٦ - ٦٧.

عندها لغتها وعاداتها الخاصة بها وكان امتدادها محدوداً. ومع ذلك، فإن الصلة الفارسية، التي أُلصقت بشيعة لبنان، أوحت أنهم غرباء عن لبنان، أنهم قادمون جدد، وأن لبنان لم يكن بالنسبة لهم «وطن نهائي».

تبنّت إيران المذهب الشيعي، في عملها هذا، غيّرت إيران «الشيعية» أي مفهوم المذهب الشيعي. لدرجة أن أحد المؤرخين الحديثين أشار إلى أن المذهب الشيعي «أصبح بشكل نهائي وثابت مرتبطاً بإيران كوطنه ومعقله»[21] في الواقع تبنّي المذهب الشيعي في إيران «فرّس» الشيعة في المناطق العربية. لقد كانت حالة لحدث جديد يعيد تفسير وصياغة ماض بعيد. لم يكن يهم أن المذهب الشيعي كان قتالاً عربياً، وأن معركة كربلاء تمّ خوضها ثمانية قرون قبل الفرض الصفوي للمذهب الشيعي في إيران. لقد كان عالماً من الصعب إرضاؤه في مواقفه الراسخة وخاصة في الخطوط التي رسمها بين أولئك الذين انتموا وأولئك الذين لم ينتموا.

شكّلت «الهوية الخاصة» للبنان تسوية بين الفكرة المارونية للجبل والتراث السنّي للمدينة[22]. وكان على الشيعة شق طريقهم بين هذين التصورين.

سكان منطقة نائية عاجزة عن الإفصاح عن آرائها، الشيعة، مُثلوا في نظام الحكم اللبناني بعدد قليل من العائلات الإقطاعية؛ البكوات، الرجال ذوي النفوذ، الزعماء الذين كانوا متحدرين من سلالة عائلات مالكي الأراضي. كانت «الزعامة»، زعامة الرجل الكبير، المبدأ التنظيمي للحياة السياسية والاجتماعية. إلى حدٍ ما، مثل مبدأ المملكة، كان للزعامة هالتها ووقارها الروحي، وتوقعاتها. كقاعدة عامة، كانت الزعامة تتمّ بالوراثة. الزعيم المثالي كان ابن الزعيم. لذلك كان التحرك محدوداً في مثل هذا

(٢١) الدين والدولة في إيران، حميد الغار، جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٩، صفحة ٥.
(٢٢) مقال ألبير حوراني، الأزمة في لبنان، دار نشر إيثاك، ١٩٧٦، صفحات ٣٣ - ٤١.

النظام. وبالتالي فبإمكان أي رجل، إذا كان محظوظاً أو موهوباً أو غنياً، أن يسعى لصناعة زعامته الخاصة به. ففي الخمسينات، ساعدت الثروة الضخمة والشهادات الجامعية المتقدمة على شن محاولة جديدة للوصول إلى الزعامة. لكن نجاح مثل هذه المحاولات لم يكن مضموناً أبداً. كان الزعيم «الحقيقي» «ابن بيت» يعني ابن عائلة مشهورة. كان على الرجل الذي يقوم بمحاولة جديدة أن يكون سخياً بالمال بإفراط: كان عليه أن يتمتع «بهالة مميزة»، ويقدم الخدمات إلى أولئك الذين يأتون إليه بطلب المساعدة؛ كان عليه أن يقهر شك أولئك الذين عرفوه أو الذين عرفوا عائلته «في الماضي عندما». والشيء الأكثر خيبة أنه عندما تكون المحاولة لمنصب جديد بدأت تعطي بعض تباشير النجاح، كان يجب أن تتم تحت وصاية أحد الزعماء القدماء الذي يتمتع بحدس اكتشاف موهبة جديدة ملهفة وموهبة بارزة أخرى في ذات الوقت لتحجيم المرشح الجديد.

برلمان البلاد، هيئة مع حصة ثابتة لكل الطوائف الدينية في لبنان، كان مكان اجتماع الزعماء. وكان على الرجل الثري والطموح لمنصب أن يأتي كمتوسل أمام هذا الزعيم المشهور أو ذاك. كان عليه أن يتحمّل الذلّ ويقوم بدور ثانوي للرجل النافذ. كان عليه أن يُسيِّل عرق جبينه على امتداد مدة الأربع سنوات في البرلمان، غير واثق أبداً أنه سيكون له مكان في البرلمان القادم. علاوة على ذلك، فإن المنتخبين الجدد لا يستطيعون تحقيق حتى القليل المطلوب في مجتمع متخلف. بين الحين والحين، يقف الواحد منهم ويجدد «الطلب الدائم» لطائفته من أجل العدالة. كالعادة تعهدت الحكومة بعمل خيري. عضو البرلمان الجريء، الذي كان عليه أن يقاوم خوفه من أجل أن يقف في البرلمان ويعلن الطلب، عاد إلى البيت ليقول إنه وضع أمام برلمان الأمة مطالب طائفته، الطائفة المحرومة.

الكلمات القليلة التي قيلت بخوف في البرلمان البعيد تمّ زخرفتها من

قبل السياسي المحلّي وعشيرته وأصدقائه. في البرلمان الجديد الذي جمع بعض رجال السلطة ورجال أثرياء، تكلم العضو المحترم من الجنوب بدون رغبة. في القرى التي يُمثّلها (إصطلاح سخيّ وغير ملائم) تحوّلت الكلمات القليلة التي قيلت في البرلمان إلى ملحمة عظيمة: أعفته الكلمات من مزيد من المسؤولية. لقد استجمع شجاعته وقال «كلمة حق» في حضور رجال لم يُريدوا سماعها. بعدئذٍ تنتشر القصص لتروي كيف أن العضو الفصيح، الابن المخلص للجنوب، أسكت أعداء الجنوب، وكيف تفوّق على الزعماء السنّة المتعجرفين أو أعضاء موارنة جبل لبنان. بعد أن قيلت كلمة الحق وتمّ التخلّص منها، كان أعضاء البرلمان القادمين من الجنوب أشخاص مطيعين. إحدى الرسائل الأجنبية المرسلة سنة ١٩٥١ قالت إن: «نواب جنوب لبنان أعطوا دائماً تأييداً موثوقاً به ولكنه غير مثير للمناقشات الحكومية. هم شدّدوا في مناسبات عديدة على المشكلة الخطيرة لنقص مياه الشرب في العديد من قرى الجنوب، وقد وعدت الحكومة ببذل كل الجهود لتخفيف هذا الوضع»[٢٣]. في رسالة أخرى، عضو شيعي في مجلس النواب وُصف وهو يعدد مطالب طائفته. طبعاً وافق رئيس الوزراء معه، «وافق معه ببراعة»، تقول الرسالة، «في أسلوبه البارع المعتاد، ولكن لم يعد بشيء»[٢٤].

في الاربعينات والخمسينات كان الزعيم المثالي أحمد بك الأسعد. (في الستينات انتقلت العباءة لابنه كامل، الذي كان، لغاية سنة ١٩٨٤ رئيساً لمجلس النواب، أعلى منصب شيعي في البلاد).

في ذروته في الاربعينات والخمسينات، عندما استلم مناصب وزارية مهمة وانتخب رئيساً لمجلس النواب، لا أحد في الواقع تحدّى الطريقة التي رأى وفهم فيها الدنيا أحمد بك. ذلك عندما كان الجنوب اللبناني مقاطعة

(٢٣) تقارير القنصلية الأميركية، برقية رقم ١١٧ تاريخ ٣٠ آب ١٩٥١.

(٢٤) تقارير القنصلية الأميركية، أيار ١٩٤٤.

انتخابية كبيرة واحدة، يُرسل أربعة عشر عضواً إلى برلمان وطني مؤلفاً من سبعة وسبعين عضواً. تفاخر أحمد بك بنفسه قائلاً إنه، إذا أراد، يستطيع أن يجعل من العصا نائباً. ثلاثة عشر عضواً من البرلمان يستطيعون أن يركبوا على ذيل معطفه.

«الاصلاح» الانتخابي جاء في سنة ١٩٥٣، مقسّماً الجنوب إلى مقاطعات صغيرة، فقد أحمد بك بعضاً من قوته. في الانتخابات الهدّامة في تلك السنة انخفض عدد كتلته المؤلفة من أربعة عشر عضواً إليه وإلى ابنه كامل. وصل البك العجوز إلى الحضيض. زاد الطين بلّة، أنه عند انعقاد المجلس الجديد انتخب خصمه اللدود عادل بك عسيران رئيساً للمجلس. عسيران، بك ذو معرفة ثقافية أكثر، جاء من منطقة شيعية قريبة من صيدا على الساحل. كان عسيران قد قدم نفسه دائماً كالصوت الأكثر معرفة في الجنوب؛ لكن رغم أنه خريج الجامعة الأميركية في بيروت، لم يكن يضاهي أحمد بك في المدن والقرى النائية في جنوب لبنان. لم يكن عنده لا الآلة الانتخابية الموجودة عند أحمد بك ولا قبضايات أحمد بك. ومع ذلك، استطاع أن يطلق بعض التحدّي. ففي سنة ١٩٥٣ جاء الحظ لمصلحة عسيران، وانتهى به المطاف إلى المنصب الشيعي المرغوب، رئيس مجلس النواب. ليس معتاداً بشكل خاص لمثل هذه الضربات لهيبته، غادر أحمد بك البلاد في نوبة غضب وبقي بعيداً في دمشق لسبعة أشهر. سرت إشاعات تقول إنه كان يخطط لتفتيت لبنان مع الديكتاتور السوري أديب الشيشكلي. لكنها كانت قصة غير قابلة للتصديق. رجع أحمد بك لاستئناف منصبه القديم. لذلك طُلب من أتباعه المخلصين مرافقة البك إلى البرلمان بشكل لائق، لتعويضه على ذلّ الانتخابات. في ٩ آذار ١٩٥٤، ظهر ليحضر جلسته الأولى في البرلمان يرافقه جمع غفير من المتظاهرين وأتباع مُسلّحين. رجع أحمد بك إلى الحياة البرلمانية في طريقة ملائمة. وأراد من رئيس الوزراء

الاعتذار على اتهام الأسعديين، الأب والابن، في جلسة سابقة، «بتدمير البلاد». فتم إزالة الكلمات الجارحة للشعور من السجل. ظنّ الجميع أن الأمر قد سوّي. لكن شرف أحمد بك طلب أكثر. أحد الديبلوماسيين الأميركيين وصف تتمة القصة كما يلي:

«كانت النتيجة التي تلت الجلسة مثيرة أكثر إلى حد بعيد. بعد أن أخبر أحمد بك مؤيديه، الذين كانوا ينتظرونه خارج مبنى البرلمان، أنه تمت تبرئته، حُمل ابتهاجاً بالفوز إلى سيارته. بعد ذلك قرر أتباع البك مواكبته إلى منزله في بيروت. لسوء الحظ أخذوا الطريق المؤدي إلى الحي الذي يُسيطر عليه السيد اليافي (رئيس الوزراء)، وفي لحظة مؤاتية، هاجم مؤيدو اليافي المسيرة. كانت الحصيلة، مقتل شخص واحد وجرح ثمانية بإطلاق الرصاص» (٢٥).

مع أو بدون إصلاح انتخابي لم يتغيّر أحمد بك. أتباعه ـ مذلولون، خائفون، يتلهفون إلى كلمة أو إشارة منه ـ أكدوا نظريته للأشياء. يروي أحد الشباب قصة نموذجية جداً من العصر الحاضر: والد الشاب، فلاح ذو موارد مالية متواضعة، إعتاد على أخذ خروف وذبحه في مدينة البك وتقديمه له. وكان البك يقدم للرجل العجوز شرف قبول خروفه. في إحدى المرات وفي نوبة كرم، أعطى البك قطعة صغيرة من الخروف للرجل العجوز. عندئذٍ رجع الرجل العجوز مع قطعة اللحم إلى قريته، ليتباهى بما أعطاه إياه البك. لقد كان عند بك « قصر» الطيبة. بيكنا، قال الرجل العجوز، هو بك كريم... (٢٦) لم يكن يوجد سبباً لأحمد بك لأن يتعلم دروساً جديدة أو أن يُغيّر عقله.

في نظر مراقب أجنبي ظهر أحمد بك «كرئيس قطاع طرق»، «مهرب على نحو ضخم»، «عضو غير كفؤ بشكل واضح» في الوزارة اللبنانية: جاءت

(٢٥) برقية السفارة الأميركية رقم ٥٦٦، بيروت ١١ آذار ١٩٥٣.
(٢٦) قصة رويت للمؤلف من قبل أحد أبناء الجنوب حسين حجازي.

الكلمات في رسالة ديبلوماسية أجنبية[٢٧]. بالنسبة لأتباعه، طاف حضور أحمد بك تقريباً في المنظر الطبيعي الريفي في لبنان الجنوبي. لقد كان محور أحاديثهم، حبهم وكراهيتهم. نظموا سياستهم حوله وحول نزواته. في أرض حيث الناس فيها خائفون، عاش «قاطع الطريق» أهواء الناس العاديين. كانت القوانين قرارات اتخذها أجانب وغرباء، تُخرق من قبل هؤلاء الناس عندما أرادوا ذلك. أحمد بك، بيكهم، كان يفعل الذي لم يستطيعوا فعله في خرق القوانين المخيفة.

كان أحمد بك يكره الفلاحين الطموحين. هناك، قصص تروي كيف أنه في إحدى المرات وبخ شاباً حساساً لأنه اقترح دراسة القانون. الشاب، مجتهد في المدرسة، كان قد أنهى علومه الثانوية. بعدها أحضره والده إلى البك؛ إنه ابن فلاح ناجح في الإمتحان الرسمي ويُظهر بعض تباشير النبوغ في المستقبل. أراد الأب من البك أن يبارك المحاولة. مع الوقت، ربما، قد يكون فكر الأب، سيتوجب التدخل من قبل البك لصالح الشاب للحصول على وظيفة حكومية مرغوبة. هذا كان حلماً شيعياً قديماً: الفلاحون ينضمون إلى جدول الرواتب الحكومية، يتلقون مديح وطاعة رجال محظوظين. لكن أحمد بك، الذي اعتقد بإخلاص أن الأرض والرجال الذين اشتغلوا في الأرض هم ملك له، لم يكن محسناً كثيراً في ذلك اليوم. كلا، قال. «ابني كامل بك يدرس القانون»، اختار الشاب ميداناً آخر للدراسة[٢٨].

الفكرة أن نظاماً حديثاً للتربية يُعطي ابن الفلاح وابن البك نفس الفرصة نزلت على أحمد بك مثل حدث مشؤوم وشرير يُحدث خراباً في العالم. في إحدى المناسبات قال أحمد بك عن شعبه: لا توجد مشاعر عظيمة بينهم لأن الأخبار والمؤثرات لا تصلهم. هم فقراء وغير متثقفين

(٢٧) برقية القنصلية العامة الأميركية رقم ٥٤٥، بيروت ١٤ تشرين الثاني ١٩٤٢.

(٢٨) نقل هذه الرواية السفير محمود حمود وهو الذي خالف أوامر البك ودرس القانون.

وتقريباً ليس عندهم صحف» الفلاحون هم فلاحون، اعتقد أحمد بك، يجب حرمانهم من المدارس، الطرقات والعيادات لتبقى الدنيا ومعالمها المألوفة لهم كما هي. إلى وفد من أهالي القرى الذين جاءوا للمطالبة بتأسيس مدرسة، أعطى أحمد بك واحداً من أجوبته الكلاسكية: ليس هناك، حاجة للمدرسة لأنه كان يعلم ابنه كامل بك من أجلهم جميعاً. لا توجد حاجة لعدة أشياء أخرى: اعتقد البكوات أن الفلاحين عضّوا اليد التي أطعمتهم. كان مهماً الحؤول دون تقدم الفلاحين أكثر من خدمتهم وتغيير الأشياء.

بالنسبة لأتباعه، قدم أحمد بك نوعاً مختلفاً من الإرتياح: أن يكون رجاله، بجانبه، في المناسبات التي تُشرفه (وربما تشرفهم). يواكبونه للترحيب بابنه كلما عاد الشاب من باريس، حيث كان يدرس. في إحدى المناسبات، كان خمسماية من أتباعه بجانبه مع مسدساتهم. أشارت إحدى البرقيات الأجنبية سنة ١٩٥١: «تظاهروا في شوارع بيروت وحول المطار، يطلقون النار ابتهاجاً»[٢٩]. لكن رجال الدرك لم يكونوا بعيدين عنهم. اعتقلوا عدداً قليلاً منهم وفرقوا الآخرين.

إطلاق النار ابتهاجاً: الرجال الذين جاءوا من قرى ومدن ذات حياة راكدة، أماكن بدون مدارس وبدون عناية طبية، يحتفلون بالعودة المنتصرة لإبن زعيمهم. الثقافة التي تمّ تحصيلها في باريس كانت ترمز إلى شيء قديم: الإعتزاز المذهبي، رجال مع مسدسات يتباهون أمام عشائر أخرى. لم يسأل أحد ماذا سيفعل البك الشاب بالثقافة. لم يكن شيئاً مهماً، الحصول على درجة جامعية والتحضير لشيء جديد. الفخر يتطلب الثقافة الجديدة: يجب الحصول عليها في مكان بعيد، ومن ثمّ الإحتفال بها وعرضها. نال ابن أحمد بك الوحيد درجة جامعية لتعزيز شرف أحمد بك. نجح الإحتفال: أغضب واحداً من أخصام أحمد بك، يوسف بك الزين، أحد معاصري

(٢٩) برقية السفارة الأميركية، رقم ٣٩٦، ٢٨ شباط ١٩٥١.

أحمد بك، بك أقل شأناً ولكنه مع ذلك واحد ممن يُحسب له حساب في منطقة النبطية، كان يوسف بك الزين يراقب احتفالات الأسعديين على مقربة من المطار، ولشدة استيائه أراد أن يوصل الأمور إلى ذروتها وأن يقطع الإحتفال حول المطار. إتصل هاتفياً بمدير وزارة الداخلية ليحتج على الرخصة المعطاة لخصمه وعلى استعمال السلاح، وليهدد «بفعل نفس الشيء في أول فرصة له»[٣٠].

كان أحمد بك الأسعد يرتدي طربوشاً وكان مفتول الشاربين نحو الأعلى. كان رئيساً للمدرسة القديمة. أما ابنه، فلم تكن له أية علاقة بالطربوش. كان رجلاً حديثاً، من إنتاج المدينة. لقد درس القانون في السوربون؛ وذكر كرة المضرب كواحدة من هواياته. لكن في العقلية، كان البك الشاب عنيداً حول السلطة وامتيازاتها أكثر من والده. توفي أحمد بك بدون تحسّر. لكن ابنه، الذي خلفه في سلطته في بداية الستينات، جعل رجال الجنوب يفتقدون الرجل العجوز بطربوشه وطغيانه ذا الطراز القديم. فبالرغم من قساوة واهمال الرجل العجوز التي يمكن وضعها جانباً كأساليب بطريرك ووالد خشن، كان أحمد بك من شعبه. تكلم لغتهم. كان عنده الأرض والسلطة، ولكن كان يعرف أساليبهم. تكلم وأكل مثلهم ومشى في ساحة القرية والأسواق مثلهم. استطاع البك العجوز أن يضع اللوم على الحكومة، مثل أي فلاح لا عون له، في كل مرة لا تحقق الوعود التي قطعها. استطاع أن يجعل من نفسه، في أي وقت شاء، مشاركاً لهزيمة أهل الجنوب وهامشيتهم.

على فراش موته، يقول القصاصون ان أحمد بك أخبر ابنه أن وضعه سيكون ممتازاً لأنه كان يورثه «مليون بغل». هكذا كان رأي أحمد بك بأتباعه الشيعة. ضُخمت الأرقام، مثل جميع الأرقام اللبنانية، لأنها كانت حقلاً أكثر

(٣٠) برقية السفارة الأميركية في بيروت رقم ٣٩٦ تاريخ ٢٨ شباط ١٩٥١.

تواضعاً. لكن الإبن شارك البك العجوز في شعوره. غير أن الرجل العجوز كان فقط طبيعياً أكثر بالنسبة لذلك.

البك الشاب، كامل، كان يكره الجنوب وأساليبه. كان يسخر من رجاله ومنطقته في العلن. كان قد درس اللغة الفرنسية، وبأموال والده قام بالرحلات إلى باريس التي كانت مطلوبة من رجال السلطة ورجال الحضارة في لبنان. كان يعرف، قيل، منطقة الحي الأحمر في بيروت، الزيتونة، مثل راحة يده.

عندما انتقلت السلطة لكامل بك بعد وفاة والده، كان العالم قد بدأ يتغيّر في نواحٍ مُنذرة جداً. كان الفلاحون يغادرون الأرض جماعات جماعات ليعودوا لاحقاً مع أموال شيعية جديدة تمّ كسبها في أفريقيا. إلى جانب ذلك تعرض عدد كافٍ من الأولاد للضغط والضرب من أجل الحصول على شهادات جامعية. كان كامل بك غير مرتاح لرياح التغيير التي جعلته فقط أكثر صلابة. جاءت سلطته مع عدم الإستقرار.

لقد قيل، إنه لم يُسمح لأي شيعي، يرتدي ربطة عنق، بمواجهة البك الشاب. كان على الرجال البارعين المثقفين والأغنياء، الذين يسمح لهم بالدخول لمشاهدته، خلع ربطات عنقهم. فقط البك يستطيع أن يرتدي لباساً حديثاً. كان على البقية أن يتجنبوا غضبه، كان عليهم أن يكونوا فلاحين، ملاءمة لسلطته، لإنجازاته الجنسية، للطريقة التي أذل بها هذا أو ذاك الرجل عندما كان يسعى لمآربه مع زوجة الرجل. كان عليهم أن يعيشوا إنتصاراته، رجل من مذهبهم الخاص، يسير من أجلهم في عالم غريب.

كان أحمد بك بارعاً في تقليد الأسلوب الشعبي في الكلام وتلك الكلمات الشعبية التي قالتها الأمهات لأولادهن، كلمات الفلاحين - كلمات التقوى والهزيمة. عندما كان أحد الرجال الشيعة من الجنوب يشذ عن

القاعدة، كان يواجه تأنيباً. كان كامل بك يحب إذلال الرجال في حضور الآخرين. كلما كان الرجل بارعاً ومغروراً أكثر، كلما تمتع كامل بك أكثر بإذلاله في العلن، ساخراً من إنجازاته وثقافته.

لعب كامل بك على الجانب الآخر من الحدّ الفاصل الحضاري. لم تكن له النساء الشيعة الفلاحات ذوات القلب الطيب في لبنان بلباسهن الزاهي، واللهجة القروية. نظر كامل بك إليهم جميعاً، رجالاً ونساءً كفلاحين. اللباس العصري لم يخدعه. نظر إليهم في الطريقة الوحيدة التي كان قد عرفهم بها، عندما كان يذهب مع والده بين الحين والآخر ـ ضد إرادته، بدون شك ـ إلى منزلهم في الطيبة. كان يجب أخذ البك الشاب إلى الطيبة ليصبح اجتماعياً وليتعلم أساليب الزعامة. لقد كان الابن الوحيد لوالده. وكان لدى الأب «شكوكاً» حول إمكانية نجاح الابن. جميع الآباء في هذه المكانة كان لديهم مثل هذه الشكوك التي كانت السيف الذي يمسك به الآباء. مع هذه الشكوك، كانت تتم إدارة الأولاد وإبقائهم ضمن الخط المرسوم لهم.

ورث الابن منطقة نفوذ وامتيازات والده ـ إمتيازات سيد الجنوب. كان كامل بك يتوق للتفوق على والده. وبما أنه لم تكن توجد مشاريع حكومية للإبداع فيها، جرت معركة البك الشاب مع تراث وظل والده في الطريقة الوحيدة التي رأى ومارس فيها الرجال السياسة هنا. قرر الابن أنه يجب أن يكون قاسياً أكثر من والده، مخيفاً ومرعباً أكثر في الطريقة التي حدّق فيها إلى الرجال، مخادعاً أكثر في الطريقة التي يُعين بموجبها رجال الشيعة الجنوبيين في وظائفهم، وعديم الرحمة أكثر في محاولته الحصول على المال الجديد من الناس المحظوظين الذين عادوا من الأمكنة البعيدة، مع مقياس جديد لجدارتهم الذاتية.

كان الرجال الشيعة، الذين عادوا من أفريقيا الغربية وأماكن أخرى

كانوا قد هاجروا إليها، يتوقون لنيل احترام الناس. لذلك أراد العديد منهم أن يكونوا نواباً وأن يترشحوا على لائحة البك البرلمانية. اعتقد الرجال أصحاب المال الجديد أنهم يستطيعون شراء طريقهم للوصول إلى لائحة المرشحين العائدة للبك. غير أن البك وبخهم بسخرية لثقافتهم المعدمة. تكلم عن الرجال الجُدد ذوي الألقاب والدرجات الجامعية، الدكاترة، المهندسين والمحامين الذين رغبوا نفس المناصب. كان لدى البك مجالاً للإثنين معاً المال الجديد والشهادات الجامعية الجديدة. احتقر الإثنين معاً مع صلافة وغطرسة متساوية. كان على الرجال ذوي المال شراء طريقهم في لائحة البك. كان يجب أن يكون عندهم مالاً كافياً للسيارات والباصات من أجل نقل السكان الشيعة من حزام البؤس في بيروت إلى قراهم ليتسنى لهم الإقتراع. لم يؤمن الشيعة أبداً بتسجيل أسمائهم للإقتراع في المدينة وأكواخهم الجديدة التي كانت قد أصبحت وطنهم. اعتقدوا أن الإقتراع في بيروت كان مضيعة للوقت. لذلك أبقوا تسجيل اسمائهم في الأماكن التي تركوها خلفهم. وكل أربع سنوات، خلال تلك المهرجانات والمنافسات بين العشائر المرشحة للإنتخابات، كانت السيارات والباصات ترجعهم إلى قراهم ومدنهم في الجنوب والبقاع للادلاء بأصواتهم لهذا أو ذاك البك، مع كامل بك أو ضده، مع يوسف بك الزين أو ضده. بعدئذٍ تعود السيارات والباصات: أولئك الذين أيدوا المرشحين الخاسرين رجعوا خلسة وبهدوء إلى المدينة، ولكن سيارات مؤيدي المرشحين الفائزين رجعت مع ابتهاج الفرز، إطلاق أبواق السيارات، وزغاريد النساء. فاز مرشحهم وهُزم أخصامهم. كانت مسألة بسيطة. كانت تدور حول هزيمة المرشح الآخر. ذاق الرجال طعم الإنتصار الذي حصل بالوكالة عن. كان لديهم النزر القليل للإحتفال به وتذوقه.

في قضاء بنت جبيل، كان البرنامج الإنتخابي لعائلة البزّي، إحدى العشائر التي كان زعيمها مستعداً أن يفعل أي شيء ليصبح نائباً، هو هزم

أخصامهم، عائلة بيضون. في قضاء مرجعيون، كانت عائلة العبدالله من الخيام تؤمن أن مقعداً نيابياً لواحد من أنسبائها هو حق وراثي لها. وهكذا شاركت العشيرة اجمالاً في الشرف. بمعنى أنه كانت توجد خدمات قليلة جداً كان يستطيع المرشحون المتنافسون تقديمها. وما كان يهم هو الشرف غير الملموس، الشعور، كما أشار البزيون في بنت جبيل أنهم أنفسهم ذهبوا إلى الفراش متخمين بينما ذهب أخصامهم إلى الفراش مع معدة فارغة. الايديولوجية»، كتب أحد المراقبين الأجانب، كانت «غريبة على الإنتخابات اللبنانية» (٣٢).

كان على المرشحين أن يكون لديهم المال لتقديم السجائر والقهوة، للقبضايات الذين كانوا يحمون البك ومرشحيه والذين كانوا يرافقونه إلى المدن حيث كانت قد صدرت تهديدات ضده وحيث سُمعت الشكاوى حول أسلوبه وغطرسته وعدم اهتمامه للطرقات الغير معبدة ولسياسة التسعير لشركة إحتكار التبغ. قبل كل شيء، كان يجب أن يكون هناك مالاً للبك نفسه، سيد الدنيا، الرجل الذي كان يرفعهم لمستوى أعلى من السلطة، الذي كان يعدهم بإحدى اللوحات المخصصة لأعضاء مجلس النواب. طبعاً لم يكن يوجد لوحات مرخصة كافية للجميع، وبدلاً من المحاولة للوصول إلى مقعد نيابي، أراد بعض أصحاب المال الجديد التسكع فقط حول البك، أن يكونوا جزءاً من حاشيته، وأن يظهروا في صور معه في لقاءاته وولائمه. أرادوا نشر الأخبار في المدينة أو القرية، التي جاءوا منها، أن البك كان قد استشارهم، أنهم قدموا النصيحة له حول أمور سياسية، وأنهم كانوا مطلعين على سره بالنسبة لحكمه حول الرجال والقضايا الشيعية. لكن البك كان يعرف إلى أي مدى مُلحّ أراد الرجال ذوو المال الجديد أن يكون عندهم شرف الإرتباط معه. وكان يعرف كيف يجعلهم يدفعون ثمن هذا النوع من الشرف، لقد

(٣٢) تقرير السفارة الأميركية في بيروت، الشباب في لبنان ١٩٧١، ٢٨ تموز ١٩٧١.

كان مكلّفاً تناول العشاء مع البك، أخذ صورة معه، الإنتقال في سيارته، والتواجد في حضوره.

المال الذي دفع لكامل بك تمت الإستفادة منه بشكل جيد. أخذ البك البعض من هذا المال، أما البعض الآخر، كان يُصرف على الرجال الذين حموه، والذين رافقوه إلى المدن والقرى حيث لم يكن مرغوباً فيه. قسم من هذا المال تم صرفه في البارات والنوادي الليلية الرديئة السمعة في بيروت، وعلى العذارى اللواتي، قيل، إن البك كان مغرماً جداً بفضّ بكارتهن. هذه كانت قوة التفوق على الآخرين. كان يُقدّم للبقية صحون البك «باردة»، بعد أن يكون قد جربهم وانصرف. هكذا فكر البك بالعالم. وهذا كان نوعاً من السياسة الذي كان على رجل الدين المولود في إيران أن يحاربه.

سياسة العشائر القديمة، مع كل مسرحها ومؤاساتها وعدم جدواها، كانت السياسة المسيطرة بين الشيعة. لكن مع انتهاء الخمسينات، حوالي خمس عشرة سنة بعد استقلال لبنان، كان هناك تيار سياسي منافس يجذب بعض الشباب: الأحزاب «العقائدية»، اليسارية واليمينية منها، التي وعدت بتغيير الأساليب القديمة للبلاد، هذه الأحزاب، كالحزب الشيوعي، البعث، الحزب القومي السوري الإجتماعي، وحركة القوميين العرب، وجدت لها موالين جاهزين بين الجيل الأول لشباب الشيعة الذين كانوا ينفصلون عن انعزالية الرجال المسنين. في ذلك الحين، كان المزيد من الشيعة يشقون طريقهم إلى بيروت وضواحيها ومدن الأكواخ. ففي خلال سنتي ١٩٥٩ - ١٩٦٠ كان المدخول الفردي في بيروت خمس مرات أكبر مما كان في الريف(٣٣). أهمية الأرض كان يتمّ إلغاؤها؛ السياسة، التي استمدت قوتها من الأرض وأساليب الأرض، كان يتمّ تآكلها. في الواقع البكوات المسنون لم

(٣٣) روجرز أوين، الإقتصاد السياسي للبنان الكبير ١٩٢٠ - ١٩٧٠، مقالات حول الأزمة اللبنانية، صفحات ٢٣ - ٣٢.

يعدوا بشيء إلا بإذلال الماضي ـ الماضي المفصول من نسيج معانيه، من الحماية القليلة والأمن الهزيل الذي أعطوه في إحدى المرات. الأحزاب العقائدية الجديدة أعطت وهماً عن شيء جديد، لغة جديدة، أسلوب سياسي جديد، وإحساس جديد ظهر في المدن والقرى التي كانت بعيدة.

كان سهلاً الإدراك أن الأحزاب الجديدة كانت تعمل في محيط عدائي، وأن بلد الطوائف والعشائر كان يتهرب من المفردات والتركيبات المستعارة. لكن الشباب توجّه إلى الأحزاب. وأكثر من أي شيء آخر، الأحزاب العقائدية الجديدة زوّدت الناس الخائفين ببعض الإحترام الذاتي. الفلاح الشاب المشرّد الذي كان يتحدث عن ماركس ولينين وستالين، معلم المدرسة الإبتدائية الذي أُرغم على ترك الأرض بدون أي ملاذ في العالم الجديد، مع عائلة لا تزال باقية في الأرض تعيش على راتبه وإحساسه، وجدوا في الأحزاب العقائدية دنيا يمكن جعلها عالمهم الخاص. الكتب والمناشير أعطت فكرة عن العالم أوسع من سياسة العشائر والوجهاء. الأرض المفقرة والجافة، المسنون القساة والقرى المعزولة أغلقت العالم؛ المناشير والأفكار السياسية قامت بفتحها. أحد علماء الإجتماع من مدينة بنت جبيل أجرى دراسة عميقة حول التغيير العقائدي الذي اجتاح تلك المدينة في الخمسينات. حزب البعث، حزب مؤيد للقومية العربية وأسّسه مفكران من دمشق، انتشر بسهولة مذهلة في بنت جبيل في بداية وأواسط الخمسينات. الإنتساب إلى حزب البعث أعطى معلمي المدارس والحرفيين الصغار الفرصة للتعبير السياسي. من بنت جبيل وعلى امتداد الحدود، جرى قتال كبير من أجل فلسطين وانتهى على نحو قاس في سنة ١٩٤٨ مع إقامة دولة إسرائيل. عالم مألوف تمّت إعادة صياغته. التعليم العلماني الرسمي كان قد جاء إلى بنت جبيل تقريباً في نفس الوقت. ففي سنة ١٩٥٢، تمّ تسجيل ستمائة تلميذ في المدرسة في بلدة عدد سكانها حوالى سبعة آلاف نسمة. بذلك بدأ خرق

التوازن في بنت جبيل. علاوة على ذلك كانت الأفكار الجديدة مطلوبة لشرح العالم. كما أن مئات من سكان بنت جبيل كانوا قد شقّوا طريقهم إلى افريقيا الغربية وإلى مصانع السيارات في ديترويت. ولاحقاً تحويلاتهم جعلت التعليم ممكناً للجيل الشاب. هذا كان أول جيل يعرف أي شيء خارج الفقر الحاد وكدح الأرض. أما العقائدية البعثية التي بشرت بوحدة العالم العربي، ربما لم تقدم أملاً بتغيير أوضاع بنت جبيل، ولكن لم تفعل ذلك الأساليب القديمة في البلاد[٣٤].

لبنان، بلد الطوائف المتنافسة، كان له طريقه في التعامل مع الحركات الجديدة واللغة الجديدة. اضطهدها عندما استطاع، عندما احتاج أن يفعل ذلك. الدولة، في الوضع الذي كانت فيه، ربما لم تكن قادرة على تزفيت الطرقات أو على دفع المال للتعليم. لكن كان باستطاعتها قمع أولئك الذين أرادوا هزّ المركب. الدولة فعلت شيئاً آخر: شيئاً أكثر فاعلية، شيئاً كانت بارعة فيه: حوّلت النزعات الجديدة، الطبقات الجديدة، والمطالب الجديدة إلى العداءات القبلية القديمة التي كان البلد يعرفها جيداً وشعر أنه يستطيع معالجتها.

أحد أعضاء البرلمان في معرض تلخيصه لسياسة الشيعة حين وصول موسى الصدر عبّر عنها على الشكل التالي: «كانت سياسة الإستقطاب، الإقطاع من جهة، والتطرف من جهة أخرى. كان يجب اكتشاف طريق جديد»[٣٥].

رجال المجتمع الشيعي الذين، فكروا في الإنقاذ السياسي في أواخر الخمسينات وبداية الستينات، لم يتطلعوا في اتجاه المجتهدين الشيعة. لا إن شيعة لبنان ساندوا مجتمع رجال الدين الذي كان يسوده الكساد الإقتصادي

(٣٤) وضّاح شرارة، تحوّل تظاهرة دينية في قرية في جنوب لبنان، الجامعة اللبنانية، ١٩٦٨.
(٣٥) مقابلة أجريت مع السيد حسين الحسيني.

والهدوء السياسي. وهكذا رجال الدين قبلوا تفوق البكوات. هؤلاء الأخيرون كان لديهم المال والرجال المسلحون والأرض. وكان علماء الدين يعاملون باحترام عندما كانوا يتواجدون مع البكوات، كانوا جاهزين عندما كان البكوات يقومون بجولاتهم الكبيرة لمناطق نفوذهم. لكن الإحترام والمساعدة المالية التي قُدمت إلى رجال الدين، اعتبرها البكوات برهاناً لإخلاصهم وكرمهم الخاص. التقوى كانت جيلة في مكانها؛ لكن الذي كان يهم هو عالم السلطة، عالم الشؤون والقضايا. محمد تقي الصادق، رجل الدين البارز في هذه الفترة، كان حليفاً لعائلة الأسعد. من قاعدته في النبطية، كان يعظ الشيخ صادق بأحاديثه المحافظة. كان رجلاً بدون طموح، بدون بريق. لم يكن يوجد سر روحي خاص برجال الدين. غير محصنين اقتصادياً، أخذوا الدنيا كما جاءت. من الأفضل ترك الأحجار كما هي، اعتقد رجال الدين، طالما أن الرجال الذين يتولون السلطة كانوا يدفعون بعض المال للمؤسسة الدينية والأوصياء عليها. «حدود» المؤسسات الدينية تمّ مراعاتها. ما وراء هذه الحدود، الأمور قد تنفجر؛ رجل السلطة قد يعلن عن أي رجل دين أنه أبله أو منافق. عندئذٍ يمكن إيجاد قصة دينية، ربما يرويها أحد البكوات نفسه، تؤكد أن رجال الدين كانوا الأشد بعداً عن الله وتعاليمه. في عالم الندرة، كان يوجد دائماً الشك بأن رجل الدين كان طفيلياً وأنه كان يعيش على كدّ وأرض الرجال الآخرين.

الرجال المتمتعون بالذكاء الريفي سخروا من المحترفين الدينيين. قيل إن اللباس الديني كان غالباً غطاء للرجال الذين أخفوا عاهات جسدية وهربوا من السخرية بهم. ومعرفة المحترفين الدينيين كانت دائماً موضوع تعليقات سخرية و«قيل وقال». كان طبيعياً للناس العاديين، ذوي الألسنة اللاذعة، التشكك في معرفة هذا أو ذاك الملاّ، التشكك في ما إذا كان رجال الدين حقيقة يعرفون مهنتهم. في الواقع، نشأ هذا الإستياء من احتكار

المعرفة ـ المهارات الأساسية في الكتابة والقراءة ـ التي كان تعلمها المحترفون الدينيون لغاية قدوم التعليم الحديث إلى هذه المنطقة الشيعية النائية في الأربعينات والخمسينات. غير أنه بعد أن تمّ كسر الإحتكار، استبدل الشعور بالإستياء بغطرسة اكتشفت حديثاً إزاء ماذا كان يعرفه رجال الدين والمعرفة التي كانوا يروجونها.

كان رجال الدين الشيعة يعوقون أي تقدم أو تطور. أخبروا قصصاً غريبة عن الإثني عشر إماماً، حول شجاعتهم وبلاغتهم ـ قصصاً لا يفهمها العقل، حتى العقل المؤمن واجه مشكلة في استيعابها. كانوا جبناء ومحافظين. أضاعهم العالم الخارجي وأوقعهم في حيرة. أحد الرجال الشيعة العاديين الذي أصبح واحداً من المعجبين بموسى الصدر عبر عن يأسه ويأس الآخرين مثله برجال الدين: «رجل الدين في وسطنا غطّى نفسه بعباءته، وضع رأسه على يده، وذهب للنوم. استيقظ فقط ليقول للآخرين أن يناموا. إنه يعيش حياة جامدة؛ لا تُخدع بأية حركة يقوم بها لأنها عادة تكون متخلفة. يقوم رجل الدين بنوعين من الأذى، مرة عندما يتخلّف عن غيره، ومرة عندما يشدّ الآخرين معه. . .، رجل الدين، حشا عقله بالأوهام والعجائب والأساطير الأكثر استحالة»(٣٦).

هناك إثبات حول التشكك الشعبي بالنسبة للمؤسسة الدينية والأوصياء عليها من قاضي وعالم ديني شيعي مشهور، محمد جواد مغنّية. كان مُغنية قد تجول في بعض قرى الجنوب سنة ١٩٥٩، سنة وصول السيد موسى. ما وجده في جولته كان مثبطاً للعزيمة: «بعض الشبان وبعض المسنّين أيضاً يشتكون دائماً رجال الدين الذين لا يقومون بواجباتهم، لا يزورون ولا يوجهون المؤمنين. ولكن عندما يصادفون رجل دين في طريقهم يهربون منه كرجل معافى يتجنب رجلاً مصاباً بمرض مُعدٍ. أخبرت أحد الشبان في إحدى

(٣٦) نجيب جمال الدين، الشيعة على المفترق، بيروت ١٩٦٧، صفحة ١٠٠ - ١٠١.

هذه القرى أن هدف زيارتي هو التعليم الديني، وأنني كنت مهتماً للسماع من الشاب بالنسبة لشؤونهم، لأن الدين يسمح لكل مُشكك أن يقول رأيه... أصغى الشاب لي، وعد أن يرجع في المساء مع لائحة أسئلة وتحفظات، ولكنه غادر ولم يعد أبداً»(٣٧).

رجال الدين كانوا حاملي تقاليد دينية وتربوية متكلّفة. أرهقتهم التقاليد؛ جعلتهم غير قادرين على مواكبة تغيرات، التغيرات الحقيقية وأيضاً تطلعات وطموحات ـ جماعتهم. ما نقل من تقاليد لم يكن له تأثير على الواقع الذي عرفه وعاشه الناس. اعتبروا كل فكرة جديدة كبدعة، كمشعل يضرم النار في الأماكن المقدسة. كانوا جاهزين لمهاجمة بدعات العلم، ليقولوا إن القرآن الكريم توقّع آلة التسجيل، لتحذير الشباب المنشقين، من حماقات العصيان وللتذكير بعدم عصيان آيات القرآن الكريم: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...﴾(القرآن الكريم(٤: ٥٩)

لم تكن كثيرة عيوب رجل الدين هذا أو ذاك، لكن النظام التقليدي للتربية، وعملية صنع رجل الدين، كانا يقرران مصير الأوصياء على المؤسسة الدينية. العالم البريطاني إدوار براون أعطى تقريراً حياً حول صنع رجل الدين الشيعي. ومع أن مادة التقرير جاءت من إيران، لكن براون كان يصف تقليداً كاملاً للثقافة الشيعية، وعالماً «يشبه عن كثب عالم الطالب الأوروبي في القرون الوسطى».

«نحن نرى الطفل يُسحب قبل أوانه من الألعاب والتسليات المناسبة لعمره ليخضع لدورة طويلة، شاقة وجافة من الدراسة في قواعد اللغة العربية حيث يقرأ درساً في القواعد بعد الآخر في سلم متصاعد من الصعوبة مع تعليقات، وتعليقات إضافية، تفسيرات وملاحظات حول كل واحدة

(٣٧) محمد جواد مغنية، إلى علماء الشرع في جبل عامل، العرفان، العدد ٤٧، أيلول ١٩٥٩، صفحة ٧٧ - ٧٨.

منها؛ نراه كولد، مُتفجر بالطموح، يتابع دراسته في علم الفقه والقانون. نصف جائع، يعاني بالتناوب من برد الشتاء وحرّ الصيف، يؤذي نظره بقراءة نصوص معقدة على ضوء القمر المتقطع، وجهازه الهضمي من خلال وجبات فاسدة وغير منتظمة، ومتنوعة حسب فترات الجوع. معزولاً عن الحياة المنزلية والروابط العائلية؛ غارقاً في محيط من الشكلية والتعصب؛ يضع نفسه مع الوقت في أكوام التفسيرات والملاحظات المعتمة التي تحجب بدلاً من توضيح النصوص التي ترتكز عليها، وأخيراً، إذا كان محظوظاً، يسترعي انتباه أحد علماء الدين الكبار، ويصبح مدرساً، ومُتوّلي، أو حتى مُجتهداً»(٣٨).

محسن الأمين (١٨٦٧ - ١٩٥٢)، أحد المجتهدين المشهورين للطائفة الشيعية اللبنانية ـ غالباً ينوّه عنه كشخصية الأكثر شهرة للطائفة في العصر الحاضر ـ ترك نظرة خاطفة ونادرة عن عالم رجال الدين الشيعة. قصة حياته التي كتبها بنفسه، وهو عمل غير اعتيادي لرجل دين من طينة تقليدية، تؤكد صورة براون؛ تُبين ماذا كان يجب على رجل دين كالإمام موسى الصدر، رجل ذي جرأة وتوهج، أن يجاهد.

ولد السيد محسن في شقراء إحدى القرى الأكثر معرفة في جنوب لبنان من عائلة السيّاد. كان انموذجاً يجمع السيّاد وعلماء الدين معاً. يدعم بالوثائق سلالة من التقوى والعلم الديني من جهة أبيه وأمه. عن والده، السيد عبد الكريم الأمين، كتب يقول: «كان تقياً نقياً صالحاً صواماً قواماً طيب السريرة بكاء من خشية الله تعالى، حج بيت الله الحرام وزار بيت المقدس وزار المشاهد المقدسة في العراق؛ وكان عازماً على زيارة مشهد الرضا عليه السلام فأشار عليه ابن عمه السيد كاظم أن ينفق ما يريد إنفاقه في ذلك السفر على طلبة العلم من أبناء اخوته، فقبل إشارته وعاد من العراق؛ وبعد هجرتنا إلى العراق لطلب العلم بمدة هاجر إليها مع باقي العائلة ودفن في النجف

(٣٨) إدوار براون، تاريخ الأدب لبلاد الفرس ـ المجلد الرابع، ١٩٧٨، صفحة ٣٦٧.

الأشرف». جد السيد محسن من الأم كان الشيخ محمد حسين العاملي الميسي، «عالماً فاضلاً صالحاً ورعاً تقياً شاعراً قرأ في مدرسة جبع ثم سافر إلى النجف الأشرف لطلب العلم؛ أقام في النجف مدة ثم توفي»(٣٩).

يتذكر السيد محسن سنواته الدراسية قائلاً: «بعدما بلغت سن التمييز وأظن أن سني لم يتجاوز يومئذ السبع، وكنت وحيد أبوي، ذهبت بي الوالدة إلى معلم القرآن في القرية، فلما دخلت مكان التعليم ضاق صدري ضيقاً شديداً وجزعت جزعاً مفرطاً، لما كان في التعليم من القساوة، فالفلقة معلقة في الحائط فوق رأس المعلم وهي خشبة بطول ثلاثة أشبار تقريباً مثقوب طرفاها وفيها حبل دقيق يوضع فيها الساقان وتشدّ عليها وعنده عصوان طويلة وقصيرة والأطفال جلوس إلى جانبه فاذا غضب المعلم على واحد لذنب هو من الصغائر وهو قريب منه تناوله ضرباً على رجليه بالعصا القصيرة فإن كان بعيداً عنه ضربه عليها بالعصا الطويلة». الألعاب الرياضية، لهو الأطفال، لم تكن مسموحة لطالبي المعرفة الدينية. هذا النظام القاسي، يقول السيد محسن، جاء من الماضي: تمّ تطبيقه «حتى مع أطفال الخلفاء والملوك والأمراء»(٤٠)، بعد أن أصبح ضليعاً في القرآن، حان الوقت للاتجاه للقواعد العربية، والتركيز على تحسين خط يده: القواعد وأصول القواعد شغلت ليالي السيد محسن.

في سنة ١٨٧٩، عندما كان السيد محسن في الثانية عشر من عمره، عاد أحد علماء الدين من العراق، السيد جواد مرتضى، إلى قريته المسماة عيثا الزط قرب تبنين. كان هذا العالم الديني قد حصل على سمعة متواضعة، فأرسل السيد محسن ليدرس عنده. كان بداية صعبة يقول السيد محسن: «لكوني في سن الطفولة، كنت إذا فتحت الكتاب ليلاً للمطالعة حسب

(٣٩) السيد محسن الأمين، سيرته بقلمه وأقلام آخرين، نشر من قبل ابنه حسن الأمين، العرفان ١٩٥٧، صفحة ٦ - ٩ وصفحة ٨.
(٤٠) السيد محسن الأمين، سالف الذكر صفحة ٩.

العادة، لا أهتدي إلى فهم شيء من العبارة وإذا حضرت الدرس نهاراً لا أفكر في الدرس بل فكري مشتت؛ فمضى عليّ على هذه الحال مدة قليلة واترابي جلهم مشتغلون باللعب ثم رأيتني اخاطب نفسي فأقول أنت حضرت إلى هنا لتستفيد لا لتتعاطى ما يتعاطاه الصبيان من اللعب فصممت على الجد والكد... تاركاً معاشرة كل من لا استفيد منه علماً»(٤١).

بعد أربع سنوات، رجل دين أكثر علماً، الشيخ موسى شرارة، عاد من العراق إلى بلدته بنت جبيل، إحدى المدن الكبرى في جنوب لبنان، فأراد السيد محسن الدراسة تحت إشراف الشيخ شرارة، عندها استخار بالقرآن الكريم على الانتقال لبنت جبيل، فخرجت الآية ﴿قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري...﴾. لقد جاء الالهام ومعه القرار للذهاب إلى بنت جبيل. وتبيّن أنه كان قراراً حكيماً: قدم المعلم الجديد للسيد محسن برنامجاً كاملاً للدراسة في القواعد والفقه؛ وكان لدى المعلم الجديد طريقة مقنعة في شرح محتوى ومعنى القرآن، إضافة إلى ذلك فإن اهتمام السيد محسن جاء بفضل دراسته في بلدة بنت جبيل التي كانت مكاناً ممتعاً له. ويتذكر السيد محسن أيامه في بنت جبيل قائلاً: «لما كنا نسكن في بنت جبيل في وسط البلدة كان يسهل علينا الاستقاء من الآبار القريبة منا، فلما سكنا في آخر البلدة من الشمال احتجنا إلى من يستقي لنا الماء من عيناثا لأن بها عينا ماؤها غزير، أما عيون بنت جبيل فينضب ماؤها في الصيف حتى يقل جداً ولا يكفي لحاجة أهلها...» غير أن الطلاب لم يريدوا أن يحضروا المياه من عيناثا إلى بنت جبيل: حمل الجرّة كان من عمل النساء - ويتطلب بعض المهارة. وعندما لم تأتِ أية امرأة للمساعدة، أخذ أحد الطلاب الجرة إلى عيناثا، أملأها وتناولها بإحدى عروتيها ليضعها على كتفه فانفلقت فلقتين، والعادة أن تحمل الجرة بكلتا عروتيها فحمل نصفها بيده وأتى، وحينئذ لم يبق من حيلة إلّا

(٤١) السيد محسن الأمين، سالف الذكر صفحة ١٣.

عرض الأمر على المرجع الأعلى الشيخ موسى الذي تدخل لارغام إحدى النساء في بنت جبيل لاحضار المياه للطلاب الطامحين.

بعد ثلاث سنوات من الدراسة مع الشيخ موسى، تُرك السيد محسن ليدبر أموره بنفسه. لأن المعلم مات بمرض السل، وهُجرت المدرسة. «على العادة المتبعة في جبل عامل أن عمر المدرسة ينتهي بعمر صاحبها وربما ماتت في حياته»[٤٢] بعد ذلك عمل ودرس السيد محسن بنفسه. أراد الذهاب إلى العراق من أجل دراسات دينية، لكن والده كان معارضاً. لقد كانت العائلة بحاجة للوسائل المادية. وهكذا أمضى السيد محسن خمس سنوات (١٨٨٥ - ١٨٩٠) ينتظر فرصته للذهاب إلى العراق.

خلال هذه الفترة برز التجنيد العسكري الاجباري. الجيش العثماني كان بحاجة لتزويده بالرجال ومن مذكرات السيد محسن نعرف الفجوة بين الإدارة العثمانية ورعاياها الشيعة - جزئياً البعد «العادي» بين الحاكم والمحكوم، وجزئياً الهوة المذهبية بين السنّة والشيعة. حضر السيد محسن إلى السلطان في المركز الحكومي في مدينة صيدا الساحلية. ذهب مع الآخرين، الذين مثله، ارادوا طلب الاعفاء من الخدمة العسكرية. بحجة أنهم علماء دين، هناك أحد الضباط الأتراك، «عنيف في تعامله ضد طالبي المعرفة الدينية»، أرسل السيد محسن وعدد قليل من رفاقه إلى بيروت مع مذكرة مفادها أنهم لم يكونوا طلاب دين، ولكن مزارعين، «رجال يحرثون ويحصدون». تمّ ارسال علماء الدين إلى بيروت في عهدة رجل درك. وكان يتمّ بتّ الأمر بشكل فعّال: السيد محسن ورفاقه كانوا في طريقهم ليصبحوا مجندين.

لكن كان هناك استثناءات في هذا النظام، في بيروت أحد المسؤولين

(٤٢) السيد محسن الامين، سالف الذكر صفحة ٢٩ - ٣٠ - ٣١.

العثمانيين، ذو مزاج لطيف، والذي يتكلم العربية بلهجة دمشقية، وافق على أن السيد محسن ورفاقه كانوا طلاب علم. قال هذا المسؤول للسيد محسن: «أنتم طلبة؟ قلت نعم، قال: ومن أين تعيشون؟ قلت: إن الله تعالى رازق جميع العباد متكفل برزقنا، ومع ذلك لنا أهل ينفقون علينا؛ فقال لي: إن لباسك لباس تجار، وكنت لابساً عباءة عراقية مخيطة حساوي وكان الفصل شتاء فقلت إن العلم ليس باللباس وهذه العباءة لبستها في الطريق للوقاية من البرد وسيصير الامتحان قريباً»[٤٣].

جلس الطلاب الشباب للامتحان. نجحوا اجمعهم وتمّ منحهم الاعفاء من الخدمة العسكرية.

يروي السيد محسن حادثة مثيرة للدهشة تُلقي الضوء على الحقائق الاقتصادية الثابتة للمؤسسة الدينية والعلاقات بين الأعيان ورجال الدين. إذ إنه بعد فترة من الوقت من وفاة معلم السيد محسن، جمع أحد الأعيان الأثرياء في بنت جبيل، الحاج سليمان بزّي، وجهاء وأثرياء المنطقة لتشويقهم لدعوة عالم دين من العراق، بعد ذلك أرسلت برقية للشيخ محمد حسين الكاظمي، أعلى مرجع ديني في النجف في ذلك الحين، تطالب برجل دين من الاثنين: السيد اسماعيل الصدر (جد الإمام موسى الصدر) أو السيد مهدي الحكيم (والد السيد محسن الحكيم، الذي أصبح المرجع الأكبر في النجف والراعي للإمام موسى الصدر). «فقبل السيد الحكيم بالمجيء على أن يرسل له مائتا ليرة عثمانية ذهباً، فأرسل له مائة مقدماً وأرجئت مائة إلى حين حضوره، ولما حضر استقبله القوم إلى دمشق فأخذ بالحزم ولم يبرح دمشق حتى أمنت المائة الثانية، وكنا اشوق إلى حضوره من الظمآن إلى بارد الماء».

وبعد وصوله بوقت قصير إلى بنت جبيل، طرح السيد مهدي الحكيم مسألة معيشية أمام الوجهاء، وكان يريد منهم أن يشتروا له منزلاً ومزرعة

(٤٣) السيد محسن الامين، سالف الذكر، صفحة ٣٥ - ٣٦.

صغيرة: إني حضرت إلى هذه البلاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا لا يتمّ إلاّ بأن أكون مستغنياً عن الناس وذلك يتوقف على أن تجمعوا لي من البلاد ما اشترى به مزرعة تقوم بكفايتي». هذا الطلب، يشير السيد محسن، لو قيل في مثل ايران أو العراق لكان له وجه. ولكن هنا في جبل عامل «التي يغلب على أهلها الفقر، لم يسبق لأحد من علمائها أن طلب مثل هذا الطلب». غير أن الأعيان تقدموا باقتراح تسوية: شراء المزرعة، على أن لا تكون ملكاً للسيد مهدي؛ ولكنها تصبح وقفاً على العالم القائم بوظيفة العلم في جبل عامل. المسألة لم تُحلّ؛ والثروة قليلة لاعطاء السيد مهدي ما كان يريده. وقد عبّر عن ذلك أحد الأعيان الذين حضروا الاجتماع بقوله: «نحن فقراء، وعالمنا يعيش كما نعيش، وقد اعتدنا أن يجيء العالم، فواحد منا يقدم له فرساً، وواحد شيئاً من المال وهكذا... أما إذا كنا نريد أن نشتري لكل عالم مزرعة فلا يمضي زمن قليل حتى يصبح جبل عامل كله ملكاً للعلماء. فأين نذهب نحن؟»(٤٤). البلد الفقير والنظرة المريبة للرجل العادي نحو رجال الدين، امتزجا في كلماته.

وفي سنة ١٨٩٠، عندما كان السيد محسن في الثالثة والعشرين من عمره، تحقق حلمه في الذهاب إلى العراق، إذ خفت ممانعة الوالد وتوفر قليل من المال يكفي لمغامرة إلى العراق.

حول مدينة النجف المقدسة، حول مدارسها وأساليبها، كتب السيد محسن كرجل يكتب عن أرض الميعاد التي وصل إليها أخيراً: مع خشية وبعض خيبة الأمل. الخشية كانت للتاريخ، وإلى ما كانت تثيره الأرض وما كان يثقلها؛ خيبة الأمل كانت للمنهاج الدراسي. من السيد محسن نتعرّف على عيوب المدارس: المقدرة المتوسطة للطلاب، الفوضى في النظام التربوي القائم على سياسة عدم التدخل والشكلية. حتى أنه وجد عيوباً في التضلع في

(٤٤) السيد محسن الأمين، سالف الذكر، صفحة ٤٠.

اللغة العربية لدى العديد من العجم والفرس في المدارس الدينية. ونتعرف أيضاً على الفقر والصعوبات المادية التي كان يواجهها الطلاب، وصعوبة الحياة بإمكانيات مادية محدودة من الواضح أن السيد محسن كان قد ذهب إلى العراق من أجل الدراسات الدينية مع زوجة وأطفال. خاصة وأن السيد محسن لم يذكر في روايته أي موضوع عن الزواج، لكنه في سرد تجربة العشر سنوات في النجف، تحدث عن زوجة وعدة أطفال. وأشار إلى أنه كان من الصعب دراسة النصوص وإطعام عائلة. فهو يُخبر عن ثلاث سنوات صعبة ـ لم يتمّ تحديدها ـ عندما حصل غلاء في العراق وصادف حصول قحط في جبل عامل، أرض أجداده، أُرسل إليه القليل من المال خلال هذه الفترة مما أجبره بيع بعض الكتب للمحافظة على الأمور كما هي. «انهارت العائلة تقريباً»، قال السيد محسن، «بينما واصلت دراستي وقراءتي». غير أن أحد الأشخاص الكرماء الذي لم يسبق للسيد محسن أن التقاه، وهو رجل شيعي من لبنان، قدّم تبرعاً مالياً ليرى السيد محسن «وعائلته يجتازون الأوقات الصعبة الاحتمال»(٤٥).

في سنة ١٩٠١، «كتب إلينا شيعة دمشق يطلبون حضورنا إليهم والسكنى عندهم»، يقول السيد محسن. لقد لبّى الدعوة السيد محسن وامضى بقية حياته بين دمشق ومنزل اجداده في لبنان. تجنّب قدر المستطاع اضطرابات السياسة، كان في جبل عامل، عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، وعاد إلى دمشق، معتقداً أنها آمنة أكثر، ولكنه غادر دمشق ثانية عندما ادرك أنه كان «بعيداً عن الخطر في ارض اجداده».

السيد محسن كان رجلاً مولعاً بالكتابة والمطالعة. دمشق، مكان أغنى من وطنه الريفي، ساعدته على كتابة التعليقات الممتازة التي كان رجال الدين مشهورين بها. إحدى أعماله الأدبية، «أعيان الشيعة»، تصل إلى ستة

(٤٥) السيد محسن الأمين ـ سالف الذكر، صفحة ٦٣ ـ ٦٤.

وخمسين مجلداً، إنها موسوعة. هنا وهناك يتداخل النور، ويتلاءم حجم العمل مع وصف براون لانتاج رجال الدين. مرهقون بتقليد علم ديني ثقيل، متضايقون بالفقر، ومحاصرون بفكرة العالم التي اعتبرت عالم السياسة والسلطة كعالم تسوية، رجال الدين الشيعة كانوا الرجال الذين نادراً ما تطلع إليهم الآخرون للتغيير والزعامة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هذا ما كان اسلاف السيد موسى الصدر يعتبرونه ميدانهم المناسب في لبنان.

في بداية الستينات عندما كان الإمام موسى الصدر لا يزال يفتش عن دور، أحد العلماء في لبنان ويُدعى الشيخ حسين معتوق عبّر عن رأي رجال الدين المسيطر، إزاء التورط السياسي. استشهد بسلطة أعلى رجل دين في العالم الشيعي، مرجع التقليد، آية الله محسن الحكيم في العراق. آية الله الحكيم، قال، امتنع عن التعامل مع ملك العراق خلال فترة الحكم الملكي أو مع البعثيين والشيوعيين الذين اطاحوا الحكم الملكي. رجال دين آخرون، رجال دين أقل شأناً، كانوا ملزمين الحذر والابتعاد الموجود عند محسن الحكيم ازاء عالم السياسة(٤٦). بين الفينة والأخرى، أحد شيوخ القرى ـ على عكس بعض كهنة القرى في روسيا القيصرية الذين كانوا يعطون غطاءً وموافقة دينية لثورات ريفية متقطعة ـ سيعمل في السياسة المتطرفة. لكن الرد المسيطر لرجال الدين على عالم السلطة كان خليطاً من الحذر التاريخي، الانتهازية، والأمانة الصارمة للنصوص المقدسة.

التقاليد حررت رجال الدين الذين قبلوا بها وأعفوها من المسؤولية. فالإنسان العادي يستطيع أن يصل إلى طريقة للحياة مع النظام السياسي القائم، يستطيع جعله طاعة دون أن يكون متورطاً في أساليبه. ومن أجل

(٤٦) الشيخ حسين معتوق، وقفة مع الزعماء والشعب، العرفان، العدد ٥١، ١٩٦٣، صفحة ٥٤٨-٥٥٢.

اصلاح نظام اجتماعي، يتوجب عليه قبول الزامي أكثر من الانتهاء، لكن التفسير الهادئ لرجال الدين استبعد مثل هذه العضوية. هذا التفسير أعطى الذين اشتركوا به إعفاءً من المسؤولية السياسية والاجتماعية. مشجع على الشعائر الدينية والثقافية. التقاليد الموروثة، الأطروحات الوجيهة، التاريخ المكتوب والمحكي للاثني عشر إماماً، كانت ضخمة وتتطلب انتباهاً دقيقاً لاستيعاب الطاقات وحماية عمل ودور رجل الدين. إلى جانب هذه المسؤولية، «تلويث» الحياة اليومية، تجاوزات الدولة ومالكي الأرض، كانت أموراً يمكن تجاهلها أو على الأقل «وضعها في النصاب الصحيح». لقد كان عند رجال الدين جماعتهم التي تهتم بهم. كان الشر، الجنون، والفتنة التي تطارد حياة الناس. ومن الأفضل لرجال الدين التركيز على إبقاء الأمور كما هي دون مسّها. إنه قالب عقلي يلقي الضوء عليه جوزيف كونراد في كلمات منسوبة لإحدى الشخصيات في رواية «تحت الأعين الغربية»: «الظلامية (نزعة إلى اعاقة التقدم وانتشار المعرفة) هي أفضل من نور المشاعل المحرقة. فالبذرة تنبت في الليل. ومن خارج التربة القائمة تنبت العشبة الكاملة. لكن الهيجان البركاني العقيم، هو خراب الأرض الخصبة»(٤٧).

وبما أن المذهب الشيعي كان عنده مثل هذا المحتوى العاطفي المترفع، شعر العديد من رجال الدين أن جزءاً من مهمتهم، أن يكونوا رزينين، أن يترفعوا عن الانفعالات الشعبية، وأن يبتعدوا عن الناس العاديين، كان يجب الحفاظ على مكانة وكرامة رجل الدين، وهذا الموقف خلق حاجزاً كبيراً بين رجال الدين والناس العاديين. الحياة العادية ـ المناقشات المفعمة بالحيوية، قصص الانجازات الجنسية، المزاح بين الرجال والنساء، التصريحات الناقدة حول أمور دينية، لم تكن تستمر في حضور رجال الدين. كان العالم مُدنساً

(٤٧) جوزيف كونراد، تحت الأعين الغربية، لندن، ١٩٧٩، صفحة ٣٦.

ومُلوثاً ـ وحقيقياً، حافظ رجال المؤسسة الدينية على الشيء الذي كان طاهراً وصحيحاً ـ ومستنبطاً.

كان عمل رجل الدين يُفصل له مع طموحه السياسي وهمومه الاجتماعية. لكن القادم الجديد، الذي وصل سنة ١٩٥٩، كان عنده بعض الأشياء على جانبه. وصل الإمام موسى الصدر بينما كان الناس يشعرون ببعض التحسن في حياتهم، خاصة وأن المال الشيعي الجديد، جلب البعض منه المغتربون الشيعة في أفريقيا الغربية، كان يشق طريقه إلى المجتمع. الأهم من ذلك، جاء الإمام موسى الصدر بينما كان التمدّن يضيّق الهوة بين المدينة والريف. عمل رجل الدين والموهبة الخارقة كانا يتطلبان سكان مدن: «نحن فلاحون، ماذا تريد من الدين»، قال أحد الفلاحين الغاضبين في المنطقة إلى أحد المبشرين الإرساليين الفضوليين الذي بقي مصرّاً على أن كل رجل، بمن فيهم «البدائيين الفقراء في وسط أفريقيا، عنده دين»(٤٨).

عاش الفلاحون في عالم محدود وخام. فلا حنكتهم ولا معيشتهم خلقت الأرضية الملائمة لرجل دين طموح. فلو أنه وصل قبل عقد من الزمن، لكان وجد الإمام موسى الصدر سكاناً ريفيين مرهقين وغير مبالين. بدلاً من ذلك، لقد كان محظوظاً، وصل بعد أن تمّ إطلاق الناس من يقين وشك الأرض، من ملاذ التقليد الذي قدمته الأرض، ومن الفقر والعمل الكادح الذي لا مفر منه.

الإمام موسى الصدر كان قد حالفه الحظ أيضاً، أنه جاء سنة ١٩٥٩، إلى حكم سياسي جديد برز بعد الحرب الأهلية في السنة التي سبقت. ما حدث سنة ١٩٥٨ يجب أن لا يستوقفنا طويلاً. «الميثاق الوطني» في سنة ١٩٤٣، المبني على تفاهم أساسي بين اللبنانيين الموارنة والقوميين العرب

(٤٨) طومبسون، الأرض والكتاب المقدس، لندن ١٨٧٢، صفحة ٢٢٧.

السُنّة انهار خلال سنتي ١٩٥٧ - ١٩٥٨. الرئيس الماروني، كميل شمعون، خرق بنود هذه التسوية المدوزنة بشكل ممتاز. أثناء فترة القومية العربية الحادة التي ولّدها نداء الرئيس المصري جمال عبد الناصر، سعى شمعون لدفع لبنان إلى فلك الولايات المتحدة الأميركية. فخرق شمعون الافتراضات الماكرة لنظام الحكم اللبناني التي تعتبر الرئيس (بالتوافق ماروني) الأول بين متساويين في نظام رؤساء جماعات (عصابات) وأقلية، وتخوّل الرئيس التكلم باسم الطوائف المتباينة التي يتألف منها لبنان. زوّر كميل شمعون الانتخابات البرلمانية في سنة ١٩٥٧، بشكل تجاوز الحدود «الطبيعية» للإحساس الواهن والسخيّ للبلاد. كان واضحاً أنه كان يسعى لانتخابه لمدة ست سنوات رئاسية أخرى (أيضاً خرق آخر للأصول غير المكتوبة في لبنان). غير أنه في سنة ١٩٥٨ اندلعت الحرب الأهلية التي جلبت قوات المارينز الأميركية إلى لبنان، لجانب شمعون. ثم انتهت بتسوية. ما انبثق بعد ذلك، كان حكماً منفتحاً نسبياً برئاسة قائد الجيش فؤاد شهاب، ضابط بعقلية غير حمقاء. الحكم السابق لكميل شمعون كان مدعوماً من زعامات و«أعيان» شيعية، الحكم الجديد، ملتزم ببعض الإصلاح، بقدر مقبول من اشتراكية الدولة، كان يفتش عن رجال جدد يستطيع صقلهم والعمل معهم من أجل كبح نفوذ الزعماء الإقطاعيين.

علاوة على ذلك، كان مجيء الإمام موسى الصدر إلى لبنان في ذات الوقت الذي وصلت فيه محطة التلفزيون الجديدة. وكان يوجد في لبنان ستة آلاف جهاز تلفزيون سنة وصوله؛ بعد عقد من الزمن، أصبح في البلاد أكثر من مائة وخمسين ألف جهاز تلفزيون. كما أن حضارة السيارات انتشرت في العقد الذي أعقب وصوله. قبل عشر سنوات كان عزل المدن والقرى الشيعية خانقاً. وفي بداية الستينات، عندما بدأ الإمام موسى الصدر يتجوّل

في هذا البلد الصغير، كانت حضارة السيارات قد ضيّقت الهوة بين المدينة والريف.

الحظ والظروف كانت لصالحه. وصل إلى بلدٍ بدأ يشهد تفاوتاً بين الناس والطبقات في أسلوب جديد. في بداية الستينات، أظهرت الإحصاءات الجديدة للبنانيين التفاوت في بلدهم. الاقتصاد كان موجهاً بقوة لصالح قطاع الخدمات ـ المصارف، التجارة، والسياحة ـ الأربعة بالمائة من سكان البلد أخذت ٣٢ بالمائة من الدخل القومي، بينما الـ ٥٠ بالمائة من السكان أخذ فقط ١٨ بالمائة من الدخل[٤٩]. كانت الأرقام نتيجة دراسة أجراها فريق فرنسي بتكليف من نظام حكم الرئيس فؤاد شهاب. الرجال، الذين استرعى انتباههم التفاوت، أعادوا ذكر الأرقام، واعتبروا أن اختلال التوازن القديم العهد شيئاً ولّده الرجال ومن ثمّ يستطيع الرجال تغييره. كان الغنى والفقر قد عاشا هنا جنباً إلى جنب كما فعلا في كل نظام اجتماعي تقليدي: كان الغنى نعمة، نعمة وملكية القلة من الناس؛ كان الفقر والندرة قدر الأكثرية. الدولة الآن وبعض الرجال ذوو المعرفة اعتبروا أن التفاوت شيئاً يمكن إصلاحه وتغييره. «الأمر تقريباً هو عندما تكون حالة الأشياء الأكثر كرهاً لدرجة التحطيم»، لاحظ توكفيل Tocqueville، في معرض تعليقه على الحكم السابق في فرنسا، «لكن عندما، تبدأ في التحسن، تسمح للناس أن يتنفسوا، يتأملوا، يتبادلوا الأفكار فيما بينهم، وقياس مدى مظالمهم بما عندهم. الوطأة، رغم أنها أقل ثقلاً، تبدو بدرجة أكبر أنها لا تطاق»[٥٠].

حتى القومية الافريقية البعيدة ساعدت رجل الدين المولود في إيران.

(٤٩) توفيق بيضون، أثر النظام الاقتصادي على المستهلك في لبنان، بيروت ١٩٧٠.

(٥٠) رسائل مختارة حول السياسة والمجتمع، ألكسي توكفيل، دار نشر كاليفورنيا، ١٩٨٥، صفحة ٢٩٦

فبعد وصول الإمام موسى الصدر إلى لبنان بوقت قصير، بدأ العديد من المغتربين الشيعة بالرجوع إلى لبنان. مبعدين عن الوطن بسبب الفقر في الربع القرن السابق، إلى غانا، سيراليون، ليبيريا، وبلاد أفريقية أخرى، كان المغتربون قد كسبوا مالاً كافياً للعودة إلى لبنان. القومية الافريقية، التي كانوا عدائيين وغير مؤيدين لها، أضافت حافزاً لوضع سنواتهم الافريقية خلفهم. الرجال ذوو المال المجني في الأراضي البعيدة لم يستطيعوا أن يجدوا مكاناً مريحاً في السياسات القديمة للبكوات والعشائر. وسياسة الأحزاب العقائدية لم تكن لهم. هؤلاء الرجال، ورجل الدين الذي وصل حديثاً من قمّ، كانوا شركاء مثاليين. مثله، كانوا يفتشون عن مكانة في البلد، نوع من طريق وسط بين الإقطاع والتطرف.

الطريق الذي سار عليه رجل الدين:

الإمام موسى ورفاقه

«مذ عدت إلى موطن آبائي (لبنان) وبدأت بالمبادرة تلو المبادرة على الصعيد العام، شعرت بتجاوب شعبي كامل من أبناء الطائفة، أخذ يتزايد مع وضوح النتائج، وتفهم الأبعاد.

هكذا تلقت الأصالة الذهنية لدى المواطنين تلك المبادرات، أما بعض الخاصة ممن لا يهضمون الإخلاص والنصيحة، ولا يستطيعون تفسيرها إلاّ كما يحلو لهم، أما أولئك فقد شككوا بأنفسهم ونواياهم حين أثاروا الشكوك حولي والافتراءات عليّ. وربطوا مبادراتي بحركات سياسية محلية أو عربية أو عالمية، دون رادع من إيمان وعاصم من ضمير، ولا اعتماد على القرائن والأدلة، الأمر الذي يخرج الإنسان عن الإنسانية كما يقول «ابن سينا».

وكنت لا أرى سبباً لهذه الشكوك سوى أنني خرجت برجل الدين إلى عالم الحياة والحركة، ورفعت عنه غبار السنين، ليسير مع الحياة في تطورها ورقيها منسجماً بذلك مع الفكر الديني الأصيل»[1].

هذه الكلمات كانت كلمات الإمام موسى الصدر. كانت كلمات تعريف عن الذات ودفاع عن النفس. المرج في صور، الذي كان كافياً لأسلافه، كان بالنسبة له فقط بداية. بينما شرع في جعل الناس تشعر بوجوده في صور

(١) مجلة العرفان، العدد ٥٤، أيلول ١٩٦٦، صفحة ٤٠٨.

وما وراءها، واجه تشكك هذه الأرض الصغيرة. كان رجلاً مع جدول أعمال وفي عجلة من أمره. صور لا تستطيع احتواءه.

تواريخ العصور الفينيقية صنعت الكثير من صور: الآثار على الساحل كانت نصباً تذكارية لأيام أفضل. الكتب المدرسية الصادرة عن وزارة التربية، والتي مجدت العظمة الفينيقية، وتكلمت عن صور وتجارتها وروعتها. لكنها كانت مقاطعة مقفرة وأطلالاً. قدرت التقارير الحكومية الرسمية عدد سكان المدينة وجوارها بحوالى سبعين ألف نسمة. بعد ظهور الامام موسى الصدر هناك بوقت قصير، وقف نائب صور، جعفر شرف الدين، في مجلس النواب ليتقدم بطلب من أجل صور ولوصف أوضاع المدينة الساحلية والمدن والقرى المحيطة بها:

«توجد ستون قرية في منطقة صور، أنعم اللّه سبحانه وتعالى عليها بكل أنواع الجمال. لكن الحكام حرموا صور وجوارها من حقوقها. من بين هذه القرى، فقط اثنتا عشرة قرية أو حوالى ذلك، فيها ما يمكن تسميته مدرسة أو طريق معبدة. أربعون قرية هي بدون مدرسة. جميع هذه القرى بحاجة إلى المياه، بينما يمر نهر الليطاني في طريقه إلى البحر. جميع هذه القرى بحاجة إلى الكهرباء، لأن الكهرباء هي من حظ الأقضية المميّزة أكثر... إنها قرى مهجورة، يسكنها رجال ونساء عجائز، غادرها الشباب للكدّ في المناخ الحار في أفريقيا. نزح ألوف أكثر إلى بيروت، للكدّ بين الآخرين من صنفهم، صور نفسها، قلب القضاء، عانت ما لا تستطيع مدينة أخرى معاناته. أصبحت مكاناً خراباً ومشوهاً. كل شيء فيها هو أقل مما يجب أن يكون عليه مكان متمدن. على الحكومة أن تعيد إلى صور روعتها»[٢].

رغم ذلك، صور كان عندها حسناتها لرجل دين شاب طموح. كانت المدينة الساحلية الشيعية الوحيدة: المدن الشيعية الأخرى كانت أكثر عزلة

(٢) محاضر مجلس النواب، بيروت، جلسة ١٩٦٠ صفحة ٦٦ - ٦٧.

وأكثر تعاسة. الأكثرية في صور كانت من الشيعة، لكن كان يوجد مجموعات مسيحية، إضافة إلى عدد ضخم من الفلسطينيين كانوا قد عاشوا هناك منذ طردهم من بلادهم سنة ١٩٤٨. تبعد صور أميالاً قليلة عن الحدود الإسرائيلية، وكل أنواع التيارات السياسية وُجدت فيها. كانت المدينة صورة مصغّرة عن البلد. علاوة على ذلك، كان للمجموعة الفلسطينية التي سكنت صور تأثير في استقدام هموم سياسية جديدة وفي استيراد عقائد وأفكار مؤيدة للقومية العربية. في الناحية الأخرى من الحدّ الفاصل السياسي والاجتماعي كانت إحدى العائلات «الإقطاعية» في جنوب لبنان، عائلة الخليل، مع أساليبها القديمة العهد. كان آل الخليل معروفين بخشونتهم وقساوتهم. زعيم العشيرة، كاظم، رجل خشن، كان قد هُزم في الانتخابات البرلمانية سنة ١٩٦٠. كان الرجل المدلل للحكم السابق، حكم الرئيس كميل شمعون، الذي تمّ التخلص منه في الحرب الأهلية سنة ١٩٥٨.

الإمام موسى الصدر تودد وعمل مع النظام الجديد، حكم اللواء فؤاد شهاب. والتهمة التي أُشيعت في السنوات اللاحقة أنه كان «تابعاً للحكم» كانت تافهة - وحقيقية على حدٍ سواء. خلال عقده الأول في البلد عمل من خلال سياسة المؤسسات. كان الإمام موسى الصدر شخصاً إصلاحياً، كان يريد مدارس مهنية ومستوصفات؛ كان يريد وظائف للشيعة في الدوائر الحكومية؛ كان يريد حصة أكبر من الموازنة الوطنية للمدن والقرى المهملة في الجنوب. كان قادماً جديداً وغريباً. كان عليه أن يُظهر إخلاصه لمؤسسات ورفاهية الدولة. كان عليه أن يظهر الثناء والتقدير للبنان، «لعبقرية لبنان الخاصة»، «لمهمة لبنان التاريخية»، كان عليه أن يقول جميع تلك الأشياء التي قالها البلد عن نفسه. لو أنه قذف بنفسه ضد الدولة اللبنانية في الستينات، لكان ذلك خطوة وهمية؛ فلحق به عدد قليل من الأشخاص الشجعان الشيعة، ولكانت المحاولة أخفقت. كان عليه أن يتودد، ويتعلّم أساليب

مكان جديد وغريب. عمل وسط أسمى طائفة «واقعية». في ذلك الحين، كان لدى الشيعة مجال صغير للخطأ، كان على الرجل الذي يقودهم تحقيق خدمات وفوائد ملموسة. شيء ما قيل عن الفلاحين الروس القدماء انطبق على هذا الشعب: كانوا ميالين لأن يثقوا في أي شخص عمل لهم(٣). من يُريد أن يصبح قائداً، عليه أن يُظهر أدلة ملموسة عن مواهبه واهتماماته.

رؤية وطموحات موسى الصدر التقت مع الحركة الشاملة للحكم الشهابي. باختصار، فترة الست سنوات لحكم فؤاد شهاب (١٩٥٨ - ١٩٦٤) كانت محاولة لبنان الأولى - والأخيرة - مع اشتراكية الدولة. جلب فؤاد شهاب معه إلى الرئاسة روح ورؤية قائد جيش غير سياسي. كان يريد للبلد شيئاً أكثر من السياسة القديمة لأسياد الحرب ومحاراة الأقارب في التوظيف. كان أول رئيس للبنان يُدرك أن «جمهورية التجار»، المؤلفة من القلة الحاكمة والزعماء الإقطاعيين، يجب عليها الوصول إلى تفاهم مع المحرومين، وتنظيم حياتها الفوضوية بطريقة جديدة. أدرك فؤاد شهاب أن رأسمالية لبنان الجامحة، كان عليها تجسيد أفكار المسؤولية الاجتماعية، وقبول فرض الضرائب. كان يريد تعزيز سلطة الدولة إزاء أسياد الحرب. لهذا كانت أجهزة الحكم الشهابي تفتش عن رجال وقوى جديدة يمكن مساعدتها ودعمها ضد النظام القديم. سعى شهاب إلى صفقة أفضل للشيعة ولمناطقهم المهملة في البلد. كان يعرف أن التوازن السياسي في لبنان يجب تغييره، وأنه يجب على طائفته، الموارنة، التنازل عن بعض من سلطتها لصالح المسلمين. لكنه هو أيضاً عمل مع المادة الموجودة - ومع قرار الحكم للحرب الأهلية في سنة ١٩٥٨. ثورة ١٩٥٨ شنتها بيروت الغربية المسلمة (السنّة) والدروز: وهاتان الطائفتان كانتا المستفيدتين من الإصلاحات الشهابية. وكما قال المؤرخ اللبناني كمال صليبي: «انتهت الإصلاحات

(٣) بولص ألريش، الثوار الروس، نيويورك ١٩٧٦.

الشهابية بخسارة الشيعة لجزء كبير من حصتهم لصالح السنة والدروز، وبقوا «الطائفة الممثلة الأكثر هزالة...، كما كانوا في الواقع من قبل»(٤).

مع ذلك، بذل فؤاد شهاب محاولة: وهذا ما أعطى رجل الدين الذكي في صور بعض المجال. كان فؤاد شهاب نفسه الذي منح الإمام موسى الصدر الجنسية اللبنانية، وقد حصل ذلك مع بعض التردد، كما أخبرنا سياسي لبناني حسن الاطلاع. الوصي (القيّم) على الدولة اللبنانية، رجل من لبنان مع خلفية ضابط جيش، اعتبر موسى الصدر «رجلاً ليس كالآخرين، وهو خطير»(٥). وهذا لم يكن نتيجة أية معلومات ملموسة يملكها اللواء، بل كان بسبب ذلك الغموض الذي تعقب رجل الدين، والذي التصق به. عائلة شهاب كانت لبنانية في العمق. وكان الشهابيون قد حكموا جبل لبنان كعائلته الأميرية البارزة من سنة ١٦٩٧ لغاية أوائل ١٨٤٠. كان فؤاد شهاب إنتاج مساحة صغيرة جداً. بينما الإمام موسى الصدر كان مختلفاً: هويته وجذوره لا يمكن تصنيفها على نحو دقيق جداً. لكن على رغم الشكوك، مُنح الإمام موسى الصدر الجنسية، وتمّ توفير بعض الأموال لأعماله في صور، خاصة لمركز تدريب مهني، وقد كان مشروعه المفضل خلال سنواته الأولى في البلد.

مضت فقط ست أو سبع سنوات قبل أن تُرسّخ أفكار الإمام موسى الصدر الإصلاحية وشهرته، شرارته، قال أحد المراقبين: كان خطيباً فاتناً، مُقنعاً للناس بالفطرة. في بلدٍ حيث عاش ومات بعض الناس الجنوبيين دون أية مغامرة حتى إلى مدينة طرابلس الساحلية في الشمال، كان الإمام موسى الصدر مسافراً لا يعرف التعب. حتى قيل الكثير عن واقعه، إنه يستطيع أن يستيقظ في صور، ويتناول الغداء في جبل لبنان، بعدئذٍ يقضي الليل في وادي

(٤) كمال صليبي، لبنان في ظل فؤاد شهاب، دراسات الشرق أوسطية، ١٩٦٦، صفحة ٢١٩.
(٥) السلام المفقود، كريم بقرادوني، بيروت، ١٩٨٤، صفحة ١١٨.

البقاع الشرقي. كان بلداً صغيراً، لكن حدوده رسمت وكان الناس، خاصة رجال الدين الشيعة، نادراً ما يغامرون خارج جزئهم الصغير من البلد. لعلّ الرجل الذي ترعرع في إيران شعر برهبة الإحتجاز (الخوف من الأماكن الضيقة) في لبنان.

دخل الإمام موسى الصدر الساحة السياسية، يشق طريقه إليها. لكن يجب أن نتذكر أنه فعل ذلك كرجل دين. وبهذه الناحية من مهنته وتمثيله الذاتي يجب أن نبدأ. لا نملك وسيلة لتقييم الإمام موسى الصدر أو أي شخص آخر. (في شكل عام، المجتمع الإسلامي تجنّب هذا السؤال بحكمة. إلصاق تهمة الكفر بشخص ما مسألة خطيرة وشائكة، ذلك أن الناس يُعتبرون مسلمين عند إعلان إيمانهم). بعض رجال الدين المحافظين في لبنان اعتبروا الإمام موسى الصدر شخصاً يفتش عن الحقيقة المطلقة، وشككوا في ديانته وإيمانه. عندما ظهر في إحدى الكنائس لإلقاء موعظة، وزع أخصامه في المؤسسة الدينية صورة له تحت صليب. وقالوا، لا يستطيع أي مجتهد أن يفعل مثل هذا الشيء ويبقى ضمن عقيدة الإيمان. عندما سافر إلى أوروبا سنة ١٩٦٣، كانوا على يقين أن الرحلة بحد ذاتها شوهت سمعته. واحتجوا قائلين: إنه ربما يكون قد نام في عالم الكافرين وأكل طعام الكافرين. كان يوجد أولئك الذين اعتقدوا أن عمامة هذا الرجل السياسي، بكل ما في الكلمة من معنى، كانت غطاء، وأن الدين كان إلى حدٍ بعيد وسيلة وأن رجلاً يتمتع بمقدار جيد من السحر والدينامية والطموح الدنيوي يستطيع أن يفعل ما فعله دون موافقة وغطاء المؤسسة الدينية.

لكن الدنيوية جانباً، لقد كان رجل دين، سيد، وابن رجل دين. ميزاته وأفكاره كانت ميزات وأفكار دينية؛ لغته كانت مليئة بالرموز والمجازات الدينية. لقد كان سيداً. متحدراً من سلالة الإمام السابع، هكذا قدم نفسه.

الرجال الذين تبعوه - النبلاء والمحترفون المتحركون نحو الأعلى في عقده الأول في لبنان، والجماهير الشيعية في العقد الثاني - قرأوا في حياته أفكار التاريخ الشيعي، وصوّروا فيه المواقف الساكنة منذ مدة طويلة إزاء السلطة الشرعية ومن كان مؤهلاً لها. مهنة «الإمام» - قائد وزعيم سياسي وديني - كان عليها أن ترسو في قاعدة دينية. التاريخ، الذي عمل لصالحه، وساعده ضد عائلات مالكي الأراضي ذوي المطالب القديمة العهد بالسلطة، ضد الأحزاب السياسية العلمانية التي شعرت أنها جديرة بالسلطة انطلاقاً من عالم السياسة الحديث، هذا التاريخ كان بكل ما في الكلمة من معنى تاريخاً دينياً. في الإسلام، نما المجتمع السياسي من خلال المجتمع الديني. الزعيم المثالي كان النبيّ محمد ﷺ نفسه؛ الأئمة، الذين، حسب المذهب الشيعي، ورثوا سلطة النبيّ ﷺ الدينية والدنيوية، وقد ساروا على خطاه، وانطلقوا من الخطوة الدينية إلى السياسية. وفي حالة الإمام موسى الصدر، كانت حالة وريث تقاليد الذي كان يلمح - بالواقع يعيد - إلى عالم السياسية فكرة قديمة حول أولوية الدين على كل شيء دنيوي وسياسي.

لم يكن الإمام موسى الصدر مفكراً نظامياً عظيماً، أو كاتب اطروحات مهمة عن الدين. ولبنان لم يكن بحاجة لمثل هذا النوع من الموهبة، فلم يكن هناك مجالاً لها. علاوة على ذلك، ذلك النوع من العمل كان يتطلب الإنعزال، الإمام موسى الصدر كان رجلاً ذا حركة محمومة. كان يدرس بسرعة، وكان واضح القراءة. كانت عنده ميزات المفكر والسياسي الفعّال - حسنات ملائمة لإزالة «غبار الأجيال» كما قال. الإمام موسى الصدر كان مهتماً في السلطة والتغيير. كانت عنده قراءة حديثة «وناعمة» للمذهب الشيعي. مناقشاته الأولية في البلد، الأفكار التي استرعت الإنتباه، والتي جلبت له الشهرة والأتباع المؤثرين، كانت تكراراً للأفكار القديمة «للعصرية الإسلامية». نحن على بينة من هذه الأفكار التي تطورت في مجرى القرن

التاسع عشر: هذه الأفكار بلورها سياسيون فاعلون وفلاسفة سعوا من خلالها إلى ردّ إسلامي على سلطة الغرب، وعلى مطالب حضارية علمية وعلمانية. الدفاع العصري للإسلام ـ الحث عليه، قراءة حاجات وتغييرات جديدة في الكتب المقدسة، «وتهريب» التغيير إلى تقليد قديم الذي كان قد تخلّف عن الغرب ـ كان مروّجه المثالي جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧)، سيّد مولود في إيران مع جذور غامضة ومثيرة للجدل من النشاط السياسي. في مجرى حياته، التي تضمّنت إخفاء ولادته الخاصة (الشيعية) الإيرانية وادعاءه تحدّر (سنّي) أفغاني والتي امتدت إلى الهند، إيران، مصر، وتركيا، كان الأفغاني قد جدّد الأفكار العصرية حتى يأخذها الآخرون: تطابق الإيمان والعقل (المنطق)، إنفتاح الإسلام على الإبتداع (التقليد)، وحاجة لإصلاح الإسلام لأغراض «التقوية الذاتية».

هذه الأفكار العصرية كانت أفكار السنوات الأولى للإمام موسى الصدر. «إن الإسلام»، قال الإمام موسى أمام حشد من المفكرين العلمانيين، «ينظر إلى العلوم باحترام وتقدير، ويعتبرها طريقاً لوصول الإنسان إلى الهدف من خلقه، وإلى كماله الأصيل، وإلى مقام خلافة الله في الأرض، ومعرفة الله، فالسير في هذا الخط واجب مقدس.

والحق يقال إنه لا ذنب للعلم إلا كشف الحقيقة، فالمؤمن الذي يحارب العلم ويخاف منه يجب أن يعتبر نفسه شاكاً غير مؤمن بدينه لأن الخوف من اكتشاف الحقيقة معناه الخوف من معارضة دينه للحقيقة. فالإيمان العميق يؤكد الحركة العلمية وينشطها.

وأرى من المناسب هنا أن أشير إلى الإفراط والتفريط في آراء بعض المسلمين حول موقف الإسلام من العلم الحديث. مثلاً حينما بدأ الإنسان بغزو الفضاء قال بعضهم إن هذا غير ممكن لأنه تدخل في سلطان الله، وكأن الله في الفضاء أو يختص سلطانه به... وهناك فئة ثانية تقول إن كل ما

يحدث في العلم أخبر عنه القرآن الكريم...» وتابع الإمام موسى قائلاً: «إن هاتين الفئتين كانتا على خطأ: الفئة الأولى لأنها جبانة كثيراً والفئة الثانية لأنها تأخذ القرآن وتقدمه ككتاب يعرض للشؤون العلمية بالتفصيل»(٨).

هذه الأفكار طُرحت في الندوة اللبنانية أمام أفضل وألمع الشخصيات اللبنانية. وكانت هذه الندوة هيئة تجمع المثقفين وأولئك الذين تفاخروا بمقدرتهم في معالجة الأفكار والمناقشات المليئة بالنشاط والحيوية. أما مؤسس هذه الندوة فهو الأستاذ ميشال الأسمر، مفكر ماروني يتمتع بآفاق واسعة، وطبع كريم. وكان قد أصبح فيما بعد واحداً من الأصدقاء الحميمين للإمام موسى، كان اهتمامه عميقاً في التراث الشيعي، ويعتقد أنه يجب بناء علاقات وطيدة بين الطائفتين الشيعة والموارنة لبناء لبنان المستقبل.

محاضرة الإمام موسى ألقيت أمام هذا الحضور في لغة عربية رسمية وكلاسيكية. ويظهر النص شيئاً من قلق رجل يكشف عن مدى علمه، عدد الكتب التي قرأها، مقدرته على التوفيق بين التراث وحاجات الناس العصريين. في القيود الإسلامية، قال الإمام موسى، تمّ اكتشاف العديد من الأبعاد العصرية لحياة الناس، «الإجتماعية، الفلسفية، وحتى النفسية». القلق، الرغبة الجنسية، الحسد، أمور تمّت معالجتها في القرآن الكريم، في السيرة، في سلوك وعبر النبي ﷺ. «ثقافتنا (الإسلامية) تربط بين السماء والأرض، وتصل المخلوق فرداً، وجماعة، بخالقه، فتتصف بالربانية، والقداسة والقوة، وتُرضي بهذه الصفة جميع مشاعر الإنسان». اقتبس واستشهد بما قاله أحد العلماء الكبار الأستاذ «جب» في جامعة اكسفورد في كتابه القيّم «الإتجاهات الحديثة في الإسلام» حول الإنسجام بين الإسلام والأفكار العصرية؛ جال في التاريخ الإسلامي ليسجل المساهمات في حقلي

(٨) الإسلام وثقافة القرن العشرين، بيروت، ٢٤ إيار ١٩٦٥، نشرت في مجلة الإسلام، صفحة ٦٨-٦٩.

العلم والفلسفة. كان عمله يدل على البراعة والقوة التي جاءت من العصرانية الإسلامية. أشار إلى إنتاج وكتابات الفيلسوف الإسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي المعروف بملا صدرا (١٦٤٠). «إن صدر الدين»، قال الإمام موسى. «هو ذروة الفلسفة الإسلامية وخلاصة الأقدمين وقدوة المتأخرين وهو مؤسس الحكمة المتعالية التي تجمع فلسفة المشائين وحكمة الإشراقيين والعرفان.

وحينما نقابل الفلسفة الإسلامية الممثلة في شخص صدر الدين الشيرازي، حين نقابلها بفلسفة القرن العشرين، نشعر بتفوق نهجه الفكري على كثير من المناهج الفلسفية الحديثة، بالرغم من كونه ابن القرن السابع عشر الميلادي... إن فيلسوفنا هذا سبق القرن العشرين بآرائه العلمية المؤمنة». في أعمال الملاّ صدرا، تابع الإمام موسى قوله، وفي أعمال أتباعه، كانت التساؤلات التي طرحها الفيلسوف الألماني «كارل ياسبيرز»، وفقاً لفلسفة جان بول سارتر حول الوجودية: «أحب أن أدعي في هذا المقام أن الشرق في حقل الفلسفة والتصوف لا يزال يشرق على العالم في القرن العشرين، ولي على ذلك أكثر من شهادة: يقول البروفسور «كوربان» إن الفلسفة الشرقية هي التي تتمكن من إنقاذ فلسفة أوروبا من التدهور والتمزق وإن أوروبا فقيرة جداً بالحكمة الخالدة التي تبعث من الشرق»[٩].

الإصرار على أن المنطق والوحي يمكن التوفيق بينهما له جذوره العميقة في الفلسفة الإسلامية، خاصة في تقليدها الفارسي. هذا التقليد، كان الإمام موسى الصدر قد تعرض له. «الدين والعلم توأمان بالفطرة»، قال الإمام موسى في محاضرة أخرى: «هما يقرران مصير الإنسان وكماله. فالعلم دون تكلف فلسفي أو تحديد منطقي، هو ضياء لكشف الواقع ولمعرفة الحقيقة، والحقيقة هي فعل الله وأمره، فالعلم طريق طبيعي لرؤية آثار الخالق وتزداد

(٩) الإسلام وثقافة القرن العشرين، سالف الذكر صفحة ٦٧ - ٦٨.

معرفة الخالق بازدياد العلم».

«العلم أيضاً بمعناه العام أي بما يشمل الفلسفة، أداة لكشف حقيقة الكون وحقيقة الإنسان وارتباط الإنسان بالكون وبالموجودات ودور الإنسان في العالم وفي الحياة وفي الكون... وفي أيام الصبا ودور الطفولة كان للدين والعلم مصير مشترك كالولادة، فقد ابتلى الدين والعلم بأمراض مشابهة «الأساطير والخرافات»؛ نتيجة ذلك «ضلّ الإنسان في متاهات الجهل وصحاري الضياع». ودفعت الإنسانية الثمن؛ أما التاريخ فكان سلسلة مآسي. بعدئذ «بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس، ولكي ينقذ الإنسان من هذا الليل المظلم ويطلق سراحه من السجن الضيق الذي صنعه بنفسه لنفسه وسجن فيه دينه وعلمه أيضاً... حرّر (الأنبياء) الإنسان من أوهامه وتفاسيره الخاطئة عن الكون والحياة وحطموا أصنامه الطبيعية... وفُك الحصار عن العلم المسجون وانطلق بجرأة دون تعقيد أو تخوف في السير في الآفاق والأنفس وفي اقتحام الموجودات وإجراء التجارب فيها ومعرفتها واخضاعها له». وهذا ما يفسر الحقيقة أن ذات المناطق الجغرافية في العالم - بلاد الإغريق ومصر وبين النهرين وإيران - كانت مواقع الإزدهار العلمي. ثم «مضت مدة وقضي حين من الدهر وجاءت أيام المحنة، محنة الظلم من الأخ لشقيقه وظلم ذوي القربى أشد ضراوة. جاء دور طغيان الدين وبتعبير أدق طغيان أهل الدين حيث استغلوا الدين لتجميد العلم واخضاعه لسلطانهم الواسع وحصره بكتب القدامى التي أكسبها القدم قداسة. قالوا إن حقائق الكون كلها قد اكتشفت بواسطة السلف وإن كل جديد انحراف وضلالة. قالوا إن القول بكروية الأرض أو حركتها كفر والحاد».

«قالوا هذه ونظائرها وكفروا رجال العلم وأحرقوهم واستتابوهم بعد المحاكمة والتعذيب إنهم تجاوزوا حدودهم وخلقوا جموداً في أشرف إنتاج

للإنسان وأوقفوا سير التاريخ ما أمكن أن يقف التاريخ».

«إن العهد كان يحمل طغياناً منهم على العلم وعلى كل شيء، وظلماً على العلم وعلى كل شيء وقد ظلموا الدين أيضاً حيث جمدوه ومنعوا من إنتاج ديني جديد».

«ثم عادت الكرة وانعكست المأساة. فما أن وصلت القرون الوسطى إلى قرب نهايتها حتى بدت في الأفق علائم الإنتقام والتعدي المعاكس والثار».

«ثار العلم وثار لكرامته المجروحة فحطم أبواب السجن الذي صنع له باسم الدين وبدأ يعتز بنفسه ويحتقر الدين جذلان مسروراً، سكران من خمرة الإنتصار على شقيقه ومكمله. انتقم العلم من الدين وتنكر له وتجاهل دوره إطلاقاً في الحياة واعتبره سداً يمنع التقدم وقيداً يجب كسره وصنماً من الضروري تحطيمه «على حد تعبير بيكون».

«تنكّر العلماء للدين فاعتبروه أيضاً عدواً لكل ثورة اجتماعية وكل تغيير عميق في حياة الإنسان واتهموه بحماية المكاسب الظالمة والثراء غير المشروع وبتهدئة المظلومين ومنعهم من ممارسة حقوقهم...» .

«جاء القرن العشرين وهدأت أعصاب العلم، ازدادت تجربته، اصطدم أكثر من ذي قبل بالحقيقة، شعر بالعجز عن اسعاد البشر وحده، أحس بالغربة، وصل إلى نتائج لم يكن يحسبها، تجلت بوضوح مظاهر الشقاء للإنسان وامتلأ العالم بمآسي الحروب والظلم والإنحراف وهكذا نرى أن العلوم وفروعها هي مخلوقة للإنسان ولا يمكن لها أن تصبح خالقة للإنسان. فمهما تقدمت وازدهرت وتفاعلت مع الإنسان، لا يمكن للإنسان الذي صنع العلم والفلسفة والحقوق والأخلاق أن يسجد أمامها بعد الصنع وأن يركن إليها وأن يعبدها من دون الله، فالعلم ونظائره وسائل وآلات بيد الإنسان،

تبدأ مع الإنسان، وتتبع مع الإنسان وتستند على الإنسان»(١٠).

الإمام موسى الصدر كان قد فهم البلد الجديد الذي جاء إليه، حيث كان الشيعة حثالته. المعرفة الواسعة التي عُرضت أمام حضور عصري كانت جزءاً من إغراء طائفة سريعة التأثر. ومن خلال بعض النقاط الحساسة في المذهب الشيعي خطا الإمام موسى بتأنٍ. في مقدمة كتاب للمستشرق الفرنسي هنري كوربان حول الشيعية الإيرانية، حدد الإمام موسى الصدر تفسيره الخاص لعقيدة الإمام المنتظر:

«هذه الفكرة أساسها الشعور الفطري للإنسان الذي يدفعه دائماً ومن دون توقف إلى الأفضل في جميع حقول معرفته وميادين حياته مقنعاً إياه أنه يستمر في الصعود. إلى مدارج التكامل ويتقدم دائماً وأن تجاربه الدائمة قد تعكس انعكاساً مؤقتاً سرعان ما يعود عنه ولو بلغ عمر الإنتكاسة عشرات السنين أو أكثر». هذا الإيمان في الإمام المنتظر لتخليص العالم عزّز «الإستعداد العقلي لرجال يتلقون الدعوة للعدالة»(١١). أُعطيت العقيدة وظيفة فعّالة. وامتنع موسى الصدر عن الدفاع عن الفكرة التي انطلقت في وجه المنطق. لكنه سار على خط رائع: لم تكن هناك حاجة لرفض الفكرة. ظهور الإمام الثاني عشر لم يكن نوعاً من ظاهرة خرافية، مصير الناس أن يشاهدوا فيها نوعاً من أعجوبة عظيمة. كانت إيماناً يخرج من الاضطهاد والحرمان السياسي. رجل الدين صاحب الرؤية العصرية، كان يعرف أن الناس كانت تشكك في الإيمان، وأنه لم يعد كافياً للأوصياء على المؤسسات الدينية الإعلان عن أن بعض النقاط في العقيدة هي مقدسة وغير قابلة للنقاش. الأئمة الإثني عشر، قال السيد موسى، كانوا مرشدين ومصادر الإلهام. لكن التاريخ لم يتوقف معهم. يجب على الناس الإستمرار في الحياة

(١٠) الدين والعلم، محاضرة كتبت سنة ١٩٦٧ ونشرت في مجلة الإسلام، صفحة ٨١- ١٠٣.
(١١) راجع موسى الصدر مع «المعلم كوربان»، العرفان عدد ٥٤ - ١٩٦٦، صفحة ٢٠٢.

وفي صنع تاريخهم الخاص.

موسى الصدر كان يعرف عمق الشعور المعادي لرجال الدين بين المحامين وموظفي الدوائر الحكومية والرأسماليين، الذين شرع هو في مشاركتهم في مجهود سياسي تحت زعامته الخاصة. استبق ذلك الشعور، وأعطى تعبيراً له بنفسه. أدان باستمرار رجال الدين الذين تزلفوا أمام السلطة ورجالها. إبن آية الله، كان عنده شيء ما يقوله حول مهنة رجال الدين التي جذبت العديد من رفاقه البارزين: يجب علينا، قال موسى الصدر، تحطيم الحلف الثلاثي الذي يجمع الحاكم الجائر الذي يُسمّي نفسه ظل الله، رجل الدين الإنتهازي الذي يسمّي نفسه أمين الله، ورجل الدين الفاسد الذي يُسمّي نفسه آية الله. الإنسان، قال السيد موسى، اختنق من هذا الحلف الثلاثي؛ لقد أصبح أسير سيف الحاكم، أسير رغيف الخبز، أسير الظلامية الدينية.

هل كان هذا فقط فصلاً بارعاً، رجل دين يضع نفسه على الجانب الصحيح من التشكك، يُروّج لميول عدد قليل من رفاقه الذين كانوا مطلعين سراً على مثل هذه الأفكار؟ لا نملك وسيلة لمعرفة ذلك بصورة مؤكدة. الواضح هو نجاح القراءة المتطرفة للإيمان والتهجّم على رجال الدين التقليديين. في مناقشات مع أتباعه المقرّبين، لمح موسى الصدر إلى أنه «في ظروف معينة» الإجهاض مسموح، وأن المرأة المسلمة تستطيع أن تتزوج رجلاً مسيحياً على أن تبقى هي ضمن العقيدة؛ كما أنه كان يشكك في ما إذا كان تعدد الزوجات في الحقيقة هو مسموح به حسب فلسفة القوانين الإسلامية. وكشف إلى أحد أصدقائه المقربين أن والده، آية الله صدر الدين الصدر، كان عنده شكوك مشابهة حول تعدد الزوجات.

آراء جريئة نُشرت في شكل تساؤلات وأفكار تجريبية. رجل دين، جعل من نفسه شريكاً للشكوك والتحقيقات الدينية لفئة صغيرة من الناس

العادين. سبق للفلسفة الإسلامية أن أنجزت هذا الأسلوب! الإيمان، الكتب المقدسة والإلهام كانت ميادين الأمة، المنطق والتساؤل كانا من شؤون النخبة. الفلاسفة المسلمون، الذين تعرفوا على الحضارة اليونانية، لكنهم عاشوا في حضارة مرتكزة على الإيمان والوحي، كانوا قد تابعوا سياسة الكلام الخادع الذي يلجأ إليه الناس في الأنظمة السياسية والإجتماعية التي تتطلب الإنسجام. العقل الفلسفي سُمح له أن يتجول بحرية، وأن يتساءل. لكنه أبدى الإجلال للعقيدة التقليدية، وعمل بالسر عندما كان عليه أن يفعل ذلك. كان يُعتقد أن النخبة من الفلاسفة تستطيع أن تتحمّل الشك، تعيش معه، لكنها مع ذلك تحافظ على توجّه أخلاقي؛ كانت الجماهير بحاجة للإيمان، بحاجة لأن تبقى في الخط المرسوم، وإلاّ سيتمّ قهرها وضياعها[١٢].

شيءٌ ما من هذا التقليد ـ تشاؤمها بالنسبة للجماهير، ثقتها في المقدرة على النقد لدى القلّة ـ كان موجوداً في سلوك موسى الصدر.

المعتقدات التي تبنتها الجماهير التقيّة لم تنتهك، لكن أولئك الذين كان عندهم شكوك تمّ طمأنتهم بأساليب ماكرة، وشارك في شكوكهم رجل الدين العصري. كان موسى الصدر يدعو الناس إلى مسعى سياسي جديد. الأفكار كانت السلاح. وما كان مهماً هو التأكيد على أنه ليس هناك أي شيء ارتدادي بالفطرة أو محكوم عليه بالفشل حول التقاليد الدينية أو الأوصياء عليها.

السيد موسى تغاضى عن التقاليد بجرأة غير مألوفة لرجال من ماضي مهنته الدينية. كان محطّ إعجاب النساء، اللواتي أُعجبن بمظهره وأناقته، وكن مسرورات لأنه لم يتوجب عليهم الخروج بسرعة من غرف المجالس والإجتماعات عند وصول موسى الصدر، كما كن يفعلن مع علماء الدين الأكثر محافظة. وكما هو لائق لرجل العباءة الدينية، امتنع موسى الصّدر عن

(١٢) الرد الإسلامي على الامبريالية، عباءة النبي ﷺ، العلم والسلطة في إيران العصرية، ميمون الدشتون، نيويورك ١٩٨٥.

مصافحة الأيدي مع النساء، وكان مساعدوه ومرافقوه يحذرون مسبقاً النساء المسيحيات، اللواتي كن سيجتمعن به، بعدم المحاولة في مصافحته. لكن حتى هذا التحريم كان يتم انتهاكه بين الحين والآخر. إحدى النساء التي اعترفت أنها إنجذبت إليه، وأنها تقريباً وقعت تحت تأثيره، مدت في إحدى المرات يدها إليه لمصافحته، فأخذها بين يديه الإثنتين قائلاً: ليس من المفروض أن يفعل ذلك، وأنه كان يفعل ما لا يجب أن يفعله، ولن يفعل ذلك مرة ثانية.

التقاليد الشيعية، غالباً محدودة ونوعاً ما إنفعالية حول المسموح وغير المسموح، وجدت في موسى الصدر تجسيداً جذاباً، أحد السياسيين الذي كان يتكلم حول لقائه مع موسى الصدر، بعد مرور بضع سنوات على الحدث، انضمّت إليه زوجته في الكلام وقالت: السيّد، الإمام، كان يحترم النساء اللواتي كانت لهن مكانة في فكرته حول معنى الإصلاح الإجتماعي.

التقاليد، حيّة ومفعمة بالنشاط، ومتجددة من قبل رجال حريصين على تغيير وتحسين أنفسهم، ولكنهم يفعلون ذلك من ضمن العقيدة. هذه التقاليد كانت لها أجوبتها الخاصة على المتطلبات العصرية: هذه كانت رسالة موسى الصدر. ومن هذا الإطار قبل موسى الصدر تحدّي الأفكار الماركسية لليسار اللبناني. كان البعض من أتباعه الأول رجالاً أغنياء، ملتزمين الحفاظ على ما كانوا قد كدّسوه. وكان رجال الدين المسنون في البلد قد ألصقوا تهمة الإلحاد باليساريين والأفكار اليسارية معتقدين أن ذلك وحده كان كافياً. موسى الصدر كان أذكى، وحاسته السياسية كانت أكثر تطوراً؛ كان يعرف أن البلد كان يتغيّر، وأنه كان يجب على الفرد أن يقدم أجوبة «عصرية». أكثر. «الحتمية الإقتصادية»، كما قال في إحدى المحاضرات، «قدمت نظرة مزيفة وجزئية للتاريخ الإنساني». الإنسان في الحقيقة، كان إنتاج بيئته الخاصة. لكن البيئة كانت أكثر من مجرد مجموع القوى الإقتصادية. كان يوجد أيضاً

«عوامل دينية وحضارية». لهذا السبب الرجال المولودون وفقاً لذات الطبقة الإجتماعية الإقتصادية، قال السيد موسى، يُظهرون أحياناً رؤية عقائدية معادية.

روبرت أوين، الذي كان يعتبر واحداً من الشخصيات الرئيسة للماركسية في العالم. كان رأسمالياً يملك ممتلكات ضخمة. أوين هو الذي جاء بفكرة تحديد عدد ساعات العمل، وأعلن أن عمل الأولاد غير شرعي. فعل ذلك أوين دون أن يكون ابن البروليتاريا (طبقة العمال)... لا نستطيع أن نتجاهل دور الحركات الوراثية، الدينية، والروحية في صنع التاريخ. ومهما حاولنا، فإننا لا نستطيع اعطاء تفسير مادي للنبي محمد ﷺ وحركته دون أن نحدث خراباً للتاريخ... لأن حركة النبي ﷺ لم تكن مجرد حركة إقتصادية، إنما هي حركة أخلاقية مع مضمون للإقتصاد، للمجتمع المدني»(١٣).

من غير المؤكد إذا كان هناك أكثر من عدد قليل من أتباع موسى الصدر، يعرف عن روبرت أوين. العبرة ليست في ذلك، بل في بروز شيئين: الرؤية العصرية لرجل الدين الذي يتكلم باسمهم؛ وشعور الرجال ذوي الثروة الجديدة الذين كان عندهم جوابهم الخاص الذي أعلنه رجل صاحب مهنة وسلالة مقدسة، على الأحزاب اليسارية، على الشيوعيين الشباب في الطائفة الشيعية الذين كانوا يؤكدون بوقاحة أن حق الملكية هو سرقة. العالم العصري كان هنا مع أفكاره ومخاطره؛ ويستطيع الناس أن يتجاوبوا معه، يتعلموا مرادفاته وأساليبه، ومع ذلك يبقون كما هم. هذه كانت الرسالة التي وجّهها رجل الدين الحاذق الذي يتكلم عن «الديالكتيك» (المناقشة عن طريق الحوار)، عن الفرضية ونقيضها للتوصل إلى تركيبة جديدة تجمع بين الإثنين. وهذه كانت الإصلاحات التخريبية التي أرعبت طائفة خجولة كانت بالكاد تبدأ بالتخلص من انعزالها الزراعي، من خوفها

(١٣) الأيديولوجية، محاضرة ألقاها موسى الصدر، نُشرت في بيروت من قبل حركة أمل.

من التدليس، ومن شعورها أن كل شيء جديد كان منذراً بالخطر وملوثاً بشكل عميق.

الرحلة التي قام بها السيد موسى الصدر إلى أوروبا سنة ١٩٦٣، والتي أغضبت المتزمتين من رجال الدين، بررها في الأسلوب القديم لعلم الدفاع عن العقائد المسيحية لدى العصريين. «أوروبا»، قال السيد موسى، «مع كل خيرها وشرها، هي مستقبل هذا الجزء من العالم. فقط في ضوء معرفتنا بأوروبا نستطيع التوصل إلى منهج صحيح ونستطيع أن نتعلم مواجهة الدمار الذي خلفه الغزو الأوروبي»(١٤) كان من الممكن أن يأتي الجواب مباشرة من جدلية جمال الدين الأفغاني قبل قرن؛ كان التغيير مطلوباً وإلاّ لغرق الإسلام في العالم الخارجي، وأي شخص شارك في تلك الحضارة الساحرة هناك، كان يتعلم أساليبها لكي يُحضِّر عالم الإسلام لهجوم الغرب.

جدول الأعمال السياسي لموسى الصدر انبثق من الطريقة التي فسر بها العقيدة. لم تكن العقيدة حول الشعائر، ولكن حول الشؤون الإجتماعية وحاجات الناس. لم يكن الدين شيئاً يجب عزله في الحجر الصحي وإبقاؤه طاهراً من قبل أوصياء صارمين؛ بل يمكن جعله لمواجهة المتطلبات العصرية. لذلك لا يحتاج رجل الدين أن يختبيء ويشغل نفسه كلياً بالشعائر والكتب القديمة. الطموح السياسي ـ الشيء الذي أثار استياء رجال الدين التقليديين الذي هو ميدان ملوّث من الجشع والرغبة المجردة ـ لم يجزم به السيد موسى في العلن، ولم ينكره. لو جزم به، لكان السيد موسى خسر مقياس نكران الذات الذي كان بحاجة إليه كرجل دين لو أنكره جملة وتفصيلاً، لكان عليه تكييف نفسه مع تقوى وهدوء قديم العهد لرجال الدين الشيعة في البلد. سياسيو الأسلوب القديم، الذين استاءوا من عبير «ورعه»،

(١٤) ما نقله الإمام موسى الصدر من كتاب «الشيعة على المفترق» تجيب جمال الدين، بيروت ١٩٦٧، صفحة ٧٥.

الذين أرادوا تطييره في العراء وأن يصنعوا منه مجرد مرشح آخر للسلطة، مجرد مستفيد آخر من المكتب الثاني (جهاز مخابرات الدولة اللبنانية)، لم يستطيعوا أبداً حشره في الزاوية. كذلك لم يستطع رجال دين الطائفة المسنين، الذين أرادوا منه أن يتقيد بحدود وقيود مهنته. رؤية موسى الصدر كانت رؤية أكثر تطرفاً. كان البشير لحركة سياسية دينية، رسمت الحدّ بين الدين والدنيا. كان «قديساً»، لكن ورعه كان من نوع خاص. كان جزءاً من هذا العالم؛ كان ورعه، بشكل أسمى، طموحاً بينما ظاهرياً ينفي الطموح. وفقاً لمقاييس عصره ومكانته، كان ورع الإمام موسى الصدر مؤيداً للتعديل، سعى لإرجاع الدين إلى الساحة السياسية والإجتماعية. لكن كان هناك، بعيداً عن الأضواء، تصوير شيعي وإسلامي، أقدم بكثير ومن المحتمل أنه أكثر شرعية، الذي أخضع عالم السياسة لعالم النظام الديني. البكوات الذين كانوا يراقبون رجل الدين الشاب واقتحاماته لعالم السياسة، ويرون فيه الرجل الذي يهاجم النظام السياسي، كان عندهم حساباتهم الخاصة؛ لكن رجل الدين الطموح لم يكن مقيداً بها ولم يسعَ إلى مواجهة مكشوفة مع الأوصياء على السلطة في الطائفة الشيعية. ذلك حدث في العقد الثاني من مهنته. وما فعله في العقد الأول كان النضال من أجل مكانة له في البلد، لتأسيس شهرته، وجعل تفوقه وتفانيه يتكلمان عن نفسهما، وجمع نواة من الرجال الشيعة حوله، يتمتعون بالمكان والثروة.

موسى الصدر حفر في آبار عميقة من الطموحات والطاقات البشرية ـ والإستياءات بعد مرور أقل من عقدين من الزمن على استقلال البلد، كانت مجموعة جديدة من أهل الفكر الشيعي ـ محامون، موظفو الدوائر الحكومية، وأطباء ـ وبعض الرجال ذوي المال الجديد، يجاهدون مع الإنعزال القديم العهد. لم يكونوا بشكل خاص تقاة. شيعتهم كانت مسألة هوية وحضارة؛ المجتمع الذي عاشوا فيه، مركب من نظام طوائف وعشائر، لم يسمح بأي

التباس حول مثل هذه الأمور. ولم يكن يتوجب على أي شخص يسعى إلى تنظيم هؤلاء الرجال تذكيرهم بهويتهم الطائفية. كانوا ويستطيعون فقط أن يكونوا شيعة. وهكذا توجّه رجل الدين إلى هذا الخليط من الأذى والطموح الذي ولّده النظام السياسي والإجتماعي اللبناني في هؤلاء الرجال الذين هم في الثلاثينات وبداية الأربعينات من أعمارهم، معظمهم معاصرون له. كان النجاح قد أخذ البعض منهم إلى ما وراء حدود أسلافهم المسنّين، إلى ما وراء الخطوط المرسومة التي كانت قد احتوت حياة آبائهم. غامروا إلى ما وراء أسلافهم المسنّين، واكتشفوا كأمثالهم في أي مكان: أن هويتهم من الصعب رميها، أن الأبواب موصّدة في وجوههم، وأن الآخرين ليسوا متلهفين جداً لأخذهم حسب جدارتهم.

كلاهما، الرجال ذوي المال الجديد والشيعة المثقفين حديثاً، الذين التفوا حول موسى الصدر، كانوا رجال مجتمعهم. لم يكونوا ثوريين. لقد جاؤوا من النظام الإجتماعي الذي من خلاله كانوا يحاولون أن يشقوا طريقهم. شاركوا أيضاً هاجس البلد التراتبي، الإمتياز، والتفوق المتميّز. موظفو الدوائر الحكومية الذين عملوا مع موسى الصدر، الذين انجذبوا إليه، أرادوا حصة منصفة أكثر من غنائم الدولة لطائفتهم ولأنفسهم طبعاً. والرجال الذين كانوا قد كسبوا المال في ظروف صعبة أرادوا الإعتراف والتقدير لثروتهم.

الجهود الأولى للإمام موسى الصدر لم تطلب أو تلمح لتغيير مفاجىء وكبير في النظام الاجتماعي. رجل الدين كان شخصاً منظماً، اشتغل بمادة مثيرة. استخدم، على نحو أفضل، الطاقات الشيعية التي أطلقتها الثقافة والثروة الجديدة، لكن رغم ذلك بقيت هذه الطاقات تفتش عن طرق لجعل الناس تشعر بوجودها. سنوات قليلة قبل وصول الإمام موسى الصدر إلى لبنان، كان بعض أصحاب المهن الشيعية في بيروت ـ أطباء، قضاة وموظفون

في ادارات الدولة، رجال يشعرون بالولاء نحو أقاربهم الفقراء ـ كانوا قد شكلوا هيئة تعرف باسم هيئة النضال الاجتماعي، للتعبير عن الاستياء والمطالب الشيعية. تلك الهيئة لم تذهب بعيداً جداً؛ فقد بقيت الهيئة صغيرة وغير فعالة. لكن كما في أوضاع أخرى مشابهة، تمّ زرع بعض البذور واكتسبت بعض الخبرة. العديد من الشخصيات البارزة في هذه الهيئة الصغيرة أصبحوا فيما بعد من بين الرجال الذين منحوا تأييدهم لرجل الدين، الذي في أواخر الستينات جعل ممكناً ولادة المجلس الشيعي الأعلى، أول منبر للإمام موسى الصدر في لبنان[١٥].

كان يوجد «متسعاً تحت خيمة السيّد» لمجموعة متنوعة من الرجال، قال أحد رفاق الإمام موسى الصدر الأول. كان تحالفاً واسعاً سعى إليه رجل الدين من أجل المتزمتين السياسيين. ويذكرنا هذا التحالف بتلك التي شارك فيها أو شكلها رجال الدين الإيرانيين في أواخر القرن التاسع عشر. ومن هذا التحالف بالذات جذبت محاولة الإمام موسى الصدر طبقة عريضة من الرجال والمصالح. تمّ الترحيب حتى بعناصر الحكم السابق في الطائفة الشيعية إذا كانوا نسبياً «ذوي معرفة»، إذا كانوا يرغبون في المساعدة وإذا كانوا حاذقين كفاية ليدركوا أن مصالحهم الخاصة يمكن تأمينها على نحو أفضل من خلال حركة تؤمّن لشيعة لبنان معاملة أفضل من الدولة. وأعطي المجال للرجال الأغنياء.

كان الشيعة الأغنياء الجدد أشخاصاً شديدي الانفعال وغير ودّيين. صفة الانفعال كانت ملازمة لحياتهم. كانوا طموحين من أجل أنفسهم وأولادهم وطائفتهم. العديد من الرجال، الذين عملوا مع الإمام موسى الصدر، كانوا قد كسبوا ثرواتهم في افريقيا؛ عدد أقل منهم كان قد نجح اقتصادياً في شبه الجزيرة العربية. هذه الفترة الوجيزة من حياتهم كانت قد

(١٥) مجلة الشراع، بيروت، ١٦ كانون الثاني ١٩٨٤، صفحة ٢٠-٢٤.

أعطتهم فكرة إيجابية حول الترابط الإنساني. ركزوا على كيفية وصولهم إلى والجزء الداخلي، في سيراليون وليبريا، على الصعوبات التي قهروها. نظرتهم للحياة الاجتماعية كانت نظرة قاسية، داروينية. المؤسسات الخيرية والجمعيات الطوعية التي أسستها بيروت الغربية (السنّية) البورجوازية والمروضة لم يكن لها مرادف في الطائفة الشيعية. الذي غاب، أيضاً عن العالم الشيعي كان التماسك العشائري والتضامن المذهبي الموجود عند الدروز. كان الشيعة الأغنياء الجدد قد أخذوا معهم إلى البلاد البعيدة المثل القاسي لوطنهم: «معك قرش، بتسوى قرش». في نظرهم، اللقاءات الإنسانية كانت بمثابة معارك. رجل الدين المهتم في بناء مؤسسات، في جعل هؤلاء الرجال يتخلّون عن بعض ثرواتهم، كان ينتظره عملاً.

أدرك موسى الصدر معضلة الشيعة الأغنياء، خاصة الأكثرية منهم الذين كانوا قد نجحوا اقتصادياً خارج البلد وعادوا. كانت الثروة الشيعية عاجزة عن التعبير: لم يكن عندها قنوات من أجل المشاركة أو التعبير السياسي. ومع وجود حاسة ذكية إزاء مأزق الشيعة الأغنياء، برز الإمام موسى الصدر الناطق باسمهم. قصدهم في الخارج وسافر إلى البلاد التي كانوا يعملون فيها، إلى نيجيريا، غانا، ساحل العاج، ليبريا وسيراليون. طلب منهم المساعدة المالية. لكن كان عنده ما يقدّمه بالمقابل: عبّر عن مطالبهم واستيائهم المبهم. «زهرة شباب الشيعة»، قال الإمام موسى، رحلت عن البلد إلى أماكن بعيدة. لقد كافحوا ونجحوا إقتصادياً، وفعلوا ذلك دون حماية الدولة. وكل ما ارادوه من هذا البلد، هو معاملة عادلة. لقد برهنوا عن جدارتهم في البلاد البعيدة؛ بالتأكيد، يجب أن يكون عندهم اساس متين في بلدهم الخاص.

أشار أحد المحامين الأذكياء، الذي يعرف مزاج هذه المجموعة من مؤيدي الإمام موسى الصدر، إلى أبعاد أخرى لتقبلهم رجل الدين. هؤلاء

الرجال اعتبروا أنفسهم كمحافظين لبعض التقاليد المقدسة والدائمة، هذه التقاليد التي كانوا يميلون لجعلها مثالية. فبعد أن أمضوا من عشر إلى عشرين سنة خارج لبنان، عادوا مع شعور واعٍ (بالحقيقة قلق) بالتراث الشيعي وفقاً لأساليب البلد والعشيرة. كانوا بشكل خاص سريعي التأثر بالزعيم الذي جسّد التاريخ الشيعي، نشر رموزه، وناشدهم باسم الحقائق القديمة. كانت الحقائق إلى حدٍ بعيد مغرية لأن البلد كان يتغيّر، لأن هؤلاء الناس وأولادهم كانوا يفقدون سيطرتهم على الماضي وعلى «الأساليب القديمة».

لم ينتقد الإمام موسى بعنف لا شرعية الثروة. التبرعات كانت مطلوبة. وكانت الثرورة نعمة، لقد تمّ طمأنتهم. لكن كان على الثروة أن تكون حذرة ومسؤولة، أخلاقياً واجتماعياً. وحتى تلعب الثروة دورها، كان يجب تحويلها إلى سلطة سياسية واجتماعية. لهذا توجّه موسى الصدر بالنداء إلى غرور الشيعة الأغنياء، وإلى شعورهم المرير بأن المال لم يجلب في أعقابه السلطة السياسية والاجتماعية للشيعة.

من هذه الأسباب كانت الانطلاقة الأولى لتأييد الإمام موسى الصدر. حتى أن تشكيك زملائه رجال الدين بأنه ربما كان يفتش عن الحقيقة المطلقة نادراً ما أزعجت مؤيديه. فالعديد من هؤلاء الرجال كان عندهم شكوك حول العقيدة، حول الأساليب الحرفية والتقليدية التي تمّ فيها التفسير. وطالما أن العقيدة كانت مسألة تعليم وكانت حكراً على رجال الدين التقليديين، كان على الرجال الجدد انتظار فرصة ملائمة؛ كان عليهم أن يحتفظوا بشكوكهم لأنفسهم. موسى الصدر قدم بديلاً جديداً مرغباً: الايمان نفض الغبار عنه، خفض القيود وزاد الاتصال مع العالم. ومن حول الإمام موسى الصدر، استطاع الرجال تغيير أنفسهم، تحسين وضعهم الخاص ووضع طائفتهم، دون ان يتمّ نعتهم بالكافرين. كان البديل في الإيمان للعالم المقهور

الذي وافق عليه وعبّر عنه رجل الدين التقليدي. «السحر» كان أيضاً مهماً لهذه المجموعة: أسلوب وجرأة وثقافة رجل الدين الشاب كان لا غنى عنها في تعامل الإمام موسى الصدر مع الرجال الذين تعلموا بأنفسهم والذين كانوا قد حصلوا على وظائف في ادارات الدولة، ومع الرجال الأغنياء الجدد، مموّل الشيعة.

ثلاثة من رفاق الإمام موسى الصدر المهمين والمقربين - إثنان منهم في حقل السياسة، ورجل أعمال مموّل وصفوا ما شاهدوا في رجل الدين عندما دخل حياتهم، وقالوا لماذا تبعوه.

محدثي الأول، سياسي، كان رفيقاً مقرباً من الإمام موسى الصدر من بداية الستينات حتى اختفائه سنة ١٩٧٨. كان السياسي دون الثلاثين سنة من عمره عندما التقى برجل الدين. وُلد من عائلة ذات منزلة وسلطة في وادي البقاع؛ من السيّاد، الذين تفاخروا في نسبهم، وفي جذورهم الشيعية. لكن كانوا أيضاً عشيرة مشهورة اعتقدت أن السياسة والسلطة شأن يخصّ الرجال المناسبين. كانوا واحدة من العائلات العريقة في البلد. كان عم هذا السياسي من أبيه، وزيراً في ثلاث حكومات شُكّلت في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات، ونائباً في مجلس النواب عن قضاء جبيل، منطقة تضم خليطاً من الشيعة والموارنة. والده، كان رجلاً يتمتع بنفوذ كبير ومكانة اجتماعية في البقاع، محامي حصل على شهادته الجامعية من جامعة دمشق، رجل من النوع الذي افتخرت به العشائر لكونه بينها. كان وسيط سلطة، رجل مستقيم وطيب السمعة. ركن من أركان طائفته، رجل من النوع الذي لجأ إليه الناس المتخاصمون من أجل إنهاء نزاعاتهم، رجل عهد إليه اصدقاء وهم على فراش الموت بثرواتهم للاهتمام بأطفالهم. لقد كان هذا الأب وصياً على أحد السياسيين من الروم الكاثوليك المتواجدين في وادي البقاع. غير أن الوالد توفي عندما كان ابنه ولداً؛ كان الوالد يُفضّل أن يعتني بابنه رجلاً من

طبقته، يتمتع بذات قيم الشرف، الحسب والنسب. تمّ تربية السياسي الشاب في تقليد من الالتزام والثقة بالنفس. كان في جميع النواحي عضواً في المؤسسة، رجلاً كيّسا وأنيقاً، منفتحاً على الطوائف الأخرى في البلد، متحرراً من الحدّية الشيعية وعدم الثقة بالنفس.

يتذكرّ السياسي الشاب أنه حزم أمره حول موسى الصدر في طريقة معبرّة وبسيطة جداً. الشيء الأول الذي لاحظه حول رجل الدين عندما قابله كان نظافة عمامته وقبته، أناقة مظهره، نظافة حذائه، «كان أول رجل دين اجتمع به، ينتعل حذاءً نظيفاً». رغم أن السياسي متحدّر من عائلة سيّاد ذات منزلة وادعاء ديني، احتقر علماء الدين المسنّين؛ احتقر الطريقة التي كسبوا فيها المال، الطريقة التي تذلّلوا فيها أمام رجال سلطة، الخطب المبهمة التي ألقوها، لكن فوق هذا كله، ملابسهم البالية، القبات المهترئة، والأحذية القديمة، مرة كل سنة في عيد الفطر، كان والد السياسي يرغمه على زيارة أحد الأقارب الأكبر سناً الذي كان موظفاً دينياً شيعياً كبيراً في البلد. فعل السياسي ما كان يُطلب منه. الزيارات لقريبه عرفته على علماء دين آخرين من طائفته. ومن تلك الزيارات كان يعود دائماً مع احتقار لحديث علماء الدين ومع يأس حقيقي حول صفاتهم الشخصية وطريقة مشيتهم وجلوسهم ولباسهم.

معاد للشيوعية وتقي ومساند للنظام الاجتماعي وقلق من تحوّل الشيعة إلى تطرف، كان محدثي يائساً من مقدرة علماء الدين على مواجهة الأفكار العصرية، ومواجهة تحدّي اليسار. في مرحلة مبكرة من مهنته السياسية، قبل انتخابه نائباً، كان رئيس بلدية مدينته في البقاع، يتذكر لقاءات ميؤوس منها مع علماء الدين؛ يتذكر بشكل خاص رجال الدين وهم يقفون في مناسبات دينية وسياسية للتهجّم على العقائد الماركسية وعلى الدعوة الشيوعية. في العديد من هذه المناسبات، كان السياسي الشاب مرغماً على مطالبة رجال

الدين باختصار الخطب. كان السياسي يعرف أن ذخيرة دينية افضل كانت مطلوبة لمواجهة التحدّي المتطرف. كان الاسلوب الديني القديم مماثلاً «لسلاح القرون الوسطى» في مواجهة المدفعية الحديثة للسياسة الجديدة. كان يعتقد، أنه في كل مرة تكلم فيها رجل الدين ضد الشيوعية في مثل هذا الاسلوب البليد، كان يقدم خدمة لتلك الايديولوجية؛ كان يثبت على أن التراث لم يكن يملك قوة أو أجوبة خاصة به.

السياسي الشريف النسب لم يكن يفتش عن مرشد ديني عندما التقى الإمام موسى الصدر. لكن عندما اصبحا يعرفان بعضهما البعض، باشرا في بحث سياسي سرعان ما أصبح حجر الزاوية للمهنة السياسية لمحدثي. خارج نطاق السياسة، كان رجل الدين قد أثر بشكل حيوي جداً في الشخص الشريف المعتدل الموزون. قدوة والتزام رجل الدين كانت قد أعطت هذا الرجل السياسي البرهان على أنه لم تكن هناك دواع «لرفض التاريخ الشيعي أو رميه جانباً» لكي يدمج شيعة لبنان أنفسهم في النظام السياسي في البلد.

في معرض حديثه عن رجل الدين - عن «الإمام الصدر» كما يشير إليه - يعتقد السياسي بوضوح أنه تمّ تكريمه بشيء خاص، إن شخصية عظيمة دخلت حياته وغيّرتها في نواحٍ عميقة. الإمام الصدر، يقول السياسي، كان نظيفاً في ناحية مهمة أخرى: كانت يده نظيفة، كان نظيفاً مع المال. لم يكن جشعاً، وكانت احتياجاته المادية متواضعة. حتى بعض التبرعات المالية التي أعطيت له لصرفها على أغراض شخصية تمّ تجييرها إلى المؤسسات والجمعيات الخيرية التي كان قد أسّسها». كان السياسي يعرف بلده، ويعرف أن السلطة في لبنان كانت تسعى لتكديس الثروة، وتخزينها. اعتدال رجل الدين في الأمور المالية أكسبت اعجاب السياسي الشاب. الثروة، يقول السياسي، لم تكن من أهداف «الإمام»: لقد كان رجلاً شعبياً مع جدول أعمال عام تخطى الطموحات الشخصية والدنيوية.

ما كان أكثر تأثيراً في هذا السياسي حول رجل الدين، هو سلوك الإمام موسى الصدر أمام «الفئات العصرية»، اللقاءات السياسية والاجتماعية المختلطة وذات الطابع الديني، في مدينة بيروت. أراد السياسي أن يجلب الشيعة إلى الاتجاه السائد في لبنان. أرادهم أن يكونوا «متقدمين» وكما كانت الطوائف الأخرى. رغم أنه لم يقلها أبداً، كان يعتقد أن العادات والمؤسسات الشيعية كانت مصابة بالخلل، وأن وضع الشيعة في البلد، لم يكن فقط نتيجة مخططات مارونية أو سنيّة. لقد كان ذلك التوق إلى التغيير في النفسية والوضع الشيعي الذي جمع السياسي ورجل الدين معاً، تحالفهما كان تحالفاً طبيعياً: رجل سياسي ذو نسب شريف، ورجل دين ذو مهنة وسلالة مشهورة. والمسألة لا تحتاج إلى تخيلات كبيرة لترى أن هذا السياسي لم يكن ليلتف حول رجل دين عادي. كان طبعه الارستقراطي منع مثل هذا الاختيار. كونه ركّز على تاريخ عائلة الصدر، من الواضح أن السياسي رأى في رجل الدين تعبيراً عن أفضلياته وإحساسه الخاص به.

المثل الثاني حول فئة الرجال الذين انجذبوا إلى الإمام موسى الصدر هو محامٍ مولود في أواخر الثلاثينات، رجل من جيل محدثي الأول. لكن المحامي كان حاملاً رسالة تقليد مختلفة. في حين أن محدثي الأول وُلد في رأس المجتمع اللبناني، ولد الثاني في سيراليون، ابن تاجر صغير - واحداً من «المستعمرة» ذات الغالبية السكانية من اللبنانيين الشيعة الذين كانت قد أبعدتهم عن لبنان مواردهم المادية المحدودة وقطع الأرض الصغيرة.

الهجرة إلى سيراليون التي أخذت عائلة المحامي وآخرين من جنوب لبنان كانت قد بدأت في بداية هذا القرن. قصة الهجرة كانت قصة غريبة: وصل الرواد الأول إلى أفريقيا الغربية بالصدفة. كانوا في طريقهم إلى العالم الجديد، أو هكذا اعتقدوا. لكنهم اكتشفوا في مرسيلية أنه ينقصهم المال والشهادات الصحية الضرورية. إفريقيا الغربية عُرضت عليهم كخيار من

قبل عملاء عديمي الضمير في مرسيلية. كان ذلك أفضل شيء يستطيعون فعله، لا يقدرون على العودة إلى البلد القاسي الذي تركوه خلفهم، إلى الأقارب الذين يصدرون الأحكام. في سيراليون، اشتغلوا كبائعين صغار متجولين «للسبحات» المرجانية، بعدئذٍ عملوا كوسطاء بين المستعمرة الأوروبية والمزارعين الأفارقة. لحق بهم لبنانيون آخرون ـ أقارب وأصدقاء، الماس، الذي تم اكتشافه في بداية الثلاثينات في سيراليون، جلب مزيداً من اللبنانيين الراغبين في المشاركة في الربح المفاجيء.

كانت سيراليون، مكان ولادة المحامي في سنة ١٩٣٨، مركزاً استعمارياً صغيراً. وقد وصفها غراهام غرين ـ بما فيها من حياة وقلق ومكائد المستعمرة اللبنانية ـ في كتابه، «رحلة بدون خرائط» وفي القصة الخيالية الفخمة التي كتبها «جوهر الموضوع». عاصمة سيراليون، فري تاون، حيث عاشت وعملت عائلة المحامي، كانت «مركزاً تجارياً قديماً، تُرك ليتعفن على الشاطيء»، «منظراً للانحلال». اللبنانيون الذين كانوا هناك عاشوا مع حلم الخلاص والعودة. كان بلدهم القديم قد طردهم. لكنهم كانوا يريدون الدخول إليه ثانية، العودة إليه، تحت شروط أفضل.

رفيق الإمام موسى الصدر هذا كان قد تمّ إحضاره إلى لبنان في وقت مبكر بعد ولادته. كولد، تعلّم في مدينة بنت جبيل، «العاصمة» الإقليمية الصغيرة لمنطقته في الجنوب اللبناني، قبل أن يستقر في بيروت. بنت جبيل، كما ذكرت، كانت ملاذاً للأيديولوجية السياسية للقومية العربية المتمثلة بحزب البعث. والبعث كان أول قصة غرام سياسية في حياة المحامي. إنضمّ إلى الحزب كرجل شاب، اختيار نموذجي لشيعي من أمثاله. كان وقتاً قبل مجيء السياسة الطائفية ذات الوعي الذاتي.

في بداية الستينات، تسجل البعثي الشاب في الجامعة اللبنانية التي تديرها الدولة، ليدرس القانون. أغلب الظن كان الأول من عشيرته يذهب

إلى جامعة. كان نشيطاً في السياسة الطلابية، رجل شاب متدفع. (حتى بعد عقدين من الزمن، عندما أصبح بدون شك رجلاً ناجحاً، ظهر في تكراره المستمر لحسابات وأوجاع قديمة، غضب القادم الجديد، والشعور الشيعي بالحرمان والاضطهاد). نشاطه السياسي في الجامعة اللبنانية استرعى انتباه رجل الدين. وكما يتذكر المحامي، كانت مبادرة الإمام موسى الصدر في لقاء الرجلين معاً. وكعادته عندما يكتشف موهبة في الطائفة الشيعية، استدعى الإمام موسى السياسي الشاب الناشط، بعد أن شاهده يُدلي بتصريح في برنامج تلفزيوني.

إقترب المحامي من رجل الدين بتحفظ وبعض التردد. قال المحامي الناشط إنه كان دائماً يفضّل الابتعاد عن علماء الدين الشيعة، كان يشك إذا كان هو والسيد موسى عندهما أي شيء مشترك. عندما اجتمعا، وقف بينهما شيء أكثر من ابتعاد المحامي عن رجال الدين؛ لقد كانت أيضاً قوميته العربية التي اكتسبها من شعارات وكتب حزب البعث. في معرض ذكرياته للقائهما الأول، يتذكر المحامي أسئلته للإمام موسى الصدر حول سبب مجيئه إلى لبنان من إيران. إيران كانت في ذلك الحين مُحرّمة على الشباب من أمثاله؛ كانت مرتبطة بالشاه، بمخابرات الشاه، السافاك، وبسياسات الشاه المنحازة لأميركا. أجاب رجل الدين على السؤال بجواب ربما كرره مئات المرات في بلده الجديد وبعدئذ في البلاد العربية التي زارها فيما بعد في أواخر الستينات بعد أن اشتهر وحصل على مكانة أكبر: قال إن أجداده كانوا من الجنوب اللبناني، إنه «عاد» إلى بلد أجداده ليخدم طائفته. أراد المحامي معرفة رأي رجل الدين في جمال عبد الناصر: بالنسبة للمحامي، هذا كان اختبار حاسم لمعرفة الاتجاه السياسي للشخص. قال رجل الدين إن الرئيس المصري هو «شخصية عظيمة»، وإنه يتطلع بلهف للاجتماع به في زيارة مقررة إلى القاهرة.

لم يكن هناك أي شك في عقل المحامي بأن موسى الصدر كان رجلاً ذا مواهب خاصة. لكنه لم يُسقط «تحفظاته» حول ولادة رجل الدين الإيرانية أو ابتعاده المتأصل عن علماء الدين. هذا الرجل كان شاباً طموحاً. كانت لا تزال بعيدة الاحتمال فكرة حركة طائفية، حركة شيعية يقودها رجل دين، ويكون لها أي أمل في السياسة اللبنانية. حزب البعث ربما يكون محكوماً عليه بالفشل في لبنان. لكنه كان حزباً من العالم العربي الأوسع، وكان الحزب الذي باستطاعة الشباب الشيعة، الراغبين في تجاوز الرجال المسنين، تكريس أنفسهم له.

في أية ظروف إذن ألقى المحامي نصيبه وقرعته السياسية مع رجل الدين؟ يتذكر المحامي حادثاً حسم الأمر بالنسبة له، وأقنعه أنه كان يوجد شيء ما له في المشروع السياسي الذي أطلقه الإمام موسى الصدر. ألقى رجل الدين خطبة في إحدى الكنائس في بيروت، عمل جريء ومبدع. كان المحامي متأثراً. ذلك التصرف الخاص شكل تغييراً حاداً جداً في انعزال وجبن مؤسسة رجال الدين الشيعة، لدرجة أنه بعد ذلك، كان ممكناً لرجل شاب، له طموحات سياسية، أن يرى أنه رغم كل شيء ربما يكون هناك مستقبل لرجل الدين هذا في السياسة اللبنانية. بعد مرور عدة سنوات، في سنة ١٩٦٩، وعندما حصل الإمام موسى الصدر على موافقة رئيس الجمهورية ومجلس النواب لتأسيس المجلس الشيعي الأعلى، بذل المحامي الشاب محاولة للحصول على منصب من الاثني عشر منصباً، المتاحة للناس العاديين في اللجنة التنفيذية للمجلس. لم يفز في تلك الانتخابات، لكنه بقي ضمن الحركة السياسية للإمام موسى الصدر. وكانت تلك الحركة هي التي جلبت له فيما بعد قطعة من سلطة البلد.

كان حزب البعث مخرجاً من قيود الأساليب القديمة، بداية في عالم السياسة، محاولة لإعطاء التاريخ معنىً خارج انفعالات ونزاعات العائلات

والعشائر. لكن سياسة البعث في لبنان كان محكوم عليها بالخيبة. حركة سياسية - دينية من الأقارب ورجال الإيمان، كانت أفضل مركبة لمحامي طموح ذي جذور متواضعة. العائلة والطموح، بعض المال الذي تمّ كسبه في مكان بعيد، والاندفاع الشخصي كان قد جلب إلى هذا المحامي وعياً حول الإمكانيات، وشعوراً بالانتهاكات والتجاوزات. وهو يتذكر الفترة بعد الانتهاء من كلية الحقوق عندما كان في الحقيقة مقتنعاً أنه تمّ إهمال طلبه لمنحة حكومية للدراسة في فرنسا لصالح متخرج مسيحي. قدم دعوى استئناف ضد القرار، حاربه، وكسب. شيعة لبنان، كان مقتنعاً، كانوا مثل السود في أميركا. تلك المقارنة بقيت معه من بداية الستينات بعد قيامه برحلة قصيرة إلى أميركا للمشاركة في إحدى مهرجانات مارتن لوثر كينغ. كان يعتقد أن «الحقوق المدنية» للشيعة في لبنان قد تمّ إدانتها، السلطة الأخلاقية للإمام موسى الصدر، الوعد الذي قطعه في حشد الجماهير الشيعية اللامبالية، كانت هي الأشياء التي أقنعت هذا الشاب الطموح.

المحامي كان بالكاد رجل تقوى ومعرفة دينية. كان جزءاً من التاريخ والحضارة الشيعية دون أن يكون بشكل خاص رجل دين. كان شاباً وممثلاً للعديد الآخرين من جيله، الذين حملوا عبء التاريخ الشيعي حتى دون أن يكونوا مطلعين عليه في العمق، ذلك التاريخ لا يمكن دفنه تحت الراية البعثية، ولا يمكن التخلّص منه من خلال دورة في كلية الحقوق في جامعة تديرها الدولة. كانت الثقافة قد فتحت مجالات جديدة. لكن أبواب البلد، الأبواب المهمة، كانت تقريباً موصدة بوجهه كلياً. حتى فرص العمل الصغيرة كانت تراقب بعناية. الرجال الذين عبروا الأبواب كانوا قد دخلوها كمسلمين سُنّة، كمسيحيين أرثوذكس، كموارنة، كشيعة، وهكذا دواليك. حافظ البلد على مسار هذه الأمور، كان دقيقاً حول مثل ذلك التصنيف، وحرّر الرجال من وهم الجامعة، علمهم عدم جدوى محاولة الهروب من مطالب الطوائف المتنافسة.

محدّثي الثالث، وهو من فئة الرجال الذين قبلوا زعامة الإمام موسى الصدر وأعطوها زخماً، رجل أعمال مموّل نشأ على أرصفة مرفأ بيروت المعروفة بخشونتها. كانت عائلته ـ التي أتت من المنطقة النائية الجنوبية ـ واحدة من العائلات الشيعية الأولى التي ازدهرت اقتصادياً في بيروت. بالعودة إلى العشرينات عندما كانت العائلة قد أسست نفسها في المدينة، وكسبت بعض الثروة في مضاربات الأراضي، لم يكن يوجد أكثر من ألف شيعي في كل المدينة، حسب تقدير هذا الرجل. (كان دقيقاً، لأن الإحصاءات المتوفرة قدرت عدد سكان الشيعة في بيروت في العشرينات حوالى ألف وخمسماية شخص من أصل مئة وعشرين ألف نسمة)[١٦]. رجل الأعمال المموّل هو أكبر سناً بقليل من المحدثين السياسيين الاثنين. عندما وُلد، كان والده قد حصل على حصة له في مرفأ بيروت. مشروع ليس بصغير، لكنه محاولة تتطلب «رجولة» وخشونة وجميع تلك الصفات المقولبة التي يتطلبها عمل مرفأ. النشاط فيه حر نسبياً وفي مدينة يكثر فيها المسافرون العابرون والتجارة. الثروة على أرصفة المرفأ جاءت للرجال الذين كانوا يؤمنون حماية فعلية لهم، الذين كان عندهم رجال لمراقبة تفريغ السفن وحراستها، والذين كان عندهم الدعم والقوة السياسية في الأوساط الحكومية المؤثرة. هذا هو العالم الذي كان قد عرفه رجل الأعمال المموّل، ومن الواضح أن هذا العالم رسم طبعه: فهو يعطي تعابير الولاء، «الرجولية» والشجاعة، صفات الجدّية والاستقامة التي ربما تميّز بها العالم الذي عرفه عندما كان ولداً.

يتذكر رجل الأعمال المموّل بيروت أيام رجولته الشابة، أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات، كمدينة صعوبات وإذلال للشيعة. يتذكر الأوقات عندما أُغلقت الجوامع في وجوههم، عندما كانوا غرباء محتقرين في

(١٦) التجار والنازحون في بيروت القرن التاسع عشر، ليلى طرزي فوّاز، دار نشر «هارفارد»، ١٩٨٣، صفحة ٥٠.

المدينة. «كان علينا» يقول في لغته المعبّرة الخاصة، «دفع ضريبة دم للبقاء في المدينة، وتحمّل الإذلال».

حالة العداء جاءت إلى هذا الرجل بطريقة طبيعية. برزت من المحيط القاسي الذي عمل فيه هو ووالده، جاءت من التناقض بين الثروة التي امتلكوها والإهانات الاجتماعية التي تحمّلوها. هناك لهجة شيعية واضحة يتكلّمها رجال المنطقة النائية الجنوبية، تنغيم خاص يكشف الشيعة. الرجل الشاب الذي تربّى في المدينة أصرّ في عدة مناسبات على التحدث بلهجة أنسبائه الشيعة بدلاً من اللهجة الشائعة في محيط المدينة. هذه كانت طريقته في تحدّي المدينة، في القول إنه لم يكن يتوجب عليه أن يخجل من كونه شيعياً، لم يكن يتوجب عليه إخفاؤها عن الآخرين.

الفقر في المنطقة النائية الشيعية، الذي رحّل الناس عن الأرض، جلب النازحين الشيعة الخائفين إلى معقل عائلة رجل الأعمال المموّل، إلى منزله في المدينة. جاءوا يطلبون المساعدة من رجل مؤمن. «كانوا خائفين»، يقول رجل الأعمال المموّل، في معرض تذكره النازحين الذين جاءوا إلى بيروت في أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات. ويصف موقف والده نحوهم أنه كان «وفائياً» و«أبوياً».

تلك كانت البيئة التي حدّدت عالم هذا الرجل ـ وعالم والده. كانوا شيعة، ولكنهم كانوا من سكان المدينة. لم يكن عندهم أي اعتذار لتقديمه حول أصلهم، لكنهم كانوا يقظين بألم لأساليب المدنية بالابتعاد والتمييز. كانوا يملكون الثروة ويأمرون الرجال ويصرفون الأموال، لكن كان يوجد تناقض بين المدى البعيد الذي كانوا قد قطعوه وبين مكانة طائفتهم ومذهبهم في المدينة. والد رجل الأعمال المموّل، رجل غني، وهب من ثروته إلى الجمعيات الخيرية وإلى الفقراء. هذا الشيء كان يفعله الشخص بسبب التزامه الديني ومكانته الاجتماعية، بسبب سمعته ومكانته. سهم الأمام،

(حصة الأمام، تبرع مالي يُقدم إلى المؤسسة الدينية) كان جزءاً من ذلك الكرم والالتزام.

كانت توجد علاقة قديمة بين والد رجل الأعمال المموّل ومرجع التقليد في النجف، المرجع الأكبر السيد محسن الحكيم. هذه العلاقة كانت قد توطدت من خلال الرسائل والزيارات، وعن طريق التبرعات المالية إلى المرجع. إحدى الرسائل من السيد محسن الحكيم كانت قد قدمت الإمام موسى الصدر الشاب إلى دار واهتمام هذه العائلة التي كانت تكن شعوراً لطيفاً نحو المجتهدين وعلماء الدين.

أحد أعضاء العائلة كان قد ذهب إلى النجف من أجل دراسات دينية، لكن مهمته كانت قد توقفت بسبب وفاة قبل الأوان. ولهذا كان الطلاب الدينيين الشبان ورجال الدين موضع ترحيب من قبل العائلة، لأنهم كانوا يذكرون بالطالب الشاب الذي فقدوه. موسى الصدر، الذي جاء مع رسالة تعريف من النجف كان موضع ترحيب بشكل خاص. الرسالة التي جاءت من النجف وصفت تاريخ وسلالة رجل الدين الشاب. طلبت الرسالة من والد رجل الأعمال المموّل تقديم يد العون إلى القادم الجديد، «فتح الأبواب له»، والعناية به. إطمأن الرجل، الذي كان قد بنى منزلة رفيعة له ولابنه في عالم شديد التنافس، إلى أن أعمال الخير والتفوق كانت مقدرة لرجل الدين الشاب هذا، وأنه لن يخيب آمال اولئك الذين وقفوا إلى جانبه.

محدثي، رجل مغرور بنفسه وبمظهره الخاص، كان قد أخذ ذات الإنطباعات التي كوّنها الآخرون عن السيد موسى الصدر: الوجه الوسيم، الأناقة، القامة المطلّة، من خلال وصفه ـ المركز جداً على القسمات الجسدية، على عيون رجل الدين الخارقة، على هيبته، على وقفته «الكاملة» وميزاته الجسدية ـ كان من السهل المعرفة أن رجلاً عادياً، أقصر قامة، أقل ثقة بنفسه

وبتأثيره على الآخرين، يواجه وقتاً صعباً في إقناع حكم قاضي الشعب الذي لا يؤخذ بالعاطفة.

رجل الأعمال الممول وصف نفسه برجل لا يؤمن بالأقوال، بل بالأفعال، رأى «جدّيته» واندفاعه الخاص به في رجل الدين. كان متأثراً بأن الإمام موسى لم يكن عنده كثير من أوقات الفراغ أو أوقات لجلسات طويلة من القيل والقال. في معرض سبر عقله حول الذي جذبه إلى موسى الصدر، قال «بالنسبة للسيّد، العمل كان عمل». «الارتباطات الشخصية»، أضاف، «لم تكن بارزة في عالم السيد موسى. استخدم مواهب أولئك في الطائفة التي احتاجها، لكنه تفادى ورطات شخصية»، المراقب الغير العاطفي رأى في رجل الدين بعضاً من شعوره الخاص، على أن المهمات العاجلة كانت أهم من الولاء، وأنه في هذا البلد الصغير النزاعات والورطات تجرف الأهداف الأكبر جانباً.

رجل الأعمال المموّل، الرجل المتميز من لبنان مع هاجس البلد «بالأناقة» «والموضة»، وماديته المتفشية والوقحة، إختار بشكل خاص تصرفاً معيناً من تصرفات رجل الدين الذي جذبه: عندما حان الوقت لايجاد مبنى للمجلس الشيعي الأعلى، إختار الإمام موسى الصدر بناية أنيقة ومهيبة في إحدى الضواحي المشرفة على مدينة بيروت. أحسن الإمام الاختيار! كانت بناية، قال رجل الأعمال المموّل، جديرة «بالطائفة»، الطائفة الشيعية، وطموحاتها. تبرع رجل الأعمال بسخاء إلى هذا المشروع. البالة والبساطة لم تكن له. كان يعرف وكذلك رجل الدين الذي اختار البناية، أن السلطة يجب أن يكون عندها زخارف. إن أدنى فلاح شيعي أو ساكن مدينة الأكواخ كان يريد مكاناً مهيباً لايواء المؤسسة الرئيسة للطائفة، وجدت الطائفة المضطهدة قيم لبنان مغروسة بوضوح في هذا المبنى.

كان رجل الدين يعرف كيف يجعل الأشياء تنفذ؛ ذلك أيضاً جذب

رجل الأعمال العملي هذا. ربما الموهبة الخارقة تكون قد أثرت في المزيد من النفوس الحساسة والسريعة التأثر في الطائفة الشيعية. لكن الموهبة الخارقة وسلطة الإمامة لم تكونا لهذا الرجل. كان رزيناً وصارماً أكثر. كان يتعيّن على الموهبة الخارقة اعطاء الدليل الملموس عن سلطتها.

كان من السهل القول إن هذا المحدِّث لم يكن مصاباً بلمعان النجوم ولم يقف بخشوع أمام تراث عظيم. كان عنده «تحفظاته» حول رجل الدين. لم يحددها. كانت توجد تلميحات ـ تلميحات مفادها أن النجميّة أفسدت الإمام موسى الصدر عندما اعترضت طريقه، وأنه كان يميل لينسى الناس الذين كانوا بجانبه خلال «السنوات الأولى العقيمة». علاوة على ذلك، كان الإمام موسى، قال رجل الأعمال المموّل، «يكتنفه الغموض» أحياناً، ولا يمكن لأي شخص أن يعرف ماذا كانت «لعبته الكبرى»، ربما كانت إيران بالنسبة له أهم من لبنان. لكن جميع هذه التحفظات كانت بمثابة «مياه تحت الجسر»، قال المول، «ولم تكن تهمّ على أي حال» الذي كان يهم، قال، القضية الشيعية. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، كان السيد قد قدم «مساهمة تاريخية».

إعتقد المموّل أن الخوف كان يكمن في جذور المعضلة الشيعية في لبنان. الإمام موسى، قال، ساعد الناس على التخلص من ذلك الخوف، ويعطي المموّل رجل الدين الفضل «بقلب التاريخ الشيعي في لبنان رأساً على عقب». ما قبل الإمام موسى، قال، كان الشيعة الشباب إما خائفين من مواجهة أي شخص أو كانوا «اذيال»، واتباع الأحزاب اليسارية. «الأحزاب أضلّتهم؛ تلك الأحزاب، أيضاً، كان لها بكواتها وباشاتها الخاصة بها، اسيادها وملاكوها». كانت الأحزاب تبيع كلمات فارغة، قال، كلمات لم تطعم أو تأوي أي شخص. «كان يتوجب علينا استرجاع شبابنا؛ بدون شك السيد فعل هذا لنا».

البلد، قال المموّل في معرض وصفه لبنان، كان عنده «أبناءه المدللين». «ونحن كنا أولاد الزواج السابق المرفوضين في البلد» (أولاد الجارية). «كان يوجد في صفوفنا الرجال الضعيفو الشخصية حاولوا تدبير أمورهم على طريقتهم، الذين تزوجوا نساء بيروتيات، الذين لن يتنازلوا للاعتراف في جذورهم. نحن لم نستطع الإستمرار في تلك الطريق. كان علينا تنظيم حركة الإمام موسى الصدر الذي كان الرجل المثالي ليقوم بهذا العمل».

مدينة بيروت كانت قد اسست رجل الأعمال المول. أعطته الموارد المالية، وحرمته اعترافها الكامل، بالنسبة لهذا الرجل، موسى الصدر والحركة التي قادها كانوا الأداة لتصفية حساباً تاريخياً.

ثلاثة رجال مختلفين بادراك سياسي متباين. الأول، رجل ذو سياسة تقليدية، كان يريد شيئاً ما ظاهرياً بسيطاً ومحافظاً؛ كان يريد شعب طائفته أن يكونوا كما كان الآخرون. الثاني، شخصية أكثر شعبية، كان يريد حركة سياسية تعطي الفرصة لرجال مثله ذوي أصل متواضع وطموح لا يلين. الرجل الثالث كان يكنّ ضغينة عالقة ضد مدينة كانت وطناً ولكن سلطتها كانت في أيدي رجال آخرين.

عبقرية رجل الدين ـ تلك صفة الرجل المتعدد الشخصيات والمواهب التي جعلت ناقديه يشككون بإخلاصه ـ كانت مقدرته على قيادة حركة استوعبت طموحات هؤلاء الرجال والآخرين مثلهم. الإمام موسى الصدر وقف على أكتاف رجال يتمتعون بأطباع وأهداف متباينة.

في أواسط الستينات كان الإمام موسى الصدر قد أصبح اسماً وقوة يُحسب لها حساب. المشروع الذي شنّه لتخليص مدينة صور من المشردين كان قد نجح. مدرسة التدريب المهني كانت قد بدأت في الإنطلاق. لكن

وراء هذه الإنجازات الملموسة، كان يوجد وعد رجل الدين، مقدرته المتزايدة على التعبير عن رغبات وطموح الشيعة. وبشكل متزايد، إلتفّ قادة الرأي حوله.

حضارة ريفية، حتى الحضارة التي كانت مؤخراً مبعدة عن البلد، هي حضارة حافلة بالهذر واللهو، الشهرة تنتشر؛ الإنجازات الصغيرة تتحوّل إلى أساطير؛ وإداء مميّز نوعاً ما من قبل رجل الإيمان أمام تجمع من المسيحيين و«البيروتيين» يُسرد كنوع من ملحمة برهن فيها رجل الإيمان للمرة الأولى وإلى الأبد تفوق التراث الشيعي، قصص من هذا النوع مع زخرفتها كانت تخصص في السابق لرجال البلد الكبار، للبكوات، موسى الصدر أصبح المادة لمثل هذه القصص.

في وقت ما في بداية سنة ١٩٦٥ جلبت الشهرة إلى دار الإمام موسى الصدر في صور زائراً غريباً: كامل بك الأسعد، الحاكم المطلق الإقطاعي في جنوب لبنان. كان كامل بك في ذلك الحين في ريعان شبابه، صارماً وواثقاً من نفسه. هو والإمام موسى الصدر كانا شخصين معاصرين: البك، المولود في سنة ١٩٢٩، كان فقط سنه أصغر من رجل الدين. والد كامل بك، أحمد، البك العجوز، كان قد توفي قبل سنتين؛ الرجل الشاب كان الآن متروكاً لتدبير أموره لوحده، انتخابات سنة ١٩٦٤ كانت قد أعطته ولائحته الإنتخابية تقريباً انتصاراً ساحقاً في الجنوب؛ الزعيم الشاب كان قد أمن انتخاب احد عشر نائباً إلى برلمان وطني يضم تسعة وتسعين نائباً. في سنة ١٩٦٤ كان قد تمّ انتخابه إلى أعلى منصب شيعي في البلاد، منصب رئيس المجلس النيابي.

الاجتماع بين رجل الدين والزعيم الاقطاعي حضره أحد نواب كامل الأسعد، عضو شاب انتخب حديثاً للبرلمان عن إحدى مناطق الجنوب اللبناني. انتهى الاجتماع إلى مأزق: الرجلان «طوقا بعضهما البعض»، قال

عضو البرلمان، كان البك قد جاء ليرى إذا كان ممكناً اختيار رجل الدين الصاعد كزميل جديد؛ كان قد جاء ليرى بنفسه «ظاهرة موسى الصدر»، البك الشاب، واعي جداً ذاته أنه رجل المدينة والعالم، لم يتوجب عليه أبداً أن يزعج نفسه مع رجال دين من قبل؛ ربما كان الراعي ويتنازل في التعامل معهم، مفترضاً تفوقه الخاص وخضوعهم، لم يمر وقت طويل في هذا الاجتماع حتى ادرك البك أنه كان يتعامل مع «شخص مختلف». البك، أفاد الشاهد لهذا الاجتماع، «انسحب في قوقعة» وتمّ وضع الأساس للعداوة بين الرجلين التي استمرت محتمدة لغاية اختفاء الإمام موسى الصدر في ليبيا[١٧].

هذا البك وعدة بكوات أقل شأناً رأوا وراء بروز رجل الدين مؤامرات ومخططات أجنبية: «أكثر من علامة استفهام»، قال كامل بك، حامت فوق الإمام موسى، علامات استفهام حول الناس وراءه «هنا وفي الخارج». تلميحات الصلات الأجنبية كانت الممارسة القاعدة في بلد كان مسرحاً لجميع أنواع الدسائس والمخططات العربية والأجنبية. كل شخص كان يشك بالآخر أنه ذو صلة أجنبية أو أخرى، لكن الإمام موسى الصدر بشكل خاص، مرة ثانية وثانية، جذب مثل هذه التأويلات. الولادة الإيرانية، اللغة العربية المفرسة، الطموح الواضح، المظهر الملفت للنظر - كل هذه الصفات أوحت إلى نوع من مخطط أو هدف خفي.

البكوات القدماء ردّوا على رجل الدين بأساليب كانوا فيها أسياداً، في سنة ١٩٦٦، حملة تشويه السمعة دبرها في الخفاء أحد السياسيين القدماء في لبنان الجنوبي، كاظم بك الخليل. استأجر خدمات امرأة في صور، كانت مستعدة لتسجيل تصريح يخبر عن علاقة جنسية غير شرعية مع الإمام موسى، والنشاط الجنسي لرجال الدين كان دائماً موضع شك وتلميحات.

(١٧) هذه الحادثة وصفها شاهد الاجتماع ممدوح العبدالله، نائب سابق، في مقابلة مسجلة، تشرين الأول ١٩٨٤.

وإشاعات العلاقات الجنسية، غير الشرعية، كانت إحدى الأساليب التي يمكن من خلالها الهزء من رجال دين مستقيمين أخلاقياً واظهارهم أنهم أنذال تحت المظهر الكاذب للإستقامة، تحت اللباس الديني والعمامة، كان الناس العاديون دائماً متلهفين ليروا الشهوة والاجازة الجنسية. هذه كانت الحالة هنا. وبالنسبة للبعض، السحر، والمظهر الملفت للنظر للإمام موسى جعل القصة أكثر تقبلاً، بالتأكيد رجل يتمتع بمثل هذه الجاذبية الجسدية، اعتقد اخصامه، كان فريسة للاغراءات الجنسية.

الخطّة أعطت عكس النتائج المرجوّة. عندما تمّ العثور عليها، أعلنت المرأة توبتها وتراجعت عن قصتها. الرجل المتزوج، الذي كان قد قدم صورة دقيقة ومن وحي الضمير عن نفسه، كان مستقيماً مثلما كان ادعاؤه، لقد تعرّض رجل الدين إلى محنة وخرج منها سالماً.

الآن وبما أنه كان واثقاً أكثر من نفسه ومن محيطه الجديد، بدأت خطب الإيمان للإمام موسى الصدر بإفساح المجال بوضوح أكثر لمواضيع سياسية واجتماعية. ومن الممكن التقاط أثر ذلك في البرقيات الدبلوماسية. خلال تلك السنين «موظف دبلوماسي» أميركي زاره في شهر تشرين الأول سنة ١٩٦٦. أثناء المناقشة «مدح» الموظف الدبلوماسي الصدر على جهوده ببناء مركز تدريب مهني في صور. وجد الزائر البناية «كاملة بشكل واسع... صرح مثير للاعجاب». الأموال، قال رجل الدين، جاءت من الحكومة، ومن «رجال الأعمال الشيعة». استفسر الزائر حول ما إذا كانت الصناعة الخفيفة ممكنة في الجنوب. رجل الدين لم يعتقد ذلك؛ الشيء الأكثر الحاحاً، قال الإمام موسى، هو «مكننة الزراعة». العائلات تُفصل وتنهار بسبب الوضع في الريف؛ «الشباب مرغمون على الذهاب وإلى مناطق المدينة وإلى أفريقيا». «المشاكل الاجتماعية» التي نشأت كانت ضخمة. هناك مشاكل صحية بين السكان «من الممكن الحدّ منها من خلال عناية طبية في الوقت

المناسب». لكن قرى ومدن الجنوب كانت بدون تسهيلات طبية. بعد ذلك جاء دور أحد المواضيع المتكررة للإمام موسى الصدر:

«الإمام الصدر بعد ذلك شدّد على أنه بالنسبة إليه العنصر الأكثر خطورة في الوضع كان الرؤية السيكولوجية للطائفة الشيعية نفسها. قال إنه بعد سنوات عديدة من الاهمال من قبل الحكومة، كان الجنوب قد أصبح منطقة كئيبة ليس فقط مادياً إنما أيضاً سيكولوجياً. كزعيم ديني لطائفته، قال الإمام الصدر إنه شعر مرغماً بضرورة استعادة القيم الروحية لشعبه ولإعطائهم شعوراً باحترام الذات. قال الإمام الصدر إن هذا العنصر السيكولوجي ربما كان النتيجة الأكثر كآبة للأوضاع الإجتماعية والإقتصادية الفقيرة السائدة في الجنوب»[١٨].

إحدى البرقيات الدبلوماسية بعد سنة تعطي رجل الدين اعترافاً أكبر: «الصدر»، قالت البرقية، «يصبح تدريجياً القائد الرئيس والمقبول لشيعة لبنان. هو رجل ذكي جداً يعمل بنشاط على مشاريع تربوية واجتماعية للطائفة الشيعية. وهو ينال الكثير من الإحترام، بين الطبقات الأكثر فقراً، هو تقريباً شخصية ذات موهبة خارقة»[١٩] في هذا التقرير وفي غيره من التقارير الدبلوماسية الأميركية لهذه الفترة، يقوم رجل الدين كمنافس لجمال عبد الناصر، حصناً ضد النفوذ الناصري في الطائفة الشيعية في لبنان. التركيز على ابتعاده عن التيار الناصري يُظهر، جزئياً، اهتمام أولئك الذين يرسلون البرقيات. كانت الناصرية الهاجس الشرق الأوسطي لأميركا في أواسط الستينات. أحد الموظفين السياسيين الدبلوماسيين، الذي كان يشق طريقه من خلال سياسة لبنان المتشابكة، أبقى في ذهنه العناصر الناصرية والعناصر

(١٨) برقية السفارة الأميركية في بيروت، ٢٣ تشرين الأول ١٩٦٦، ملف وزارة الخارجية الأميركية رقم ٤٣٠.

(١٩) برقية السفارة الأميركية في بيروت، ٣ تشرين الثاني ١٩٦٧.

المناوئة لها. لكن وراء هذا كله كان هناك أكثر من ردود الفعل المشروطة للدبلوماسيين الأميركيين. الإمام موسى الصدر وبرنامجه الشيعي لم يكونا جزءاً من نفوذ ووجود القاهرة في لبنان. كان للقاهرة مستفيدوها، عملاؤها والموالون لها في البلد، لكن الإمام موسى الصدر لم يكن واحداً منهم. «كانت عندنا تساؤلات خطيرة حوله»، قال محمد حسنين هيكل، صديق جمال عبد الناصر، في معرض تذكره لرأي القاهرة في رجل الدين. «كانت توجد إشاعات حول علاقات الإمام موسى الصدر مع شاه إيران وأمثاله. السياسيون اللبنانيون جاءوا إلى القاهرة: أخبروا عن بعضهم البعض، بسبب ما كان يقال عن موسى الصدر، أخذنا موقفاً مُريباً وفاتراً منه». في النهاية ذهب رجل الدين إلى القاهرة، لأنه لم يشأ، كما قال هيكل، أن «يُترك خارج البازار». لكن التحفظات والشكوك بقيت [٢٠].

• منذ بداية سعيه السياسي، الإمام موسى الصدر كان عنده مشروع سياسي خاص به، غير أن هذا المشروع لم يمكن توفيقه بسهولة مع تصاعد التأييد الناصري في لبنان. ومن المؤكد أن السيّد قدّر الحماسة التي ولدتها الناصرية في البلد. كان يعرف أن العديد من الشباب الشيعة وأمثالهم، الذين كانوا يفتشون عن مخرج من الإنعزال وسياسة العداوات والتفرقة، انجذبوا إلى التصور القومي المصري لجمال عبد الناصر؛ وبدون شك اعتبر الإمام موسى الصدر القاهرة كمدينة عظيمة للعالم الإسلامي. لكن جغرافيته (العقلية) كانت مختلفة عن خريطة القومية العربية لتلك السنوات التي كانت القاهرة محورها. التوجه نحو إيران والعراق، عن طريق سوريا، كان الإتجاه الذي نظر إليه. وُلد وتربّى في تقليد مجد أهمية بلاد فارس والعراق. غير أنه لو حاول المزايدة على القوميين العرب والناصريين المتحمسين في بيروت وأولئك من بين صفوف الفلسطينيين لكان لحق به هزيمة ذاتية. كان رجلاً

(٢٠) مقابلة مع محمد حسنين هيكل، كانون الثاني ١٩٨٤.

فخوراً وحاذقاً أكثر مما ينبغي لأن يحاول مثل هذا الشيء. كان يعرف أن القومية العربية في لبنان والهلال الخصيب ما هي إلاّ غطاء للحساسيات والحضارة السياسية السنّية. وربما كان يعرف، غيباً تاريخ النزاع الشيعي - السنّي في العراق الذي قاد والده على طول الحدود إلى إيران قبل سنوات قليلة من ولادته.

رجل دين شيعي يغامر في عالم السياسة، الإمام موسى الصدر كانت عنده نظرة مشتركة، حول ما يجب أن يتضمنه تجمع سياسي أولي، وأي نوع من العاطفة والولاء يجب أن يرتكز عليه. كانت عنده عداوة رجل الدين المتأصلة للأحزاب السياسية؛ وهذا ما جعله منافساً طبيعياً للحركات العلمانية واليسارية. كان مجتمع المؤمنين الذي سعى الإمام موسى الصدر إلى تنظيمه وقيادته؛ وهذا ما جعله منافساً لنفوذ القاهرة في الستينات ومستفيداً من كسوفها النسبي في أعقاب حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧. كما أن التصور العقائدي الناصري أو أية ايديولوجية أخرى لم تكن لتجذب مؤيديه الأول والداعمين له مادياً ولم تكن لتقودهم. النوعان من الرجال اللذان اندفعا نحوه - الموظفون والمغتربون - كانا معادين للتعابير التجريدية - الايديولوجية والسياسة الحزبية. وهما كانا يريدان مشروعاً طائفياً ملموساً في لبنان. كان هاجس الموظفين هو الحرمان بالمقارنة مع الموارنة والسنة، أما الأغنياء الجدد فكانوا يفتشون عن دور في المجتمع اللبناني ويسعون إلى كسب احترام الناس. لذلك فإن المشروع الذي كان يشغلهم يجب أن يكون مشروعاً لبنانياً، متيناً ومألوفاً، جزءاً من طموحهم واستيائهم، ففكرة المجلس الشيعي الأعلى، هيئة مشتركة تمثل الشيعة أمام الدولة، كانت قد نوقشت قبل أن يلفظها الإمام موسى الصدر، وكانت أكثرية رجال الدين الشيعة غير متحمسة أو مندفعة لها، معتبرين أن للفكرة رائحة التورط بالسلطة والدولة. كما أنه كان هناك تنافس بين صفوف علماء الدين: إذا برز أحد المجتهدين

فوق الآخرين من خلال قنوات مثل* هذه الهيئة الرسمية، سيكون ذلك بالتأكيد مؤذياً للباقين. إضافة إلى ذلك، لم يكن يوجد مجتهد واحد قبل الإمام موسى الصدر كان عنده الجرأة والطاقة ليشق طريقه إلى ما وراء حدود قبول ومقدرات زملائه. رجل الدين الوحيد الذي تمّ منحه اعترافاً أكبر من الآخرين، الشيخ محمد تقي الصادق في النبطية، بقي شخصاً محافظاً بشكل صارم، ينظر باستياء إلى جميع أنواع النشاط السياسي. في الواقع بعد وفاته، نجحت فكرة المجلس الشيعي الأعلى في شق طريقها إلى مجلس النواب في سنة ١٩٦٧ وولدت بعد أن تمّت المصادقة عليها من قبل الرئيس اللبناني في سنة ١٩٦٩. وكان الإمام موسى الصدر أول رئيس لهذا المجلس.

كانت تركيبة وتصور المجلس، هيئة مؤلفة من عدة أشخاص بيروقراطيين، مخلصة لشعور الرجال الذين كافحوا من أجله. كان المجلس يضم ثلاثة وأربعين مقعداً في لجنته التنفيذية ـ تسعة عشر مقعداً مخصصة للنواب الشيعة في البرلمان، إثنا عشر مقعداً مخصصة للمجتهدين والموظفين الدينيين، وإثنا عشر للناس العاديين. وكانت الروح التي تحرك هذه الهيئة البيروقراطية محاولة للإستقلال السياسي والمذهبي لشيعة لبنان.

عندما تمّ تأسيس المجلس الشيعي الأعلى، كان المؤسسة المشتركة السادسة عشرة في البلد. جميع الطوائف الأخرى ـ الدروز، الموارنة، الأرثوذكس، وهكذا دواليك ـ كانت عندهم مؤسساتهم الدينية الخاصة بهم. كان الشيعة بحاجة إلى هيئة تأسيسية. السنّة في بيروت ادعوا أنهم أصحاب العباءة الإسلامية. المفتي الأكبر للجمهورية اللبنانية (أعلى سلطة وحكم ديني)، رجل دين من المؤسسة السنية، كان الممثل المفترض لجميع المسلمين. الشيعة كانوا في موقع حرج. هم متلهفون بشكل ميؤوس للبقاء ضمن حظيرة الإسلام، ومحرومون بالمقارنة مع العالم السنّي لبيروت مع استمراريته ومحاكمه ومدارسه وجمعياته الخيرية، كان الشيعة عاجزين عن إقامة نوع من الإستقلال

السياسي والمذهبي. المفتي الأكبر، مع حاشيته من تجار المدينة، الأعيان والمثقفين، كان بالكاد الرجل المؤهل لتمثيل الفلاحين الشيعة المرتدين والمتحدرين منهم من سكان المدينة. لكن ذلك كان نمط العلاقة الشيعية ـ السنّية المضطربة في لبنان.

إنشقاق حضاري ومذهبي فصل المدن الساحلية السنّية عن المنطقة النائية الشيعية. في الواقع لا توجد أية علاقة أخرى في لبنان كانت متشابكة وصعبة مثل العلاقة بين الطائفتين الرئيستين. إضافة إلى ذلك فإن الإسلام السُنّي يستطيع أن يتخذ نظرة خيرية نحو رجال من خارج الإيمان. شارك السنّة في الأساليب والمهن والرؤية التجارية في الساحل مع الطائفة الأرثوذكسية. وكانت هاتان المجموعتان قد عاشتا جنباً إلى جنب في بيروت: لقد تعلمتا على التعايش. بينما موارنة جبل لبنان كانوا الأخصام السياسيين للسنّة، لكن الموارنة كان عندهم عالمهم السياسي الخاص بهم، حقيقتهم الخاصة بهم، وجزء من البلد خاص بهم، ومع ذلك قبل السّنة وعقدوا صلحاً مع الواقع ـ أن السلطة السياسية يجب مشاركتها مع الموارنة لأنهم كانوا يملكون الدور السياسي المتفوق في لبنان. بالنسبة للسُنّة، كان الشيعة مشكلة مختلفة تماماً. الشيعة كانوا مسلمين منشقين؛ كانوا طائفة منفصلة، مدعين أنهم يمثلون الروح الحقيقية للإسلام، ويتحدثون باسم عائلة النبي ﷺ (أهل البيت) وحرمانهم. من وجهة النظر السنّية، كان الشيعة متكتمين أكثر مما ينبغي من أجل المؤاساة. الشيعة لم يكونوا «غرباء» وليس تماماً، لم يكونوا ولا يمكن أن يكونوا أقلية أخرى. بين الطائفتين، لم يكن هناك طرق سهلة يمكن من خلالها رسم خطوط وبالتالي إحترامها.

الحدّ الفاصل ما بين الريف والمدينة زاد في عمق التنافر الشيعي ـ السنّي. السنّة كانوا رجال ونساء المدينة؛ كانت عندهم أساليبهم الثابتة ومؤسساتهم. المدينة وجوامعها ومدارسها ومقاهيها كانت لهم. الفلاحون

الشيعة الذين يشقون طريقهم إلى المدينة، مع لباسهم البالي ولهجتهم المميزة، لا يستطيعون التكيّف مع المدينة. المدينة كانت تحكم على الناس، وحكمت بقساوة. كلاهما سكان الأكواخ الشيعة والطبقة المتمدنة حديثاً من الشيعة الأثرياء نسبياً كانوا إمّا متصنعين في سلوكهم عندما حاولوا أن يكونوا مقبولين أو خشنين متميزين أكثر مما ينبغي. بقدر ما كانوا يحاولون أن يتكيّفوا، كان محكوم عليهم بالإخفاق. غير أنه بين الفينة والأخرى، استطاع بعض موظفي الدوائر الحكومية الشيعة أو بعض الأطباء شق طريقه في المدينة، واضعاً ماضيه خلفه أو محاولاً ذلك. وكان يوجد مجموعات مثل هؤلاء الرجال في بيروت خلال سنوات الأربعينات والخمسينات. كانوا مكروهين و(سراً) محسودين من قبل شيعة آخرين. لكن هذا الحل لا يمكن أن ينجح مع الأعداد المتزايدة للرجال الذين كانوا يدقون على الأبواب في الستينات، ولم يكن خياراً لأكثرية الشيعة، الذين لم يكونوا يرغبون القيام بمثل هذا الأذى لهويتهم. عدد قليل منهم يستطيع أن يمر من خلال الأبواب دون أن يكتشفه أحد. لكن عدة آلاف منهم لا يستطيعون، حتى لو أرادوا ذلك.

كان على الشيعة بناء مؤسسات خاصة بهم. كانوا بحاجة للتحرر والابتعاد قليلاً عن السيطرة والحكم السنّي. تشكيل هيئة طائفية مستقلة هو الأسلوب الأوضح، والطريقة الأكثر لبنانية على النحو المشار إليه. بلد الطوائف اعترف ببلوغ سن الرشد لطائفة أخرى. طائفة معزولة عن السنّة بالمذهب وبتراث من الانعزال والتخلف كان عليها أن تمضي في سبيلها الخاص المجلس الشيعي الأعلى. أشارت إحدى البرقيات الدبلوماسية الأجنبية، نشأ من «الشعور العام» في الطائفة الشيعية، مفاده أنها كانت «غير قادرة على منافسة الطائفة السنّية الأغنى، والأحسن تثقيفاً وتنظيماً»(٢١).

(٢١) برقية السفارة الأميركية في بيروت، ٢٧ أيار ١٩٦٩، ملف وزارة الخارجية الأميركية، ملف أ - رقم ٢١٣.

الميثاق التنظيمي للمجلس يُقرأ كتأكيد للاستقلال المذهبي: «الطائفة الإسلامية الشيعية مستقلة في شؤونها الدينية وأوقافها الخيرية ومؤسساتها الخاصة تتولى تنظيمها وإدارتها بنفسها طبقاً لأحكام الشريعة الغراء وبموجب الفقه الشيعي كما حُدد بآراء المرجع الأكبر للشيعة في العالم»(٢٢) لحن جديد يُعزف عليه ويُشدّد عليه أيضاً في الإشارة إلى المرجع الأكبر. كان الناس يقولون إنهم لم يقفوا وحدهم، وإن هناك عالماً شيعياً كبيراً ما وراء لبنان هم جزء منه. الإشارة إلى مرجع العالم الخارجي هذا أصبحت فيما بعد واحدة من الأفكار المتكررة للإمام موسى الصدر وطريقه لتقديم الشجاعة والقوة إلى الشيعة في لبنان. عكست أيضاً لبنان الكلاسيكي. الميل لاستعارة هيبة الأجنبي، الإشارة إلى طائفة خارج هذا البلد الصغير. الخطب والأحاديث المارونية كانت مقرونة بإشارات إلى «العالم الحر»، إلى الغرب، إلى المذهب الكاثوليكي. النظرة الذاتية السنية رست على هيبة وموارد البلاد العربية من شرقي لبنان. أما شيعة لبنان فكان ينقصهم رعاة من الخارج وشعور بالانتماء إلى عالم أكبر. بيان المجلس الشيعي الأعلى ألمح إلى هيئة تحكيم وطائفة خارج لبنان.

بعض السياسيين المسيحيين البارزين قدموا ما استطاعوا من تأييد إلى المسعى الشيعي. «عدة زعماء مسيحيين»، أشارت إحدى البرقيات الدبلوماسية الأميركية، «أخبرونا أنهم مسرورين بتشكيل المجلس الشيعي . . . يقولون إنهم يساعدونه بكل الوسائل الممكنة، هذا الوضع ربما يفسر الدعاية الجيدة التي يحصل عليها الصدر في الصحافة اليمينية والمسيحية»(٢٣). السياسيون المسيحيون الذين دعموا المشروع الشيعي - والذين كانوا من بين العرّابين الأول للإمام موسى الصدر - كان عندهم

(٢٢) كما نقلها نجيب جمال الدين، الشيعة، صفحة ١١٧.

(٢٣) برقية السفارة الأميركية في بيروت، ١٠ تشرين الأول ١٩٦٩، ملف وزارة الخارجية الأميركية، رقم ٤١٤.

خليطاً من الدوافع التي شملت لعبة فرق تسد القديمة والمفهومة. تعزيز استقلال الشيعة كان أحد الأساليب لتقويض مطالب الإسلام السُني. إضافة إلى ذلك، كان هناك بعض الرجال المطلعين الذين اعتقدوا أنه يجب إدخال الشيعة في النظام السياسي للبلد. ولم يكن باستطاعة أية كرة بلورية التنبؤ بما صنع الشيعة بأنفسهم على الطريق. في أواخر الستينات، التحدّي الذي أخاف السكان المسيحيين جاء من العقائد القومية العربية ومن الفلسطينيين. وفي ذلك الحين كانت الغيوم قد بدأت تتلبّد في الآفاق اللبنانية. وبدأ البلد يشعر بالهزات الناجمة عن الهزيمة العربية في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ ومن تطرف الفلسطينيين. الرأسمال الأجنبي كان يتم إبعاده. ومع ذلك حافظ البلد على كليشياته، شعوره أنه يستطيع الابتعاد عن الشفير. لكن الرجال العاقلين المتطلعين نحو المستقبل كانوا قد بدأوا يقلقون حول مقدرة لبنان على مواجهة حالة الفوضى. من وجهة نظر النخبة المسيحية، كان منطقياً، عندئذٍ، التودّد إلى الشيعة، وإعطاؤهم حصة في استقرار البلد. الإمام موسى الصدر ورفاقه المحافظون ظهروا كأنهم رهان مضمون بالنسبة للأوصياء على السلطة اللبنانية.

الآن الإمام موسى الصدر أصبح له منبره الخاص. كان تواقاً إلى مثل هذه المؤسسة الرسمية، جزئياً بسبب طموحه، والجزء الآخر بسبب سعيه إلى شرعية في بلد لم يكن تماماً وطناً له. كان في انتخابه لرئاسة المجلس الشيعي عناصر تتويج الرجل الذي كان قد حصل على مملكة وأراد زخارف ومهرجانات حكومة ملكية كوسيلة لتثبيت نجاحه. كان قد حصل على الاثنين معاً: المنبر والرئاسة في وجه معارضة قوية من رجال الدين. كان قد برز من خارج التركيبة التنظيمية للنظام الديني الشيعي. رجال الدين الهادئون سياسياً، الذين لم يرفعوا أبداً إصبعاً واحداً في وجه سلطة خارجية، أصدروا معارضتهم المتوقعة للفكرة برمتها؛ في شكله الأصلي، قالوا، لم يسبق للإسلام

أبداً أن عرف مثل هذه المؤسسة. أكثر من نصف رجال الدين الرئيسيين في البلد قاطع الانتخابات التي جمعت المجلس. انتشرت إشاعات تقول إن الانتخابات كانت مزوّرة. رجال الدين الذين شاركوا كانوا قد رشحوا شخصاً محافظاً من بين صفوفهم، الشيخ سليمان اليحفوفي من وادي البقاع. إتهم مؤيدو يحفوفي أن أشخاصاً عاديين ارتدوا ثياب رجال دين من قبل أنصار الإمام موسى الصدر وأحضروا إلى الاجتماع لانتخاب الرجل الذي فاز. لكن هذا، أيضاً، كان قصة من لبنان: الانتخابات المزوّرة، الإشاعات والحقيقة، كانت جزءاً من أساليب البلد.

لكن شيئاً ما لم يسبق له مثيل حصل في ذلك اليوم - مبادرة صغيرة تنبأت بالتغييرات القادمة. في اليوم الذي تمّ فيه انتخاب الإمام موسى الصدر رئيساً للمجلس الشيعي الأعلى، رئيس المجلس النيابي، صبري بك حمادة، من وادي البقاع، وقف وأصرّ على تقبيل يد السيّد في العلن. لم يكن رئيس المجلس النيابي أعلى مسؤول شيعي في البلد فقط، بل كان أيضاً أحد بكوات المدرسة القديمة. في السابق كان يقف رجال الدين أمام صبري بك يطلبون منه التأييد، ويتعهدون له بالولاء، الآن صبري بك يعترف بالتغيير في التوازن بين السلطة العلمانية والسلطة الدينية. أغلب الظن أنه لم تُقرأ أشياء كثيرة في مبادرته. من المحتمل أن الناس اعتبرت العمل كدليل على طبيعة صبري بك وإخلاصه للحقيقة الدينية. نقاط التحول ترسخ دائماً مع فائدة الإدراك المؤخر. لكن هذه كانت واحدة من تلك الأحداث التي بإمكان رجال ينظرون إلى ماضي هذا الجزء الصغير في التاريخ، أن يعتبروها كقشة في مهب الريح تنذر بالتغيير الأكبر الآتي.

الإمام موسى من صور أصبح الآن رئيس الطائفة الشيعية في لبنان. فوز الرجل نفسه كان بمثابة بلوغ سن الرشد للشيعة. الرئيس المنتخب حديثاً للمجلس الشيعي أعطى الرجال والنساء من طائفته التعابير الملموسة لهويتهم

التي كانت تنقصهم - مرشد ديني متفوّق ومنصب سلطة. في مجتمع متعدد الطوائف، أعطى موسى الصدر الطائفة الشيعية ما كانت تملكه الطوائف الرئيسة الأخرى في البلد.

الموارنة كان عندهم قائدهم الروحي: من مقره في بكركي، في عمق الأرض المارونية لجبل لبنان، البطريرك الماروني ترأس كنيسة مستقلة قوية مع هيئة من الكهنة، راقب سياسة البلد، أبدى رأيه في أمور سياسية بذات القدر الذي أبداه في أمور لاهوتية، وأحياناً تنافس مع، وتآمر ضد رئيس الجمهورية (الماروني). السياسيون المحليون والسفراء الأجانب قاموا برحلات متكررة إلى بكركي لمناقشة أمور الدولة والانتخابات وحتى الاتجاهات الدبلوماسية للبلد. كرسي السلطة المارونية والرجل الذي ترأس الكنيسة كانت تعابير حيويّة للميزات المارونية: التفاخر بالتاريخ المنفصل، الريبة التي نظر بها الموارنة إلى العالم الإسلامي من حولهم، الحماسة والحذر التي تمّ بهما بلورة الأشياء والأفكار المارونية. بطريقة مماثلة، الدروز، في معقلهم، في جبل الشوف، كان عندهم قائد ديني واحد، شيخ العقل. شرائع المذهب الدرزي - مذهب من القرن الحادي عشر، سرية، مغلقة بإحكام في وجه العالم الخارجي، معروفة فقط إلى العقّال من بين الدروز أنفسهم. أعطت رجال الدين وزعماء القبائل سيطرة مطلقة على طائفتهم المؤلفة من سكان الجبل المستقلين والشرسين. شيخ العقل، مع لحيته البيضاء الطويلة، الطربوش التقليدي لشعبه، والسروال المتدلّي من الماضي، جسّد الحقيقة الدرزية: «السريّة التي لا تخترق» لطائفة تحتفظ لنفسها بالصمت والحذر التأملي. مثلما منع الدروز كل أنواع التبشير، رفضوا أي مهتدين جدد، واعتبروا «باب الانقاذ» مغلقاً بصورة نهائية، حتى أن شيخ عقلهم لم يزعج نفسه أبداً لشرح ماهيته إلى العالم الخارجي. بقي بعيداً عن مشاجرات البلد، نقل تصميم طائفته - التي كانت قد حكمت المركز الحيوي للبلد في

جبل لبنان لغاية تجاوزهم من قبل الموارنة في القرن التاسع عشر - للنظر إلى الواقع المعاصر مع لا مبالاة عميقة.

المسلمون السنّة للمجموعات الساحلية في بيروت الغربية، صيدا، وطرابلس كان عندهم مركزهم الديني، دار الفتوى في بيروت ومفتيهم الأكبر، رجل الدين الرئيس. ورث المفتي الشعور السنّي الراسخ الجذور بالانتماء إلى العالم العربي الإسلامي الأكبر حول لبنان. وبموجب العرف والعادات كان المفتي رجلاً ذا ملكية ومنزلة. تاريخياً، طبقة علماء الدين السنة، الذين ترأسوا المحاكم والأوقاف الدينية، كانت قد خرجت من عملية شدّدت على النظام والإجماع والتراتبية الاجتماعية. الحضارة التجارية في بيروت المسلمة - وحتى إلى حد أكبر في إحدى مدن الإسلام السنّي مثل دمشق - أنتجت طبقة علماء الدين السنّة، دمغتهم بحذرها، بروحها للتسوية، بكرهها إلى أي شيء تفوح منه رائحة الموهبة الخارقة والانتفاضة الاجتماعية، بخوفها من الاقليات ومن المناطق النائية. الشيخ حسن خالد، مفتي الجمهورية اللبنانية أثناء بروز موسى الصدر، كان مخلصاً للدور: كان أحد أركان مدينة بيروت، رجل من هيئة رجال الدين الاجتماعية والوضع الراهن، رجل، بالنسبة إليه الاهتمامات الرئيسة للإسلام كانت إدارة الرجال والمؤسسات الاجتماعية والإبقاء على نظام حق الملكية والمنزلة كما هو. متوقفة على قضية الساعة، أو حالة التحالف داخل حكومة الأقلية السنّية، وقف المفتي بجانب رئيس الوزراء (السنّي) للبلد أو سعى إلى تخريب إرادته من خلال منح تأييده إلى أعيان سنّة آخرين. وسائل الإعلام غطت رحلاته: إذا سافر الشيخ حسن إلى القاهرة، أو بغداد، أو إذا أدّى فريضة الحج إلى مكة المكرمة. في المدن السُنّية للإسلام العربي، وجد الشيخ حسن رعاية سياسية أو دعم مادي للمؤسسات والأوقاف السنّية. السهولة التي عبّر فيها الشيخ حسن خالد عن رأيه في أمور سياسية واجتماعية كانت متأصّلة في

ذلك الشعور السنّي الذي لا يزال ثابتاً بالانتماء إلى الإيمان والحضارة الإسلامية السائدة.

مع الإمام موسى الصدر والمجلس الشيعي الذي ترأسه، كان شيعة لبنان يبلورون حضارة سياسية - دينية خاصة بهم، يخرجونها من المنطقة النائية إلى محور الأحداث. هنا، أيضاً، الرجل والمؤسسة عبّرا عن الوضع التاريخي للحضارة الجزئية الشيعية في لبنان. موسى الصدر والمجلس الشيعي كانا ظاهرتين جديدتين: رجل إيراني الولادة يجلب إلى طائفة مقهورة بعضاً من الفخر ومهارات العالم الشيعي الأكبر في إيران والعراق الذي كان منغمساً فيه، هيئة أعطت هذه التغييرات اعترافاً رسمياً. كما أن وجود مبنى المجلس الشيعي في إحدى الضواحي، ذات الغالبية السكانية من المسيحيين، المشرفة على بيروت، أشار إلى معضلة الشيعة: كانوا جدداً على المدينة، لم يكن عندهم في المدينة أحياء أنيقة خاصة بهم يشعرون فيها بالمنزلة والإستقلال. أحياء الفقراء، التي تألفت منها مدن الأكواخ خلال فترة ربع القرن السابقة، لم تكن الأمكنة التي يمكن لرجال قلقين حول احترام الذات أن يأخذوا منها مركزاً للعمل. موزعون في منطقتين غير مجاورتين في البلد - الجنوب ووادي البقاع - المموّلون والموظفون الشيعة كان عليهم أن يشتروا مبنى في منطقة واقعة خلف الخطوط المسيحية لكي يجدوا مبنى مناسباً خاصاً بهم. وذلك أيضاً كان ملائماً: المال الشيعي كان يصرف على عقارات المدينة، رغم أن ذلك المال كان لا يزال بدون السلطة السياسية أو احترام الذات.

في موسى الصدر اكتشف شيعة لبنان، تقريباً هذه المرة، إمامهم الأول. التاريخ الشيعي، الذي نقله المؤمنون، والمغروس أيضاً في أذهان الناس العصريين الذين شككوا في الإيمان، خصص مكانة رئيسة للرجل الخارق (الإستثنائي) - الإمام - وفي الوقت المناسب. لقب إمام لم يأتِ إلى موسى الصدر مع رئاسة المجلس الشيعي. كان اللقب جديداً، ظهر بطريقة

ما مثل تعيين رجل الدين. منتقدو رجل الدين قالوا إن اللقب الجديد كان وليد فكرته الخاصة، وإنه كان قد تبنّاه لأنه كان يعرف قوته المثيرة للعواطف وسيطرته. لكن هذا التفسير كان بسيطاً أكثر مما ينبغي. لو أن موسى الصدر نفسه اقترح اللقب، لكان طموحه شفافاً ولكان الرجل التقي تعرض لفضيحة. في معظم الحركات السياسية - الدينية من هذا النوع، «مدعي» يترك الآخرين يقرأون فيه احتياجاتهم، وضغوطهم، وطموحهم، ويؤكدون حقه بلقب. هذا المدّعي لم يكن استثناءً. كان على الآخرين إعلانه إمامهم، هو نفسه كان دائماً دقيقاً حول هذا الأمر. كان دائماً يشير إلى نفسه كالسيّد موسى، ببساطة السيّد موسى.

أحد الساسة الشيعة أعطى تقريراً ماكراً حول ظهور اللقب الجديد الذي يستوعب طموح المدّعي وأحاسيس الأتباع المؤمنين. حشود كبيرة من الناس، يقول السياسي، كانت تُحيي الإمام موسى الصدر كلما ظهر في تجمعات دينية وسياسية. كان الزخم قد بدأ في النمو منذ سنة أو حوالى ذلك. كلما قام رجل الدين ذو المظهر الملفت للنظر بظهوره الدراماتيكي - وكان معلماً في القيام في الظهور الأول - كان يُستقبل بصيحات «الله أكبر». أعضاء مرافقيه الخاصة، ملهمون بقيادته، مصمّمون على تعزيز سلطته، ربما كانوا الأشخاص الذين قادوا هذه الأناشيد والهتافات. السياسي لا يستبعد احتمال أن مثل هذه الأحداث ربما كان فيها عنصر التعمّد. لكن الإخراج المسرحي غير البارع لوحده لم يكن لينجح. كان على العفوية أيضاً أن تكون هناك وتلعب دورها. اللقب الجديد، المقترح من قبل حشود الناس، قبله رجل الدين. موسى الصدر، يقول السياسي، «لم يمانع» في اللقب الجديد؛ «لم يمانع فيه على الإطلاق». الأعضاء المسنّون من رجال الدين سخروا من التغيير والسياسيون الذين كانوا قد أصبحوا بشكل متزايد متضايقين من طموحه وصفوا التغيير كدليل على الغرور لا يقبل الجدل. حتى أن بعض

المؤيدين الأول جفلوا. رئيس تحرير مجلة شيعية، «العرفان» - أحد المنابر حيث أظهرت بعضاً من المقالات الأولى للإمام موسى الصدر - عبّر عن نظرة مُشككة وفاترة لشخص مفكر. «السيد موسى»، قال الصحفي، «هو صديقنا، ونحن نعرفه منذ وقت طويل». الإمامة، مع ذلك، كانت «تعيين خاص . . . الإمامة بين الشيعة تدل على تعيين الإثني عشر إماماً، ابتداءً من الإمام علي وانتهاءً بالمهدي المنتظر. لكن بما أن الشيعة يميلون إلى المبالغة - خاصة بعد اتصالهم بالفرس - يُستعمل اللقب الآن للإشارة إلى أي شخص يرتدي عِمامة وربما كان يفتقر إلى أية ثقافة دينية[٢٤]. الأئمة، الإثنا عشر إماماً، أشار رئيس التحرير، كانوا رجالاً معصومين. وبالتأكيد، قال هذا الناقد الذي عرف السيد موسى «بالماضي عندما» لم يكن أتباع موسى الصدر يدّعون عصمته.

مع ذلك، اللقب الجديد استحوذ على مشاعر الناس. كان جزءاً من التوقير الروحي، جزءاً من الإعتقاد بأنه كان رجل دين يختلف عن الآخرين. وأظهر اللقب جدول أعمال سياسي - ديني واضح، كما أنه كانت ممكناً مهاجمته إذا حُكم عليه من نواحٍ دينية بحتة. اعتراضات رئيس التحرير النيرة أُهملت من قبل المتحمسين. وعندما ظهر اللقب، كان سحره وقوته واضحة. أشار اللقب إلى التوقع الألفي (يوم الخلاص) الذي كان قد قرأه في موسى الصدر بعض من أتباعه المخلصين. قبل سنتين من تأسيس المجلس الشيعي الأعلى ووصول السيّد لمنصب رجل الدين المتفوق، كان كاتب سيرته قد كتب عنه مع إشارة إلى التوقّع الألفي. نقل كاتب السيرة عن حديث للنبي محمد ﷺ أن الله يرسل إلى هذه الأمة (أمة المؤمنين) «رجلاً ليجدد إيمانها مرة كل مئة سنة». موسى الصدر، قال كاتب السيرة، سيكون ذلك الرجل في وقته؛

(٢٤) نزار الزين، افتتاحية في مجلة العرفان، تموز - آب ١٩٧٠، صفحة ٢٧٩.

سوف يزيل عن الشيعة غبار الأجيال. وسيرى الأشخاص المشككون تحقيق هذا التوقّع[٢٥].

رجل الدين كان بدون أوهام حول المجلس الشيعي الذي ترأسه. كان يعرف وقال عنه إنه وُلد مبتوراً. أعضاء المجلس النيابي الشيعة التسعة عشر كانوا قد احتكروا تسعة عشر مقعداً من أصل الثلاثة والأربعون مقعداً في اللجنة التنفيذية للمجلس. كان هؤلاء، إجمالاً، رجالاً من النظام القديم، وكانوا يعرفون البلد وأساليبه. كانوا يعرفون أنه يمكن السيطرة على المجلس الشيعي، وأن أحكامهم وميولهم سيكون لها وزن أكثر من أحكام وميول الآخرين. موسى الصدر يستطيع أن يسيطر على الجماهير، لكن هؤلاء الرجال كانوا عنيدين أكثر مما ينبغي حتى يتغيروا. كل ما فعله المجلس الشيعي للإمام موسى الصدر هو تزويده بمنبر. وفي بلد الطوائف موسى الصدر كان قد أصبح رجل الدين المتفوق لإحدى الطوائف الرئيسية. سانده خلال عقده الأول النبلاء وأصحاب المهن الشيعة الذين جعلوا من رجل الدين ذي المظهر الجيد والفصاحة، امتداداً لفخرهم وطموحهم الطائفي. أما عمل العقد الثاني، فكان عمل «الإمام»، الذي كان جهداً أكثر شعبية. وكان يتطلب صوتاً مختلفاً ومجموعة من الأفكار المفهومة بسهولة من قبل الجماهير الشيعية. المنصب الذي وصل إليه موسى الصدر كان الوسيلة. الرجال الأغنياء والمؤثرون، الذين كانوا قد اعتقدوا أنه يمكن التلاعب برجل الدين، وأنه سوف يقبل قواعد اللعبة ويعرف حدوده، كانت تنتظرهم مفاجأة. العقد الجديد كان عقداً من الفوضى الكبيرة في البلد، والفوضى زوّدت رجل الدين بما يحتاج. وجد طريقاً مباشراً إلى الجماهير الشيعية وطموحاتها - واستيائها.

(٢٥) نجيب جمال الدين، الشيعة، صفحة ١٥٥.

إعادة تفسير الفكر الشيعي:

الإمام الصدر وأفكار التاريخ الشيعي

الإمام موسى الصدر حدّد مهمته وجدول أعماله في أسلوب طموح للغاية. الحدّ الفاصل، الذي كان يتوقعه من - نفسه، ويطالب به - موجود في الشيء الذي كتبه حول ماذا كان يجب على إمام أن يكون مستعداً له. «مسؤولية إمام الجماعة لا تعرف حدوداً»، كتب يقول. «يتعينّ على أي إمام حماية مصالح جماعته؛ عليه أن يكون كريماً؛ عليه خدمة طائفته بالنصيحة والمثابرة؛ عليه أن يكون مستعداً للشهادة نيابة عنهم. وأي قائد يتجاهل الشؤون اليومية للجماعة لا يستطيع إدّعاء الإسلام»[1]. الإصطلاح الذي اختاره، إمام الجماعة، تميّز بنكهة عصرية بشكل واضح: لم يكن يستعمل لقب إمام في إشارته الدقيقة إلى الإثني عشر إماماً. كان يصادق على التفسير الناشط أن المجتهد الديني يستطيع أن يتجاوز الثقافة الدينية، يستطيع أن يشارك في الأمور السياسية والدنيوية، ويستطيع تجسيد التوقع لدى الإسلام الشيعي الذي يقول إن القائد الديني عنده إلترامات وامتيازات سياسية أيضاً. لقد وضح الأمر من البداية أن سعيه كان سعياً سياسياً. وأزيل التمييز بين الدين والدنيا في مساعيه. ولم تكن الناس بحاجة إلى الشعائر الدينية التي كان يزودها رجل الدين هذا على مجرى السنوات السبع التي تلت. إضافة إلى ذلك أفكاره الشعبية المتزايدة تمت بلورتها في وجه خلفية الفوضى المتصاعدة في البلد. الجمهور الرئيس لرجل الدين، شيعة الجنوب، وقع في شرك وابل النيران بين مقاتلين فلسطينيين يستعملون الجنوب كقاعدة لعملياتهم والإنتقامات الإسرائيلية. مسلسل الهجمات والإنتقامات قذف بأعداد كبيرة من النازحين من القرى الجنوبية إلى المدينة.

---

(١) موسى الصدر، مسؤوليات الإمام القائد والشهادة، نخبة من المحاضرات، بيروت، صفحة ٣ و ٤.

ظهور موسى الصدر على الساحة الوطنية بدأ مع إضراب عام كان قد أعلنه في ٢٦ أيار، ١٩٧٠، يوم «التضامن مع الجنوب» وكان هذا أول إضراب عام في لبنان منذ عقدين من الزمن، وأول فصل شعبي للإمام موسى الصدر خارج الدائرة الصغيرة من النبلاء والموظفين المدنيين، نداء إلى الأفضل للبلد، وتحذير مما سيحصل. لقد أصدر بياناً رسمياً إلى البلد. تضمن البيان الأفكار التي أصبحت فيما بعد الأفكار القاعدة لنداءاته: تضمن اللغة والرموز السياسية للإمام موسى الصدر:

«أبنائي الطلاب، اخواني العمال، أيها المثقفون،
يا أصحاب الضمائر الحية والمهن الحرّة،
يا أبناء الجنوب المهدّد الممتحن،
أيها المسلمون الذين ليس منهم من لا يهتم بأمر الناس،
أيها المسيحيون الحاملون صليب المعذبين:

منذ سنة ونيف، وفي مئات من الإجتماعات والدراسات والبيانات والمقابلات الرسمية، وعبر ما لا يحصى من المحاضرات، والتصريحات، طالبنا باسم المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، وباسم الأمن المهدد والحق المتآمر عليه في الجنوب، كما طالبنا غيرنا من المخلصين الواعين، بضرورة الإهتمام بوضع الجنوب والعمل الجدي لتأمين سلامته بتحصينه وتدريب أبنائه وزيادة طاقاته الدفاعية وتقويتها.

ثم بدأت الكارثة تزحف في فراغ مدهش على مرأى ومسمع من الجميع، تقتل وتهدم وتشرد وتهدد الوطن كله. . .

بعد هذا ماذا يتوقع المسؤولون؟

هل يريدون من الجنوبيين أن يسكتوا على كل هذا الإهمال واللامبالاة، ويتحملوا المصائب والموت والدمار، وهم يشعرون ويلمسون أنهم لا يتمتعون

بأبسط حقوق المواطنية وأولاها، خاصة بعدما أدوا، في جميع المراحل والأوقات واجباتهم كاملة، تجاه الوطن والمواطنين؟

أم ينتظر الجنوبيون الإسعافات والتبرعات من خيم وشوادر وأدوية ومعلبات تشعرهم أنهم مشردون، غرباء دون كرامة، يستجدون المأوى أو الملبس وبقية وسائل العيش الضرورية؟

أم يعودون إلى المناشدات والبيانات والإحتجاجات لتحرق قلوبهم وعود فارغة وتعصر أفئدتهم مواقف اللامبالاة؟

لا. . . لن يقبل أحد من اللبنانيين فضلاً عن الجنوبيين، ولا الله سبحانه وتعالى، هذه الوسائل والأساليب التي تتجاهل حق المواطنين والحياة.

الإضراب هو الحد الأدنى. . . هو بداية خط التعبير عن الإستياء والاستنكار. . . هو الخطوة الأولى التي نرجو أن يستفيق معها المسؤولون فيتصرفون بروح المسؤولية وبوعي وطني سليم.

أيها الأعزاء كونوا مع الحق، ليكون الحق معكم، وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»[٢].

في يوم الإضراب ظهر الإمام موسى الصدر أمام أكثر من ألف طالب من الجامعة الأميركية في بيروت. ذهب إلى حرم الجامعة بدعوة من طلابها. في البلد الذي، في ذلك الحين، مجد الأشياء العصرية والغربية، وحيث كان حرم الجامعة الأميركية في بيروت، الواقع في الجزء الغربي منها، يتمتع بهيبة وعبير المجتمع الأميركي البعيد الذي كان قد بنى ودعم الجامعة. (تأسست الجامعة الأميركية سنة ١٨٦٠، ثقفت أجيالاً من اللبنانيين والعرب، وأعطت خريجيها إنضباطها ومهاراتها وسلطتها. طلابها - في البداية من الغالبية

(٢) النهار، ٢٧ أيار ١٩٧٠، برقية السفارة الأميركية رقم ٤١٠٨، بيروت ٢٦ أيار ١٩٧٠ وبرقية رقم ٤١١٦، بيروت ٢٧ أيار ١٩٧٠.

المسيحية، بعدئذٍ المسلمون (السُنّة) الأكثر غنى، والفلسطينيون المتلهفون للمهارات الثقافية للتعويض عن حرمانهم من أرضهم سنة ١٩٤٨ ـ كانوا واثقين من تميّزهم الخاص، واثقين أنهم كانوا متقدمين على النظام العربي التقليدي من حولهم). إقترب الناس، الذين لم يكونوا نافذين تماماً، من حرم الجامعة بخوف. إضافة إلى أن هذا المكان لم يسبق أن دخل إليه من قبل رجال دين شيعة يرتدون العمامات.

في سنة ١٩٧٠، كانت الحضارة السياسية السائدة في الجامعة الأميركية خليطاً من السياسة الفلسطينية المتطرفة والماركسية، أو ما مرّ منها في لبنان. من أصل أربعة آلاف طالب، كان يوجد مائتي طالب شيعي فقط. ولم يستطيعوا أن يكونوا بشكل خاص طلاباً مهمين في سياسة الجامعة. حتى أنه كان القليل منهم يشغلون أنفسهم بالقضايا السياسية وربما كانوا مؤيدين متحمسين للحركة الفلسطينية، شباب يتوق إلى الإنتماء إلى قضية عربية أوسع.

رجل الدين الشيعي قام بأداء يستحق الذكر في ذلك اليوم. لقد خطب في الكنيسة الصغيرة التابعة للجامعة،، واحتراماً له وللمناسبة، غطت مئات من النساء الشابات المتحررات شعرهن بالوشاح. ربما كان يعرف أنه كان يسجّل سابقة، وأن رجال الدين من مذهبه لم يكن عندهم أبداً الجرأة والفرصة للوصول إلى جمهور من هذا النوع. لقد حاضر عن موضوع أصبح فيما بعد تقريره العادي عن الجنوب المهمل. قال الإمام موسى الصدر: «لماذا لا يهتم المسؤولون بالجنوب؟ إن المسؤولين يهتمون أولاً بعائلاتهم ومناطقهم وطوائفهم ومصالحهم الشخصية، فهناك ثلاثماية قرية في الجنوب طلبت الدولة من أهاليها أن يؤمنوا الأرض لبناء المدارس فيها، فقدم هؤلاء الأرض لكن الدولة لم تبن سوى أربع مدارس». وتحدث عن المستشفيات التي افتتحت «كذباً» وعن مصلحة الليطاني التي استهلكت خلال ١٤ سنة ٢٦٠

مليون ليرة ولم تضع خريطة واحدة للمشروع وهي تظن أن الناس حمير. . . (بغال)».

وأضاف الإمام موسى قائلاً: «كان من المفروض أن نستعد دفاعياً وسياسياً واعلامياً، لكن هذا لم يحصل. وذكر أنه ألقى ستين محاضرة وأصدر عشرة بيانات وأجرى أربع مقابلات صحافية ومناقشات عديدة كلها تدور حول الجنوب ولم يتحرك أحد. «إن السكوت عن الجنوب هو رضى بالذل وخيانة للبنان. . .»

ماذا عن الميليشيات التي بدأت في الظهور في لبنان، سُئل الإمام موسى، وماذا عن الوجود الفلسطيني المسلح؟

كان الإمام موسى يعرف جاذبية القضية الفلسطينية، كان يعرف جمهوره أيضاً فتجنّب إعطاء جواباً قاطعاً، قال: «من المفروض أن يتسلح هؤلاء ويتدربوا، لكن يجب تنظيم هذا الأمر مع السلطة لئلا تعم الفوضى» لعب على الألفاظ، قال السيد: «إن طبيعة حرب الفدائيين هي الإنطلاق من قواعد أرضية مجاورة لإسرائيل. فالمبدأ هذا صحيح كأساس. ولا يمكن أن يتعارض مع سلامة لبنان. نطالب بضرورة تنظيم عمل المسؤولين مع المقاومة وتحمل مسؤولياتهم، فإذا كانت حركة المقاومة تنطلق من أمكنة هي داخل الأراضي اللبنانية وليس من داخل القرى، فلن يكون عندئذٍ لإسرائيل المبرر لقصف هذه القرى. وما دام الإسرائيليون لا يستطيعون وقف التسلل، فكيف يطلبون من اللبنانيين أن يفعلوا ذلك، فليس لبنان بوليساً لإسرائيل».

واستنكر إطلاق الصواريخ من الأراضي اللبنانية، لأن إسرائيل عندئذ تضرب مركز الإطلاق.

وعن ميليشيا الأحزاب قال إنه ليس خبيراً في الشؤون السياسية وإن

«مسؤولية هذا الأمر تقع على الدولة، فهل طلبت القيادة من هؤلاء أن يذهبوا للدفاع عن لبنان»؟

الدعوة إلى الإضراب، استناداً إلى أحد التقارير الدبلوماسية، تمّ الإلتزام بها في جميع أنحاء البلاد»[3] الحكومة اللبنانية العاجزة اختارت تقييم الإضراب في تعابير براقة. شارل حلو، رئيس الجمهورية الضعيف، اعتبر الإضراب أسلوباً «لتطويق الفلسطينيين واليسار، ومنعهم من استغلال خيبة ومرارة الجنوبيين ذوي الغالبية الشيعية»[4] قدمت الحكومة المساعدة التي كان باستطاعتها تقديمها. أقرّت تخصيص عشرة ملايين دولار للجنوب؛ أسست «مجلساً للجنوب»؛ قالت المزيد من وعودها وقالت إنها سوف تبحث عن مزيد من المال.

أحد التقارير الدبلوماسية الأميركية يقدم ملخصاً، إلى حدٍ ما، دقيقاً حول ما تمّ تحقيقه في ذلك الإضراب ـ وحول حدوده: «الخطر يستمر وأن الإمام موسى الصدر ربما يكون عن غير قصد يخلق وضعاً، ربما في النهاية لن يكون قادراً على السيطرة عليه... من الصعب معرفة من اين ستجمع الحكومة المال، وفوق ذلك كيف تستطيع حتى البدء في تلبية طلب الجنوبيين للحماية»[5].

رجل الدين، مع ذلك، كان قد وجد صوته. كان قد جاء إلى لبنان مع اللغة العربية الرسمية، لغة القرآن الكريم، والعلوم الدينية. الفارسيّة، يجب علينا أن نتذكر، كانت لغة مسقط رأسه وطفولته وشبابه. مثل كل رجال الدين ذوي الولادة والحضارة الإيرانية، كان الإمام موسى الصدر يعرف اللغة العربية للنصوص الدينية؛ أمّا الفارسيّة، لغة إيران، كانت

(٣) برقية السفارة الأميركية رقم ٤١٠٨.
(٤) برقية السفارة الأميركية رقم ٤١٠٨.
(٥) برقية السفارة الأميركية رقم ٤١٠٨.

بالنسبة لأي رجل دين من جذوره، وسيلة للتعبير عن الذات. (في أحد الأقوال الإيرانية، اللغة العربية هي المعرفة، لكن اللغة الفارسية هي السكر)[6]. بعد مرور عقد من وصول الإمام موسى الصدر إلى لبنان، تغيّرت لغته العربية وأصبحت طليقة أكثر ومثيرة للعواطف أكثر، لغة الحياة اليومية والشعور اليومي. اللغة المتكلفة للأحاديث الرسمية تمّ استبدالها بالخطب الحماسية من المنبر وأمام الجماهير.

ما وراء علاقته باللغة كان يكمن التطرف المتزايد للبلد: أحدثت بداية السبعينات تغييرات عظيمة في لبنان. أصبحت الإضرابات أسلوباً للحياة بين الطلاب، بين العمال المتنبهين حديثاً لحقوقهم. مطالب جديدة ـ لإصلاح النظام التربوي، لأجور الحد الأدنى، للضمان الطبي، لكبح الإيجارات، لأسعار أفضل لمحاصيل التبغ الذي كان يزرعه الجنوبيون ـ كانت تُطرح في مجتمع كان في نفس الوقت يفقد قدرته على الإحتمال للتفاوت الإجتماعي القديم والشبكات التقليدية التي كانت فيما مضى تحمي هذه التفاوتات الإجتماعية. النظام السياسي للبلد بقي على حالته القديمة. لم يستطع التجاوب مع التغيير، لم يعرف كيف يتغير. المدافعون عن النظام أصروا على أن نظام البلد كان «بارعاً»، وأنه لا يمكن التلاعب بأساليبه المبنية على حرية العمل. رجل الدين الحسّاس سياسياً كان يناشد الدولة. في شكل متزايد كان يتمّ ظهار الدولة، في كلماته، على أنها الفزاعة. كان عليه منافسة الطبقة المتطرفة في البلد، من أجل تطويق رموزها ودعوتها.

الإمام موسى الصدر قام بعمله بدون أوهام. كان يعرف، وأحياناً اعترف في العلن، بثقل التاريخ الشيعي في لبنان. خليطه من الانهزامية والانتهازية. أشار إلى المعضلة الشيعية بطريقته الخاصة؛ أطلق عليها اسم

(٦) روي مهتدي، عباءة «النبي»ﷺ سالف الذكر، صفحة ٢٢٧.

«الرؤية السيكولوجية والمعنوية» للطائفة الشيعية[٧]. أحد الجامعيين الشيعة من الخليج الذي كان يراقب السيد موسى، لاحظ خيبة وانزعاج رجل الدين من الرجال الأغنياء والشيعة في لبنان، من جبنهم السياسي، ومن خصوماتهم.

كان على الإمام موسى الصدر أن يعمل مع منطقتين مختلفتين جذرياً في البلد: الجنوب ووادي البقاع شرقاً. كان عليه أن يجمع هاتين المجموعتين مع بعضها البعض. تاريخياً، كانت المنطقتان قد انفصلتا عن بعضهما البعض بسبب خلافات عميقة في الطبع. زرعوا التبغ (المرخّص به) في الجنوب وزرعوا الحشيش (المحظور قانوناً) في البقاع: هذا باختصار ملخص الاختلاف. شعب الجنوب كان شعب فلاحين مقهورين، صابرين، وقراهم في متناول السلطة. شيعة وادي البقاع كانوا رجال عشائر شرسين وحازمين يقاومون تعدّي السلطة الخارجية. عدد قليل من رجال الدرك يستطيع إرهاب قرى بأكملها في الجنوب؛ أما البقاع فكان مكاناً غامراً في دخوله جنود الحكومة على مضض. بكوات الجنوب استبدوا فيه على رجال خائفين. بكوات البقاع عملوا في عالم متساوي أكثر. عندما تزوجت ابنة أحمد بك الأسعد (وهي جنوبية) من صبري بك حمادة (رجل ذو شأن في البقاع)، سخرت من صبري بك حول الفرق بين سلطة والدها غير المتنازع عليها وبين خيبات زوجها مع أتباعه غير المطيعين. «أنا حصان بين أحصنة أخرى»، «والدك حصان بين بغال»، هذا ما قيل عن ردّ صبري بك لزوجته.

حتى أمور الشعائر الدينية كان يُحتفل بها من قبل المجموعتين في أساليب مختلفة بشكل ملحوظ. عاشوراء، فترة حداد على الإمام الثالث الحسين عليه السلام، كانت أيام نحيب والجلد الذاتي بين أفراد أهل

(٧) تصريح الإمام موسى الصدر حول «العقدة السيكولوجية» للشيعة، العرفان عدد ٥٤، أيلول ١٩٦٦، صفحة ٤٠٤ - ٤١٠.

الجنوب. بينما احتفل شيعة البقاع بكربلاء مع تلاوة هادئة للقرآن الكريم وقصائد ندب بانضباط جدير بالاعتبار.

لكن إذا نظر البقاع إلى أهل الجنوب كخائفين وسريعي الغثيان بشكل غير اعتيادي، كان الجنوب، الراسخ، المتعلم والمروّض، ينظر إلى أهل البقاع نظرة خاصة. نظر إليهم كرجال شرسين في منطقة تخرج عن الأساليب المقبولة. غير أن الإمام موسى الصدر قطع شوطاً كبيراً نحو تضييق الهوة بين المجموعتين أو على الأقل أخمد الخلافات. كان مثالياً لهذه المهمة. إدّعى التحدّر من الجنوب؛ إنطلاقته بدأت من هناك، واستطاع مناشدة المال الجديد الذي كان أغلبه مركّزاً في الجنوب وفي أيدي القادمين الجدد من سكان المدن. كما أنه كان رجلاً جريئاً وشجاعاً. وهذه كانت الصفة التي كان يقدّرها شيعة البقاع في الرجال الآخرين.

رجل الدين الحاذق كان عنده شعوره الخاص للمنطقتين اللتين شكلتا منطقة نفوذه. كان يريد من أهل الجنوب أن يكونوا أكثر جراءة وتحدّي. وكان يريد استخدام طاقة رجال البقاع الشرسين، وتحويلها إلى جهود فعّالة سياسياً واجتماعياً. كان مصدوماً من خصومات الدم في البقاع التي غالباً ما استمرت لأجيال. كان بحاجة إلى قوة رجال البقاع العسكرية. في العديد من المناسبات كان يتمّ إحضار رجال مسلحين من البقاع إلى التجمعات السياسية في الجنوب، كانوا الأشخاص الذين تحدّوا في العلن وحدات من الجيش اللبناني والدّرك. كانت كلها جزءاً من «تثقيف» رجال الجنوب، إظهار ضعف الدولة اللبنانية، وحثّ أهل الجنوب على مواجهة بكواتهم وسلطة الدولة التي غالباً ما استخدمها البكوات لصالحهم.

الإمام، الرجل القائد، كان قد أعلن السيد موسى الصدر، عليه أن يهتم «بالشؤون اليومية» للناس. كان الإمام موسى الصدر صادق الوعد. تدخّل في أمور ذات شأن سياسي واجتماعي بدون عذر أو تردد. في بداية سنة

١٩٧٣، شارك في مواجهة بين مزارعي التبغ وقوات الأمن. كان المزارعون يريدون أسعاراً أعلى لمحاصيلهم وحق تأسيس نقابة لهم. وكانت محصلة الاشتباك بين المزارعين وقوات الدولة في مدينة النبطية مقتل اثنين من المزارعين وجرح خمسة عشر[٨].

كان التبغ المشكلة المزمنة لجماهير الإمام موسى الصدر. وكانت قضية مزارعي التبغ والمحاصصين تنتظر من يلتقطها. هذه القضية التي وُجدت منذ أن تمّ تأسيس شركة احتكار التبغ، شركة الريجي للتبغ والتنباك في سنة ١٩٣٥. اضطرابات على نطاق واسع كانت قد اندلعت في بداية سنة ١٩٣٦ بسبب سياسة الريجي. وأشارت إحدى البرقيات الدبلوماسية الأجنبية في شهر أيار من تلك السنة إلى استياء المزارعين الصغار من سياسة شركة الاحتكار، التي خفضت المساحة المرخص بها لزراعة التبغ وطردت العمال من العمل[٩]. كانت الاضطرابات تندلع بين حين وآخر في السنوات التي تخللتها. وكان الضغط على الناس وعلى الأرض يزيد من المرارة.

الاقتصاد السياسي للتبغ كان انعكاساً منصفاً للظلم الأكبر في البلد. عكس، قبل كل شيء، اختلال التوازن البُنيويّ بين القطاعات الزراعية والخدمات للاقتصاد. كان معدل الدخل السنوي لخمسة وعشرين ألف مزارع صغير حوالى ثلاثمائة دولار: كان الدخل السنوي لأرباب الأسر في قطاع الخدمات في المدينة تسع مرات أكثر. إضافة إلى ذلك كانت الهوّة بين المزارعين وأصحاب الأراضي الواسعة. أما معدّل المساحة المرخص بها لزراعة التبغ لكل مزارع كان في بداية السبعينات أقل من دونمين. وكان المزارعون الصغار دائماً مدينين، وباستمرار فريسة المحتالين الدائنين[١٠].

(٨) النهار، ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٣، برقية السفارة الأميركية في بيروت رقم ١٠٠٣، ٢٦ كانون الثاني ١٩٧٣.
(٩) القنصلية العامة الأميركية، بيروت، تقرير شهر أيار ١٩٣٦، مايكل موركس.
(١٠) حضارة التبغ، ماركوس، مركز الأبحاث في الجامعة اللبنانية، سنة ١٩٧٤.

علاوة على ذلك، لا أحد من السياسيين البارزين في الجنوب كان قد أعطى اهتماماً كبيراً لمشاكل المزارعين الصغار. لأنهم هم أنفسهم كانوا يملكون أجزاء كبيرة من الأرض؛ وأكثر من ذلك، كانوا يملكون الرخص التي حددت المساحات المرخص بها لزراعة التبغ. بالنسبة لبكوات الجنوب، كذلك بالنسبة للملاكين الكبار الآخرين، كان التبغ مصدراً من مصادر الدخل الأخرى، المال الذي يُصرف في المدينة. ومحاصيلهم من التبغ كان يديرها المحاصصون والوكلاء. حتى أنه عندما كان يحضر مفتشو الريجي إلى أراضي وقرى الأشخاص النافذين لتخمين وتسعير المحصول كانوا يأخذون حذرهم بعدم الانتهاك.

كانت قصة التبغ صورة مصغّرة عن البلد. في كلمات أحد المزارعين الصغار، كانت قصة التبغ «القانون على الضعيف، والحرية للقوي»[١١]. كان المفتشون يظهرون في القرى المضطهدة مع جرافات لسحق المحصول الزائد. لكنهم كانوا جبناء عندما كانوا يقتربون من أراضي البكوات والأعيان. إحدى اللوائح عن مزارعي التبغ في الجنوب لسنة ١٩٧١ كانت تقريراً حقيقياً وواقعياً حول «هو من يكون» «WHO IS WHO» في البلد[١٢]. «الأمير» مجيد أرسلان، زعيم درزي نافذ، كان وزيراً للدفاع باستمرار، يظهر في اللائحة كملاك في قرية أنصار في قضاء النبطية. كذلك أيضاً تظهر أسماء بنات وأرملة رئيس وزراء سابق رياض الصلح. كان رياض الصلح أحد مؤسسي الجمهورية؛ كان الفريق المسلم في الميثاق الوطني الذي كان قد شكّل الجمهورية في سنة ١٩٤٣. وبعد اغتياله سنة ١٩٥١، انتقلت أملاكه الضخمة من التبغ إلى أرملته وبناته، عالية، منى، ليا، بهيجة، وليلى. وتزوجت إحدى البنات شقيق ملك المغرب، الأمير عبد الله. وإنه لمن

(١١) مزارع التبغ، مجلة العرفان، عدد ٥٧، أيلول ١٩٦٩ صفحة ٧٤٢.
(١٢) حضارة التبغ، ماركوس، سالف الذكر، صفحات ٨٧ - ٩١.

الصعب تصوّرها تقلق على سعر التبغ في الجنوب اللبناني لأنها كانت توزع وقتها بين الرباط وباريس.

«عائلات عظيمة» أخرى كانت من مالكي الأراضي والمساحات المرخص بها لزراعة التبغ في الجنوب. وهؤلاء لم يكونوا بحاجة للمساعدة من الإمام موسى الصدر. كان الخمسة والعشرون ألف مزارع بحاجة إليها، وكانوا ملهمين باهتمامه. التبغ، قال الإمام موسى الصدر، كان قضية القضايا. رجل الدين المحنك سياسياً كان يعرف أن الناس كانت تنتظر من يقودها، وأنه يجب جعل الرسالة الدينية عصرية، ويجب ربطها بالشؤون المادية وقضايا العدل والحرمان. كان الإمام موسى الصدر، كما أشارت إحدى البرقيات الدبلوماسية الأميركية، «متيقظاً بشكل ذاتي للاستراقات السياسية التي كان يحققها... كان بإمكانه اختيار التقاط قضية التبغ، أو تركها للأحزاب اليسارية (بشكل رئيسي البعثيون والشيوعيون)»[13].

في معرض خوضه للصراع بين شركة الريجي للتبغ والمزارعين في سنة ١٩٧٣، ربما كان الإمام موسى الصدر قد استوعب أهمية حدث تاريخي مشابه لما حصل سابقاً في إيران وكان قد ألهمه أتباعه وأخصامه اللبنانيين على حد سواء. ثورة كبيرة قادها علماء الدين كانت قد اندلعت ضد إدارة التبغ الفارسية، شركة التبغ الامبراطورية التي تملكها بريطانيا في إيران سنة ١٨٩١. ثورة التبغ خلال سنتي ١٨٩١ - ١٨٩٢ كانت قد أصبحت جزءاً من فولكلور (عادات وتقاليد) القومية الإيرانية[14]. كان قد تمّ منح امتياز لإحدى شركات الاحتكار البريطانية من قبل العاهل الإيراني نصر الدين الشاه. غير أن الثورة ضد الامتياز وحّدت المعارضة المؤلفة من القوميين «الأحرار» ورجال الدين الذين كانوا «يعظون في كل مكان ضد استسلام

(١٣) برقية دبلوماسية أميركية، ٣ نيسان ١٩٧٤.
(١٤) الدين والثورة في إيران، نيكي كيدي، لندن ١٩٦٦.

المؤمنين لأيدي الكافرين. وكانت الانتفاضة قد اندلعت في مدن إيران الرئيسية. وكان قد أعطى علماء الدين الموافقة الدينية لمظالم مزارعي وتجار التبغ، وأعلن أن التبغ الذي كان يستغلّه الأجانب هو حرام، محظور ومدنّس.

القرار ضد استعمال التبغ كان قد اتُّخذ من قبل رجل الدين الشيعي الرئيسي في ذلك الوقت، مرزا حسن الشيرازي. عاش الشيرازي في «السامراء» إحدى مدن المزار في العراق. بعد أن جاءت العرائض له من علماء الدين في إيران. أرسل الشيرازي في شهر أيلول ١٨٩١، برقية إلى الشاه تكلم فيها ضد الامتياز. «تدخل الأجانب»، قال الزعيم الديني للشاه: «في شؤون البلد، علاقاتهم وتجارتهم مع المسلمين، الامتيازات مثل البنك، شركة الريجي للتبغ، السكك الحديدية، والأخرى هي، لأسباب عديدة، مخالفة للمعنى الصحيح لما جاء في القرآن الكريم ولتعاليم الله. هذه الإجراءات تضعف من سلطة الحكومة وهي السبب في هدم النظام في البلد». بعدئذٍ في شهر كانون الأول جاء قرار الشيرازي: «بسم الله الرحمن الرحيم، إن استعمال التبغ والتنباك اليوم وفي أي شكل من الأشكال، يُعتبر حرباً ضد إمام العصر والزمان (عجّل الله عودته)»[15] لم يمكن إنقاذ امتياز التبغ غير أنه كان يتوجب إلغاؤها. كانت الرمية الأخيرة للترد محاولة من الحكومة لتحطيم إرادة زعيم وقائد علماء الدين في طهران. أُعطي إنذاراً: بإمكانه إنهاء المقاطعة بالتدخين أو مغادرة البلد. عندما اختار الاتجاه الثاني، نزل أهالي طهران، بقيادة علمائهم الدينيين، إلى الشوارع. كان علماء الدين وحلفاؤهم قد شكّلوا حركة وطنية فاعلة حركت النقمة الاجتماعية - الاقتصادية والمشاعر الدينية.

(١٥) السيد جمال الدين الأفغاني، نيكي كيدي، دار نشر كاليفورنيا، ١٩٧٢، صفحة ٣٥٢ - ٣٥٤ - ٣٩٩.

بالنسبة للإمام موسى الصدر، هذا النزاع العصري بين المزارعين وشركة الريجي للتبغ ربما يكون قد ظهر كإعادة إحياء قصة قديمة سمع وقرأ عنها. تاريخ مسقط رأسه، أعمال رجال الدين الفاعلين سياسياً لهذا المكان، أعطته آفاقاً أوسع من آفاق أخصامه من رجال الدين الخائفين سياسياً في لبنان. كان عنده تاريخ واسع للاعتماد عليه والتصرف بموجبه.

كان يملك أيضاً هوائياً؛ كان بحوزته الأفكار السائدة. في الوقت الذي كان لبنان قد بدأ في التساؤل حول اتجاهه، عبّر الإمام موسى الصدر عما كان في أذهان الآخرين. هذه كانت ميزته الكبيرة في مرحلة انحراف البلد - الغريب بفهم القضايا، يرى ويحدد الأشياء بوضوح. في رواية «اللورد جيم»، وصف جوزيف كونراد تلك المقدرة بالموهبة الرائعة للغريب. «لقد برهن عن تفهمه للوضع غير المألوف، عن تنبهه العقلي في ذلك الحقل من التفكير. كان يتوفر له استعداده، أيضاً. مدهش. وكل هذه كانت قد جاءت له في أسلوب كما تأتي الرائحة الحادة لكلب صيد أصيل»[١٦]. هذا الغريب أيضاً كانت عنده «رائحة حادة» للقضايا. أثناء الإضطرابات المتفاقمة التي أغرقت لبنان في حرب أهلية سنة ١٩٧٥، أصبح الإمام موسى الصدر الشخصية الأكثر التي تفرض قوتها في البلد. السنتان ١٩٧٤ و١٩٧٥ كانت سنواته. كان النجم الجذاب لوسائل الأعلام البيروتية. كان، قيل عنه، الأمل في «ثورة بيضاء» في البلد. كما تبيّن في النهاية، لم يوجد مثل هذا الأمل؛ وأصبحت المجزرة فيها بعد طريقة للحياة. لكن خلال هاتين السنتين، تغيّر التاريخ الشيعي في لبنان نحو الأفضل والأحسن، وأعيد تفسير رموزه وتراثه من قبل رجل الدين وأعطي منحىً فاعلاً. المسألة لم تكن أن موسى الصدر كان أصيلاً أكثر من الآخرين في البلد. عموماً الرجال الذين يأتون لطبع فترات مميّزة خاصة ومراحل الإنتقال بأطباعهم وأفكارهم الذاتية

(١٦) لورد جيم، جوزيف كونراد، ١٩٨٠، صفحة ١٨٩.

ليسوا بالضرورة أصيلين أكثر من الآخرين. إنها الأصالة الأقل التي تميزهم بدلاً من درجة حادة من الحساسية لمحيطهم، وللحالة النفسية لوضع معين.

بينما برز الإمام موسى الصدر كواحد من الأصوات التي كانت تفرض نفسها بنفسها في لبنان خلال سنتي ١٩٧٤ و١٩٧٥، أبدى حماسة مذهلة نحو وسائل الاعلام، من أجل إيصال رسالته. ورغم أنه وُلد وتربّى في بلد شيعي، أظهر موسى الصدر مقدرة ملفتة للنظر ليعبر إلى عالم طوائف ورجال آخرين. كان يعرف كيف يصل إلى الجمهور. لم يحدث أن ألقى خطابين وكانا متشابهين. كان يتميّز الخطاب أمام جمهوره الشيعي بأكمله بمجموعة من الألحان، إيقاع خاص؛ اعتمد على اللغة والرموز الخاصة بالمذهب الشيعي. بينما اعتمدت الموعظة في إحدى الكنائس - وهو ألقى العديد منها - على الأفكار المشتركة لاستشهاد الإمام الثالث، الإمام الحسين، وعذاب المسيح. في تلك المناسبات عندما ظهر مع علماء الدين السُنّة، قال إنه لا يوجد فرق بين عمامته السوداء الخاصة به والعمامات البيضاء لنظرائه السُنّة.

شعبه، الشيعة، كانوا منذ زمن بعيد معروفين بتخوفهم من التدنيس، خوفهم من التدنيس الأخلاقي، «النجس». هذا الخوف لاحظه الرحّالة الذين تجرأوا في الدخول إلى وسطهم، القلق الذي كان يتراوح من أمور التغذية إلى الصداقات. كان الخوف قد استمر إلى العصر الحديث. ومثل الكثير من تلك الميول والنزعات التي استمرت في عصرنا. أُخفي الخوف وأعطي أسماءً جديدة. لكن جوهره، الخوف من التجرؤ في الدخول إلى ما وراء عالم أنسباء الشخص، كان قد حافظ على استمراريته. غير أن الإمام موسى الصدر كان رجل دين متحرر من هذا الخوف بشكل ملفت للنظر. حادثة حصلت في صور رواها أتباعه وسردت من قبل بعض الناس الشيعة الذين يحاولون التخلّص من محظورات عالمهم. كان يوجد شخص مسيحي في

صور يملك محلاً صغيراً لبيع البوظة. وكانت أغلبية سكان صور من الشيعة، وهذه الأغلبية لم تكن تتعامل مع محله. الطعام المحضّر من قبل مسيحي اعتبر «نجساً» ملوثاً ومدنساً. أخذ بائع البوظة قضيته وعرضها على إمام الشيعة، الإمام موسى الصدر نفسه. وكان رجل الدين متعاطفاً. في أحد أيام الجمعة بعدما ألقى الإمام موسى الصدر خطبته في مسجد صور، قال إنه يرغب في القيام بنزهة سيراً على الأقدام. الحشد العادي من الناس الذي كان دائماً هناك، أسرّه أن يكون معه، تبعه في سوق وشوارع صور. التقى الإمام موسى وأتباعه بالصدفة رجل البوظة المسيحي. توقف رجل الدين أمام المحل. أي نوع من البوظة تحب أن تعطينا اليوم؟» سأل الإمام موسى الصدر. بعدئذ تقدم ليأخذ من الرجل البوظة التي قدمت له. لم يُهمل الدرس من قبل الجماهير. والأشياء التي كانت حتى تاريخه محظورة أعلنت أنها مقبولة من قبل رجل دين وسيّد وإمام، متحدر من سلالة النبي ﷺ. وهكذا كان يتم فتح أبواب عالم مغلق على نفسه عنوة من قبل «رجل الله».

جرأة الإمام موسى الصدر في وجه شعائر ومحظورات قديمة تجاوزت أمور الغذاء. في إحدى المناسبات الشيعية تكرماً للإمام السادس، جعفر الصادق، ظهر الإمام موسى الصدر مع كاهن كاثوليكي، المطران جورج حدّاد بجانبه. مسيحي آخر ومعجب، المفكر الماروني ميشال الأسمر، إنضم إلى الإمام أثناء صيامه في إحدى مساجد بيروت للاحتجاج على العنف في البلد. كان معلماً في مثل هذه المبادرات. إحدى مواعظ الصوم الكبير عند المسيحيين، التي ألقاها الإمام موسى في إحدى الكنائس الكاثوليكية، أصبحت واحدة من الفترات المميزة في البلد في بداية سنة ١٩٧٥. لقد كان في استقبال الإمام موسى الصدر على مدخل الكنيسة هيئة الكهنة الكاثوليكيين وأحد رؤساء لبنان السابقين ومجموعة من النخبة السياسية في البلد. أحد المراسلين الصحفيين الذي غطّى الحدث لجريدته اليومية كتب عن الحدث

بخشية، في أسلوب يحبس الأنفاس تقريباً. وصف وصول الإمام الشيعي والحشد الغفير من الكهنة والراهبات الذين كانوا هناك للإصغاء إليه. «عندما دخل الإمام الصدر الردهة الرئيسة للكنيسة، ظهر على وجوه الجمهور خليط من الخشوع والبهجة... أحنى الإمام رأسه للجمهور الذي وقف للترحيب به، جلس وحذا الآخرون حذوه». تمّ تقديمه من قبل رئيس الجمهورية السابق بالكلمات التالية: «المؤمنون موجودون هنا لسماع كلمة الله من مرشد ديني غير كاثوليكي. وإنه لمن الطبيعي أن يكون لبنان البلد الوحيد الذي يجري فيه مثل هذا العمل».

أحد القراء الذي حضر الموعظة التي ألقاها رجل الدين كان متأثراً بما يُسمى نبرتها المسيحية: التقدير للمسيح كرسول للضعفاء والمضطهدين، الوعظ ضد «حب النفس». تضمنت الموعظة تلك النبرة من التفكير المتروّي والهدوء أي صفات المذهب الكاثوليكي وشعائره:

«نحمدك الله ونشكرك. ربنا، اله إبراهيم واسماعيل. اله موسى وعيسى ومحمد. رب المستضعفين واله الخلق أجمعين. نحمدك الله ربنا على أن وفقنا بعنايتك، وجمعتنا بهدايتك ووحدت قلوبنا بمحبتك ورحمتك. وها نحن نجتمع بين يديك في بيت من بيوتك، وفي أوقات الصيام من أجلك. قلوبنا تهفو إليك، وعقولنا تستمد النور والهداية منك، معتبرين أنك دعوتنا إلى أن نسير جنباً إلى جنب في خدمة خلقك، أن نلتقي على كلمة سواء لأجل سعادة خليقتك... اجتمعنا من أجل الإنسان الذي كان من أجل الأديان، وكانت واحدة آنذاك، يبشر بعضها ببعض، ويصدق أحدها الآخر، فأخرج الله الناس بها من الظلمات إلى النور بعد أن أنقذهم بها من الخلافات الكثيرة الساحقة والمفرقة، وعلمهم السلوك في سبيل السلام.

كانت الأديان واحدة حيث كانت في خدمة الهدف الواحد: دعوة إلى الله وخدمة الإنسان، وهما وجهان لحقيقة واحدة. ثم اختلفت عندما

اتجهت إلى خدمة نفسها أيضاً، ثم تعاظم اهتمامها بنفسها حتى كادت أن تنسى الغاية، فتعاظم الخلاف واشتد، وازدادت محنة الإنسان وآلامه».

ثم قال الإمام موسى الصدر: «كانت الأديان واحدة تهفو إلى غاية واحدة: حرب على آلهة الأرض والطغاة، ونصرة للمستضعفين والمضطهدين، وهما أيضاً وجهان لحقيقة واحدة. ولما انتصرت الأديان وانتصر معها المستضعفون وجدوا أن الطغاة غيّروا اللباس وسبقوهم إلى المكاسب، وأنهم بدأوا يحكمونهم باسم الأديان، ويحملون سيفها».. استمرت الموعظة بالنبرة ذاتها: أدانت «أنانية الإنسان»، واستبداد الثروة، «أكبر وثن» للإنسان. وطبعاً كان هناك بعض الكلمات الوداعية حول لبنان ـ طبقاته المعذبة، مناطقه المهملة.

«بعدئذٍ توقف الإمام»، أخبرنا المراسل الذي كان يغطي الموعظة، «أحنى رأسه، تحرك من خلف المنبر إلى مكانه في الصف الأمامي. كان الجمهور يتمنّى لو أنها لم تكن في أحد بيوت الله والعبادة حتى يكون في مقدورهم التصفيق. قبل الجلوس إلتفت الإمام إلى الجمهور، أحنى رأسه ترحيباً... رئيس الأساقفة طلب من الإمام الصدر التقدم إلى قاعة الإستقبال... بعدئذٍ بدأ حشد المصلين في التنافس مع بعضهم البعض لمصافحة الإمام الذي صلّى ووعظ في كنيسة المسيح»(١٨).

لم يكن الصوت الصارم للإسلام الذي تكلّم في ذلك اليوم. كان الصوت الأكثر رقة ـ وعلاوة على ذلك الصوت المألوف ـ الذي تجاوب معه الجمهور الكاثوليكي جزئياً، مقدرة الإمام موسى الصدر في السيطرة على هذا الجمهور الخاص ربما تكون مدينة ببعض الشيء إلى نظام العبادة من الحزن والندب الموجود في جوهر المسيحية والإسلام الشيعي معاً. لكن حقاً كان

(١٨) النهار، ٢٠ شباط ١٩٧٥.

أسلوبه الخاص ـ التصرف اللطيف، الكآبة، الحنان الذي جلبه إلى لقاءاته مع الآخرين ـ الذي حببه إلى هؤلاء المستمعين.

كان لبنان بلداً للنزاعات الدينية العميقة. وشعبه كان يعرف ذلك حتى عندما حاول أقصى جهده لإخفاء عداواته وشكوكه. الجمهور الذي ترك الكنيسة الكاثوليكية وأولئك الذين قرأوا عن الحدث في اليوم التالي كانوا يعرفون المخاوف القديمة والإنقسامات في البلد الذي عاشوا فيه. شعروا بالمديح وتأثروا بأداء رجل الدين إلى حد أبعد بسبب الإنقسامات والعداوات المزمنة في البلد.

صحافة النخبة في لبنان كانت متجاوبة مع الإمام. كان يعتمد على صحيفتين في بيروت، «الحياة» و«النهار»، تميزتا بخط محافظ. «الحياة» انطلقت في أواسط الأربعينات، كانت تملكها عائلة مروّة، عائلة شيعية من الجزء الجنوبي للبلد. كامل مروّة، مؤسس الجريدة الذي كان قد اغتيل على أيدي عملاء ناصريين في سنة ١٩٦٦، كان رجلاً متقدماً كثيراً على العالم الشيعي الذي أتى منه. كان قد عرف الإمام موسى الصدر وكان معجباً به؛ كامل مروّة، أيضاً، كان واحداً من الصنف النادر من الرجال الذين كانوا يسعون «لعصرنة» الرؤية الشيعية، للتخلص من المحظورات وقيود التاريخ الشيعي. علاقته الخاصة مع رجل الدين تمّ احترامها بعد وفاته من قبل عائلته. «الحياة» أخبرني ابن كامل مروّة، كانت صحيفة الإمام موسى. ولم يحتاج رجل الدين لبذل جهد خاص لكسب ود «الحياة» أو لكسب اهتمامها.

لكن «النهار» كانت مركبة موسى الصدر الرئيسة. خلال سنتي ١٩٧٤ و١٩٧٥ كانت النهار الصحيفة الأكثر نفوذاً وإطلاعاً في لبنان. كان عندها تقليد للتحقيق الإنتقادي والإهتمام الإجتماعي. أيديولوجياً، كانت صحيفة في الوسط. صاحبها، غسان التويني، أرثوذكسي أميركي الثقافة، كان شخصاً يضع رجلاً في عالم الصحافة ورجلاً في عالم السياسة. في بلد العشائر

والسياسات الممزقة، ناضلت «النهار» من أجل المدينة، من أجل التجارة، من أجل الإصلاح السياسي، من أجل نوع مشعّ من السياسة المؤيدة للغرب. وكان الرجل، الذي يدير دفّة «النهار»، محنكاً كفاية ليعرف أن القاعدة الضيقة للدائرة الحاكمة في لبنان كان يجب توسيعها لكي يستمر نظامها السياسي في البقاء على قيد الحياة.

موسى الصدر كان أنموذجاً جيداً لصحيفة «النهار» التي يملكها التويني. كان ملائماً للتصوير، كان بارعاً مع الكلمات، ومع حشود الناس. بدأ يصبح مبشراً جماهيرياً. عن لبنان أفضل: تكلم موسى الصدر، عن مسؤولية الدولة تجاه المحرومين. رجل الدين الشيعي الذي كان يظهر في الكنيسة، يسافر إلى القرى النائية التي تفتقر إلى وسائل الراحة، يقوم بالإضراب العام، يتكلم بالنيابة عن الصحافة ضد حكومة تحاول قصّ أجنحتها: مثل هذه الأعمال كانت قد حببته إلى «النهار» وإلى أسلوب صحافتها. كان باستمرار في حالة تنقل من مكان إلى آخر. بالنسبة للبعض، تنمو السلطة بصمت؛ بالنسبة للإمام موسى الصدر، الجلبة هي مصدر مهم للسلطة.

الإستحسان عند الجمهور شجعه، ظهر على أنه شحذ وعيه للقضايا. استقدم لغة أصبحت ظله؛ تركزت حول مواضيع «الحرمان». رجل الدين، قال السيد موسى، يتوجب عليه أن يكون بجانب «بؤساء الأرض» و«المحرومين». شدّد على أن حركته، «حركة المحرومين»، تجاوزت حدود طائفته الخاصة. واعتبر نفسه - كما قال في إحدى الرسائل لمجموعة مؤيدة له في مجلس النواب - كـ «الرمز»، و«النقطة الجامعة» لقضية المحرومين[19].

كانت اللغة الجديدة للحرمان أكثر براعة وأكثر شمولية من لغة الصراع الطبقي الذي كان قد استعمله اليسار اللبناني مع هكذا نتائج كئيبة. وكانت

(١٩) رسالة الإمام موسى الصدر إلى السيد حسين الحسيني وألبير منصور وإحدى عشر عضواً في مجلس النواب بتاريخ ١٤/تموز/١٩٧٥. مع الإشارة إلى أن هذه الرسالة لم تنشر.

لغة موسى الصدر ملائمة للمكان. توجّهت إلى الأغنياء الجدد من الشيعة وكذلك إلى الفقراء، اللغة الجديدة طوقت الخوف القوي الإسلامي و(اللبناني) من «الطبقات الإجتماعية» و«الإستغلال». اللغة الماركسية القديمة تمّ رفضها بسهولة كلغة الإلحاد، كشيء مدمر للدين الإسلامي؛ أيضاً، في بلد حيث الرأسمالية لا رادع لها، تمّ رفضها كهجوم على النظام الحر في لبنان. كان يتعين استقدام لغة جديدة لتساهم في عملية التطرق إلى قضايا العدالة والإنصاف دون أن تشعل صفارات الإنذار القديمة. الإمام موسى الصدر وجد اللغة الجديدة في المشاعر الشعبية حول العدالة والحرمان. تكلم بلهجة وطنية؛ كلماته لم يكن بالمستطاع رفضها كهجوم هرطقي على أساليب قديمة العهد. في جذورها، اللغة كانت شيعية بالعمق. ولكنها كانت ملوّنة (مزخرفة) ببعد من العالم الثالث»؛ وطالبت باستيعاب جميع «المحرومين» في البلد، جميع «مناطقه وأبنائه المحرومين».

أعطى التاريخ الشيعي في لبنان درساً على أن النجاح في مدينة بيروت العصرية كان يتطلب انقطاعاً عن عالم المسنين البالين - مع الدين، الملابس، اللهجة، حتى أطعمة المنطقة النائية. غير أن رجل الدين ذا الموهبة الخارقة كان ينقل درساً مختلفاً: يمكن للناس أن تبقى كما هي، ومع ذلك باستطاعتها النجاح والإبداع في عالم ما وراء الإيمان. وكان السيد يقوم بذلك في المهرجانات الجماهيرية الحاشدة. عندما خرج من سياسة النخبة المحاصرة، وجد خطاً مباشراً مع عواطف ولغة الجماهير. حصل هذا في شكل دراماتيكي في بداية سنة ١٩٧٤. وكانت السنة السابقة نقطة تحوّل بالنسبة للتوازن السياسي الهشّ في البلد، كان قد اندلع قتال على نطاق شامل بين الجيش اللبناني والمنظمات الفلسطينية في شهر أيار ١٩٧٣. وبذلك تعرّض التفاهم الأساسي بين المؤسسة المارونية ونظيرتها السنية للانهيار نتيجة القتال. كان الموارنة يريدون تأكيد ارادة الدولة والجيش؛ غير أن المؤسسة السنيّة لم

تتعاون. ولم تظهر الدولة اللبنانية أبداً من قبل، غير واثقة من نفسها، كما فعلت بعد منتصف سنة ١٩٧٣. كما أن عدداً متزايداً من الشباب الشيعة وقع فريسة الأحزاب اليسارية. وهذا أدّى إلى فرض سيطرة موسى الصدر، واعطائه فرصته، كان عليه مخاطبة الناس الأفقر داخل الطبقات الشيعية، التعبير عن استيائهم، أو مواجهة خطر الانكفاء جانباً في وضع من التطرف والفوضى المتزايدة.

عندما نزل إلى أعماق المجتمع، إلى طبقته الأدنى وبدأ يتفحص في التقاليد والكتب الدينية من أجل إيجاد معنى وتلاؤم عصري، تحولت مهنة الإمام موسى الصدر إلى منقذ[٢٠]. لم يكن هناك أي تزوير حول ذلك. كانت نفحات «المنقذ» موجودة في التراث الشيعي نفسه، في خزاناته الغنية من قصص الاستشهاد والاضطهاد. حتى الآن كان التقليد الشيعي إما مقبولاً كما استلم ـ كتقليد للهزيمة والحرمان الدنيوي ـ أو تجاهله كلياً، وبالتالي بُرغم على أن يكون سراً من قبل رجال ونساء «عصريين» يحاولون الدخول إلى عالم ما وراء الإيمان. لكن الإمام موسى الصدر قدم بديلاً جديداً: التاريخ الشيعي مع قصصه من الإنهزام لن يكون مقبولاً كما استلم، ولا مدافعاً عنه ومرفوضاً. التقليد سوف ينقح، ويُطرح في قالب جديد.

من المحتم، كانت كربلاء، قصة استشهاد الإمام الحسين من القرن السابع ميلادي، التي بدأ بها الإمام موسى الصدر عندما توجه إلى الجماهير الشيعية في طريقة مباشرة خلال سنتي ١٩٧٤ و١٩٧٥. كان «نموذج كربلاء» يكمن في جوهر التاريخ الشيعي[٢١]. كربلاء صبغت الشيعة «بوصمة عار»

(٢٠) العالم الاجتماعي الكبير «ماكس ويبر» كتب عن التغيير الذي يحصل داخل حركة دينية سياسية عندما تصل إلى الطبقات الفقيرة للمجتمع وعندما ترتبط بما يتوقون إليه ويستاؤون منه.

(٢١) اصطلاح اعتمد في كتاب «إيران» لمايكل فيشر، دار نشر جامعة هارفارد، ١٩٨٠، صفحة ١٣ ـ ٢١.

فرقتهم عن بعضهم البعض. كربلاء ألقت ظلاً طويلاً؛ بالنسبة للمؤمنين ألغت الوقت والمسافة. كانت الأجيال المتعاقبة قد روت وزخرفت القصة، أعطتها شعورها بالانفصال والحرمان السياسي. إحدى المسرحيات المثيرة للعواطف، تقام كل سنة، أعادت إحياء القصة الدقيقة التي كانت قد انتهت في مقتل حفيد النبي ﷺ، الإمام الحسين، ومجموعة من أتباعه المتحمسين وفي أسر نساء أهل البيت. قصة كربلاء تُسرد هنا في أسلوب موجز جداً، حتى يستطيع القارىء تقدير ما استخرجه الإمام موسى الصدر منها على أحسن وجه وكيف الشيعية الجديدة عملت عالجت، ومع الوقت، أطاحت بالتقليد الشيعي السائد المميّز بالهدوء والإنكفاء السياسي»[٢٢].

بطل قصة كربلاء هو الإمام الشيعي الثالث، الحسين. الحسين الشخصية المحبوبة والمبجلة عند الإسلام الشيعي. يُمجّده التاريخ بينما بقي صامتاً حول شقيقه الأكبر، الإمام الثاني، الحسن. كان الحسن قد ورث العباءة بعد اغتيال والده الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام، الإمام الشيعي والخليفة الرابع في الإسلام، سنة ٦٦١ بعد الميلاد، لكنه أثناء الصراع الشرس على السلطة الذي اندلع في نظام الحكم الإسلامي الجديد وادى إلى استشهاد الإمام علي، كان الحسن قد تنازل عن الحكم لصالح خصم والده، حاكم سوريا، معاوية، مؤسس السلالة الحاكمة الأموية. كان صراع بين فكرتين: فكرة دينية، تطالب بالحكم من خلال التحدّر من سلالة النبي ﷺ، وفكرة دنيوية، تعتمد على سلطة وثروة الدولة الإسلامية المتوسعة

(٢٢) بالنسبة لقصة كربلاء وللتاريخ الأكبر المحيط بها اعتمدت على عدد من المصادر المتنوعة منها كتاب «أنصار الحسين» للسيد محمد مهدي شمس الدين. كتاب «نهضة الحسين» لرجل دين شيعي مشهور في إيران والعراق واسمه حيات الدين الشهرستاني (١٩٦٧). كتاب «مقاتل الطالبيين» لأبي الفرج الأصفهاني (٩٦٦م). كتاب «الملحمة الأهية» لرئيف فضل الله نشر في بيروت ١٩٣٣. كتاب «تاريخ الرسل والملوك» للمؤرخ الإسلامي العظيم ابن جرير الطبري (٩٢٣م).

وعلى جيشها الهائل في مقاطعة سوريا. مسقط رأس الإسلام، بلاد الحجاز، تمّ تحجيم أهميته بواسطة ثروة المناطق التي تمّ الإستيلاء عليها بالفتح الجديد. مقاطعتان من الدولة، سوريا والعراق، حاربتا من أجل الهيمنة. كان أهل العراق قد أعلنوا بيعتهم إلى علي ومن بعده، إلى إبنه، لكن العراقيين، وإمامهم الحسن، لم يكونوا بمضاهاة قبائل وجنود سوريا، وكان الحسن قد ادرك ميزان القوى غير المتكافىء، قوة السوريين كانت لا تقاوم. وهذا كان أضخم مركز للسلطة في الأمبراطورية الإسلامية. الحسن تنازل عن الحكم؛ لم يكن شهيداً؛ دُفعت له أموال من قبل حاكم دمشق. بنود التنازل طالبت معاوية أن يحكم بموجب «كتاب الله»، وبالامتناع عن تعيين خلف له من بعده وعلى أن يترك شأن اختيار الخليفة إلى الطائفة الإسلامية. بعد تنازله عن الحكم، انكفأ الحسن إلى المدينة المنّورة، عاش حياة هادئة، وتوفي بعد عدة سنوات. استناداً إلى المصادر التاريخية الشيعية، دُسّ السم للحسن على أيدي واحدة من زوجاته، التي كانت موعودة بالمال والزواج من يزيد بن معاوية. دُفع المال إلى المرأة الغادرة، لكن الزواج لم يحصل، وقال معاوية إنه يقدر حياة ابنه[٢٣].

آلت إلى شقيق الحسن الأصغر، الحسين، مهمة تزويد التاريخ الشيعي بعناصره المثيرة للرثاء وتيار الاستشهاد. في سنة ٦٨٠، أعلن الحسين الثورة. كان مؤسس السلالة الحاكمة الأموية، معاوية، قد توفي وشعر الحسين أنه متحرر من التعهد الذي كان قطعه الحسن. فكرة مجتمع إسلامي تحكمه شريعة الله كادت تصبح مجرد خرافة، كان معاوية قد عيّن ابنه يزيد خليفة له. وتجمعت المعارضة ضد مملكة ابن معاوية تحت راية المتحدرين من الإمام علي وزوجته فاطمة الزهراء عليها السلام، مع الحسين الوريث الشرعي للسلطة الدينية. التقوى من جانب، السلطة الدنيوية من الجانب الآخر:

(٢٣) وجد التاريخ الشيعي دائماً جدلية حول موضوع تنازل الإمام الحسن عن الخلافة.

هذا كان الأسلوب الذي تطور فيه صراع الحسين ضد الحاكم يزيد.

رحلة الحسين إلى العراق، التي انتهت باستشهاده في كربلاء، في جنوبي العراق، كان محركها يزيد. لقد جاءت الأوامر من دمشق أنه يجب على الحسين تقديم تعهد بالبيعة إلى يزيد. كان باستطاعته ولكنه لم يفعل مثل هذا الشيء. وخرج الحسين من المدينة متوجهاً نحو مكة ومعه بنوه وأخوته وأهل بيته. لكن المشاكل تعقبته إلى مكة. وكان القتلة المرسلون من دمشق في إثره.

وفي مكة وافته كتب أهل الكوفة، استناداً إلى المصادر التاريخية الشيعية، «يسألونه القدوم عليهم لأنهم بغير إمام». مع مجموعة صغيرة من أتباعه وأفراد عائلته، قام الحسين بالرحلة المشؤومة رغم النصائح التي اسديت إليه بعدم القيام بها. وإن قصائد الندب من أجل الحسين ورفاقه غنيّة ومثيرة في سردها لرحلة الإمام الشهيد. في الطريق إلى العراق لقي الحسين الفرزدق بن غالب الشاعر المعروف. فسأله عن خبر الناس خلفه؟ فقال الفرزدق «قلوبهم معك والسيوف مع ابن أمية». في قصائد الندب، يتحوّل الحسين إلى شهيد طوعي؛ يُصوّر قائلاً إنه كان قد غسل يديه من الحياة، وإنه قد هيأ نفسه لتنفيذ مشيئة الله».

في طريقه إلى الكوفة، وصل الحسين إلى سهول كربلاء في اليوم الثاني من شهر محرم. وكان خمسة آلاف من جنود الحاكم قد عزلوه عن مياه نهر الفرات. الإمام الذي كان قد جاء إلى بلد الحزن هذا ـ المعنى الحرفي لكلمة كربلاء ـ ذكر الجنود أنه جاء إلى العراق بناءً على دعوة من شعبها وأنهم كتبوا إليه قائلين: «إن الناس ينتظرونك لا رأي لهم غيرك فالعجل العجل يا ابن رسول الله فقد اخضر الجناب وأينعت الثمار وأعشبت الأرض وأورقت الأشجار فاقدم اذا شئت فإنما تقدم على جند لك مجندة»[٢٤]. كانت رقصة الموت. حفيد النبي ﷺ ذكر القوة الكبيرة التي حاصرته «والدم في عروقه»:

(٢٤) الملحمة، رئيف فضل الله، صفحة ٢٧٧.

«أما بعد فانسبوني فانظروا من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت نبيكم ﷺ وابن وصيّه وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه. . أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله ﷺ قال لي ولأخي هذان سيدا شباب «أهل الجنة». . .

كانت كلها دون فائدة. كانت توجد أوامر من الخليفة في دمشق وأوامر صارمة من حاكم الكوفة،وكانت هناك وعود بالكنوز والثروة. واحد تلو الآخر من أتباع وأقرباء الحسين سقط أمام جيش الحاكم؛ أو مات من العطش. وارتفعت أصوات النساء والأطفال بالبكاء. و«دعا الحسين بولده الرضيع يودعه، فأتته زينب بابنه عبدالله وأمه الرباب فأجلسه في حجره يقبله. . ثم أتى به نحو القوم يطلب له الماء، فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فذبحه فتلقى الحسين الدم بكفه ورمى به نحو السماء».

أخيراً، وفي العاشر من محرم، يوم عاشوراء، جاء دور الإمام. كان عمره ستة وخمسين عاماً؛ «ودع عياله وأمرهم بالصبر ولبس الأزر وقال استعدوا للبلاء وأعلموا أن الله تعالى حاميكم وحافظكم وسينجيكم من شر الأعداء ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ويعذب عدوكم بأنواع العذاب ويعوضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة فلا تشكوا ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص من قدركم».

الحسين قُطع رأسه. ووُجد على جسمه ثلاث وثلاثون ضربة رمح وسيف. علاوة على ذلك، نهب الجنود خيمه وممتلكاته، حتى صندله. وداست الأحصنة جثته.

الأساطير والتاريخ الشيعي وتلاوات الندب أخبرت في أشكال مختلفة لا نهاية لها كيف تم أخذ رؤوس جماعة الحسين ورأسه أيضاً من كربلاء، إلى

الحاكم في الكوفة، وبعدئذٍ إلى مقر الخليفة في دمشق.[١] وعلى طول الطريق من العراق إلى دمشق، عُرضت الرؤوس المقطوعة والنساء المقيدات بالأصفاد كإنذار للآخرين: أذعنوا، لأن الثورة لا تفيد.

إعتبر المؤرخون غير العاطفيين كربلاء كمغامرة قاسية انتهت بالهزيمة والفشل. لكن حاملي تراث كربلاء استخرجوا من القصة درساً مختلفاً. وميزت حادثة أواخر القرن السابع بأفكارها للهزيمة الصحيحة فرعاً كاملاً في الإسلام. كربلاء، كما كانت، أصرّت على تلاؤمها الدائم. «كل يوم هو عاشوراء، وكل مكان هو كربلاء»، هكذا علم التاريخ الشيعي. لقد تحوّلت كربلاء إلى ضمانة للسكون والإذعان السياسي. ودُعي الناس، الذين يحيون ذكرى كربلاء، للتأمل في الطبيعة النزوية للسلطة، الطريقة التعسفية التي سيطر فيها عديمو الضمير.

حزن الرجال والنساء من أجل الإمام الشهيد. وجدوا في تخلّيه عن الأشياء الدنيوية واستشهاده حرمانهم الخاص. أما الانشقاق بين شيعة، أنصار الحسين، وبين أولئك الذين قبلوا النظام السائد الذي قتله سوف، مع الوقت، يتعمق إلى فجوة نفسية وسياسية. في ندبهم مصير الحسين، مجّد الشيعة الإمام الثالث إلى شخصية مأساوية. ندب الحسين وخلفائه القليلي الحظ على حدٍ سواء جلب حسنات دينية كبيرة وعزّز وظيفة دينية رئيسة: شفاعة الأئمة عند الله. كان الأئمة وسطاء بين الناس والله: أولئك الذين ندبوا أهل البيت نالوا المنزلة الرفيعة والسمعة الحسنة في نظر الله.

موسى الصدر جلب إلى القصة القديمة لكربلاء قراءة جديدة، التي جردتها من حزنها وندبها وجعلت منها حادثة للخيارات والشجاعة السياسية من جانب الحسين ومجموعة أتباعه الذين حاربوا معه. الذكرى السنوية لندب الإمام الحسين، التي كانت لتذكير الشيعة بعزلتهم وهزيمتهم، أصبحت فيما بعد تحت قيادة الإمام موسى الصدر احتفالاً للتحدّي من جانب «الأقلية

النخبة» - الشيعة - التي كانت قد رفضت الإذعان للظلم.

هنا، أيضاً، لم تكن كثيرة جداً أصالة الإمام موسى الصدر التي انتصرت والتي جعلت الجماهير الشيعية في لبنان ترى الرموز والتقاليد القديمة في نور جديد. كان الإمام موسى رجلاً كثير الترحال بالنسبة لرجل دين شيعي، وكان واسع الاطلاع. أخذ بعض الأفكار والتصورات التي كانت قد فُهمت بشكل مبهم، أو النظرية منها، وترجمها إلى لغة وتخيلات يمكن الوصول إليها.

أولاً، نعرف أن الإمام موسى الصدر كان قد تأثر بعمق كتاب حول الإمام الحسين كتبه عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤)، واحد من أشهر المؤلفين في مصر. كتاب العقاد «الحسين: أبو الشهداء»، الذي نُشر في سنة ١٩٤٤، كان قد وصف الصراع بين الإمام الحسين وخصمه يزيد كاصطدام بين «طبعين»، «رؤيتين أخلاقيتين» مختلفتين جذرياً. الحسين، في معرض المعالجة التبجيلية عند العقاد، يُمثل كل شيء نبيل في بني هاشم، عائلة النبي محمد ﷺ. كان يعرف الأدب. «كان رجل البلاغة والعفوية، والدماثة، تقبّل التحولات القاسية للقدر» وكان تقياً ومحباً للخير نحو أولئك الأقل امتيازاً منه. يزيد، من جهة أخرى، قال العقّاد، كان جامعاً لكل «المزايا السلبية» لعائلته (الأمويون) إحدى القبائل التي كانت قد قاومت النبي محمد محمد ﷺ وحاربت المسلمين أثناء سنواتهم الأولى من المحنة) ولا واحدة من الحسنات التي ربما كانت تملكها تلك العشيرة. كان يزيد يتمتع بخشونة عائلته، كان يحب فترات شربه، أحصنته، وكلابه. كان يزيد يرمز إلى السلطة وامتيازاتها، بينما كان الحسين يرمز إلى تشديد الإسلام على العدالة ومساواة المؤمنين. كان العقّاد قد رفض الفكرة القائلة إن القتال بين الحسين ويزيد كان بسبب الملك. قال العقاد إن صراعاً كان قد فُرض على الحسين، وكان الاستشهاد آخر ملاذ لإنقاذ الإسلام من أن يصبح منطقة خاضعة لسيطرة

أهل المال والسلطان. كان يزيد قد انتصر في كربلاء. لكن انتصاره كان انتصاراً مؤقتاً، في النهاية، التاريخ دافع عن الحسين وعن كل ما كان يمثله.

إضافة إلى كتاب العقاد، كان الإيرانيون الشيعة العصريون قد بدأوا في إعادة تفسير تراث الإمام الحسين، في أواخر الستينات وبداية السبعينات. وفي الحدبث الإيراني الجديد، التصور الشعبي الشيعي للحسين كشهيد طوعيّ يتطلق إلى موت أكيد - هذا الموت كان متنبأ به، استناداً إلى التقاليد، عندما وُلد - وُضع جانباً لصالح فكرة الرجل السياسي الذي يُقيّم خياراته، وينطلق في أفضل طريق متروك له. تدريجياً برز الإمام الحسين كبشير لرجال السياسة الذين يختارون الثورة رغم الفرص غير المتكافئة، ويفعلون ذلك وهم مفتوحو الأعين.

تحويل الشعائر الدينية القديمة إلى سياسة متطرفة من التطبيق العملي في المنطقة الشيعية في لبنان كان واضحاً في خطبة عاشوراء التي ألقاها الإمام موسى الصدر سنة ١٩٧٤. كانت فترة قاتمة، قال رجل الدين. عندما أعلن الإمام الحسين الثورة: «الأمة كانت صامتة، الرجال الأحرار كانوا هاربين، والخوف أجبر الناس على الصمت، كان الإسلام مهدداً. غير أن الحسين، الرجل الحر، أخذ خياره الخاص:

«كان المطلوب تضحية عظيمة من أجل.... تحريك المشاعر. حادثة كربلاء كانت تلك التضحية. وضع الإمام الحسين عائلته، قواته، وحتى حياته، في الميزان ضد الطغيان والفساد. بعدئذ انفجر العالم الإسلامي بهذه الثورة.

هذه الثورة لم تمت في رجال كربلاء، سالت في مجرى حياة العالم الإسلامي، وانتقلت من جيل إلى جيل، حتى يومنا الحاضر. إنها وديعة وُضعت في أيدينا لعلنا نستفيد منها، ونستخرج منها مصدراً جديداً

من الإصلاح، موقعاً جديداً، حركة جديدة، ثورة جديدة، لصدّ الظلام، لإيقاف الطغيان وسحق الشر»[٢٥].

رجل الدين اعترف بالتاريخ الحزين للشيعة: كان يعرف عمقه. «سجل دموعنا يملأ السحابة التي تتبعنا»، قال لأتباعه في مناسبة دينية أخرى، لكن التاريخ يستطيع أن يقدم شيئاً أكثر من مشهد هزيمة شيعية. الإمام الحسين، قال الإمام موسى الصدر، واجه العدو مع سبعين رجلاً، «ونحن اليوم أكثر من سبعين، وعدونا ليس بربع العالم كله»[٢٦]. مئة مليون نسمة في كل أرجاء العالم، مئة مليون شيعي، يحتفلون الآن بذكرى الحسين. لم يعد يوجد داع للناس، الذين أيّدوا الحسين، أن يخافوا أو يسكتوا، كانت الجرأة السياسية التي كان رجل الدين الناشط يحاول تلقينها.

في معرض تمجيده للحسين، كان الإمام موسى الصدر يهاجم التقليد الشيعي السائد بالندب والجمود. «الحسين»، قال الإمام موسى في خطبة دينية أخرى، «كانت له ثلاثة أنواع من الأعداء: أولئك الذين قتلوه ـ وكانوا طغاة؛ أولئك الذين حاولوا محو ذكراه، مثل الرجال الذين حرثوا الأرض وغطوا المكان حيث كان مدفوناً، العثمانيون الذين منعوا أي إحياء ذكرى له. النوع الثالث من الأعداء هم أولئك الذين أرادوا تحجير مثال الحسين فكرياً، حصر معنى حياته واستشهاده بالدموع والندب. النوع الثالث من الأعداء هم الأخطر لأنهم ينذرون بتدمير الجذور الحيّة لذكرى الحسين»[٢٧]. النوع الثالث من الأعداء كانوا الشيعة أنفسهم: كان يتوجب إنقاذ الحسين مما كان حاملو رسالته وتراثه قد صنعوا بثورته وموته. رجل الدين يحتفل بتقليد عمره عدة قرون كان يُطعّمه بأفكار جديدة من الاهتمام والفعالية.

(٢٥) الحياة، ١ شباط ١٩٧٤.
(٢٦) النهار، ١٨ شباط ١٩٧٤.
(٢٧) النهار، ٢٣ كانون الثاني ١٩٧٥.

أيضاً في مناسبة دينية أخرى، قرأ الإمام موسى الصدر في القصة من القرن السابع قضية حقوق النساء ومكانتها في المجتمع الإسلامي. تكلم عن شقيقة الإمام الحسين زينب، التي كانت مع شقيقها في رحلته المشؤومة. بقيت على قيد الحياة بعد وفاته، أمضت سنوات تندبه، وتحولت من قبل المؤمنين إلى شخصية مقدسة من الحزن والندب. مقام الست زينب في ضواحي دمشق هو المكان الذي يسافر إليه المهزومون طالبين العزاء والمؤاساة. عنها، قال الإمام موسى: «ذهبت زينب مع قافلة الأسرى إلى الكوفة، كانت قد رفعت جثة الحسين، وقدمتها إلى الله قائلة «يا الله، تقبّل منا تضحيتنا». نشرت رسالة الحسين. أخذت رسالته من صحراء كربلاء إلى عواصم العالم الإسلامي... المرأة في كربلاء واصلت العمل والنضال. المرأة لا يمكن أن تكون مجرد وسيلة للمتعة والإنجاب. زينب، ذكّر الإمام موسى الصدر جمهوره، كانت قد غطّت جسم ابن الحسين المريض، زين العابدين، بجسمها، وتوسّلت إلى جنود الحاكم في كربلاء للإبقاء على حياة الرجل الشاب. وهكذا تمّ إنقاذ إمامة الحسين، وتُرك وريث لعباءته»[٢٨].

في أذهان المؤمنين، الوقت والمسافة التي تفصل الواقع الحالي عن واقع كربلاء تمّ إلغاؤها والتغلب عليها بسهولة ملفتة للنظر. أي عدو في الحياة اليومية ـ شرطي، مالك أراضي، والد زوجة جائر ـ كان يُنعت بيزيد، الحاكم الذي كان قد أعطى أوامره بقتل الحسين. وكان يشار إلى إحدى الشخصيات الشرسة بشكل خاص بـ (الشمر) في الأدب والمسرحيات العاطفية الشيعية، والشمر هو الرجل الذي قطع رأس الحسين. وقد حقق الإمام موسى الصدر الوثبة التاريخية ذاتها. حالة الاضطراب الأهلية المعاصرة أصبحت «كربلاء لبنان». والإمام الحسين تمّ ربطه بالحاضر بشكل ملائم.

كان شيعة آخرون في لبنان قد استخفوا بهذا النوع في وقت مبكر،

(٢٨) النهار، ٢١ كانون الثاني ١٩٧٥.

وحاولوا التلاعب بالتواريخ الشيعية القديمة. حوالى عقدين من الزمن قبل أن يُعيد الإمام موسى الصدر قراءة التاريخ والرموز الشيعية، كان الشباب في مدينة بنت جبيل في جنوب لبنان قد حاول جعل الصراع بين الإمام الحسين والحاكم الأموي يزيد مجازاً خاصاً بهم. مجموعة من القوميين العرب تنتمي إلى حزب البعث، بذلت محاولة كانت مصطنعة وغير متقنة. في معرض إعادتهم بناء كربلاء، لم يعد الحسين فرداً خاصاً، إماماً، إنما «الأمة العربية» بأسرها، ومثّل يزيد «أعداء الأمة». وعُهد بدور المهدي المنتظر، إلى «كادر ثوري» سوف يظهر ويحقق عهد العدالة(٢٩).

بامتداده إلى ذلك البعد، ضعف التقليد ولم ينجح. الحكاية الشيعية للحزب والعزلة لم تكن المطالبة ممكنة بها من قبل العلمانيين الشباب. لكنها انتمت بشكل طبيعي إلى رجل الدين الذي رواها في منتصف السبعينات: على كل حال، كان الإمام موسى الصدر أحد المتحدرين من سلالة الاثني عشر إماماً. وفي التصور الشعبي، كان لقب وملابس الإمام موسى الصدر جزءاً من التاريخ الموروث.

كانت المناسبات الدينية تتحوّل إلى مهرجانات مسلّحة. وكانت تتوطد علاقة خاصة بين رجال استيقظوا على إدراك قوتهم الخاصة بهم - تجاوزهم - وبين شخصية غير عادية. خمسة وسبعون ألف رجل خرجوا من بيوتهم لسماع الإمام موسى في مدينة بعلبك في آذار ١٩٧٤. كانت المناسبة مناسبة دينية لتكريم الإمام الحسين. ألوف من المسلمين كانت هناك، والإمام موسى الصدر، «الإمام الثائر»، مُنح البيعة والتهليل من قبل الجماهير. (علاقته بإمام القرن السابع الذي قضى في الثورة تُركت لمخيلاتهم). أطبقت الجماهير على رجل الدين: واجه صعوبة في الوصول إلى المنصة، وتدافع الناس للمس

(٢٩) تحوّل ظاهرة دينية في قرية جنوب لبنان، وضّاح شرارة، ١٩٦٨، مركز الأبحاث في الجامعة اللبنانية في بيروت.

عباءته؛ فقد عمامته وتوجب استعادتها له. لم يستطع البدء في خطبته لعشرين دقيقة. كان يجب إسكات إطلاق النار من قبل الرجال الذين كانوا يطلقونها في الهواء. «عندي كلمات أشد من الرصاص»، قال رجل الدين. «لهذا وفروا رصاصكم». «مدينة بعلبك» قال الإمام موسى الصدر، «هي بدون مدرسة ثانوية. ومدرستها الآن هي من مخلفات الحكم الفرنسي. قبل ألفين عام تمّ ريّ بعلبك من خلال شبكة خزانات. واليوم تُهدر مياه بعلبك، والحكومة لا تزال تريد معرفة لماذا نحن نيأس منها. . . .»(٣٠).

في هذه الخطبة، تكلم الإمام موسى الصدر عن محنة الجنوب، ساعياً إلى تضييق الفجوة بين المنطقتين، البقاع والجنوب. إلى أهل البقاع المتميّز بالروح القتالية، قال لهم: «أنتم أخوة لأبناء الجنوب، ومصدر قوة لهم». بعدئذٍ تكلم عن السلطات الحاكمة في البلد، عما كانوا قد فعلوه للجنوب، عن تحويل مياه نهر الليطاني من الجنوب إلى بيروت: «سرقوا ثلاثمائة مليون متر مكعب من مياه الجنوب. والآن يريدون ستين مليون متر مكعب أخرى. يريدون تحطيم آخر أمل بقي لشعب الجنوب في مياهه الخاصة به». أشار إلى أرقام الموازنة للسنوات الأربع الماضية، أرقام تُبيّن أن الجنوب تلقى فقط حوالى عشرين بالمئة من حقوقه الشرعية. تطرّق إلى مظالم أخرى. الشيعة، قال الإمام موسى الصدر، كانوا دون التمثيل في المناصب العالية من الدوائر الحكومية. أشار إلى عدم وجود عمداء شيعة في الجامعات، وإلى أن «السفراء الشيعة يعينون في البلاد المتخلفة. . . . متر الأرض في بيروت يُقدّر ثمنه بأكثر من عشرة آلاف ليرة لبنانية، بينما يُقدر ثمن متر الأرض في البقاع بأقل من عشرة قروش. . . دعونا ننظر إلى أحياء بيروت: يا رجال السلطة، ألا تشعرون بالخجل أنه على مسافة كيلومترات قليلة من منازلكم توجد بيوت غير صالحة لسكن الإنسان؟. . . إذا كان هناك ألف طفل مشرد في شوارع

(٣٠) النهار، ١٨ آذار ١٩٧٤.

بيروت، تسعاية منهم هم بالتأكيد شيعة. هل يقبل الإمام الحسين هذا لأطفاله؟ هل يقبل الإمام علي؟

كان الظلم موجوداً. وكان يتم تسجيله. مظالم حديثة جُهزت في ملابس تاريخية قديمة. ورجل الدين مزج أرقام الموازنة والرموز الشيعية القديمة مع بعضها البعض. كان يوجدشيء ما هنا للناس المتأثرين بمقاييس عصرية وأرقام الموازنة، للطامحين الذين يحلمون بمناصب سفراء في البلدان المهمّة، وللناس العادين الذين فهموا وتعمقوا في الحكايات الشيعية القديمة للاضطهاد والهزيمة. وكان يوجد أيضاً دفاع وتبرير من قبل رجل الدين لطموحاته الدنيوية الخاصة: أتهم بالطموح، وأنه يريد رئاسة المجلس الشيعي الأعلى مدى الحياة (وهو شيء أراده وحصل عليه). لقد ربط طموحه الخاص بطموح الأئمة المبجلين: أبعد أمير المؤمنين، الإمام علي، عن المنبر والثماني سنوات واتهم بالالحاد. كما أن أحد القضاة في الكوفة قال إن الإمام الحسين كان قد ضلّ عن طريق جدّه. «ويقولون الآن إنني تخليت عن طريق جدي، وإنه يجب عليّ مراعاة الشعائر الدينية وأن أكتفي بذلك». كانت دنيوية الإمام موسى الصدر وطموحه السياسي بعيدة جداً عن التقليد القديم المحافظ لرجال الدين. رجل من المؤسسة الدينية، الإمام موسى كان يتجاوز الدور الذي خُصص لرجال هذه المؤسسة من قبل أولئك الذين امتلكوا السلطة السياسية.

«يقول الحكام إنه يجب على رجال الدين الصلاة فقط وعدم التدخل في الشؤون الأخرى. ينصحوننا بالصوم والصلاة حتى لا تتزعزع أسس سلطتهم، بينما هم يبتعدون عن الدين ويستغلونه للبقاء في مراكز السلطة. لا تظنوا أن رجال السلطة الذين يعلنون معارضتهم للشيوعية هم ضد الالحاد... إنهم الأكثر كفراً من الكافرين والأكثر الحاداً من الملحدين. يريدوننا أن نستسلم لهم» (٣١).

(٣١) النهار، ١٨ آذار ١٩٧٤.

على الرغم من التأكيدات القياسية، لم يكن الإسلام يعرف فرقاً بين دنيا الله ودنيا قيصر. قيصر، رجل السيف، كان قد انتصر في التاريخ الإسلامي. وكان الملوك والسلالات الحاكمة، ورجال السلطة، قد حوّلوا الدين ورجال الدين إلى أدوات لسلطتهم. أما رجل الله ـ التقي، الذي تُرك في الخلف من قبل العصرية، من قبل المدارس الحديثة، من قبل التجارة الأجنبية والثروة الكبيرة، كان قد أصبح وسيلة زخرفة في ديوان البك، الوزير، والحاكم. وكانت الإمكانيات المتطرفة للدين في سبات عميق. غير أن انتصار رجل الدين هذا على رجال السياسة التقليدية عكس الأشياء المألوفة. لم تكن نتيجة محتمة؛ كان يجب تحديدها وتنظيمها، من أجل أن تحدث. كان يجب عكس التاريخ، وكان على رجل الدين الثوري إعادة تفسير وظائف والتزامات المؤسسة الدينية والأوصياء عليها.

الفكرة التي شُرحت أمام حشود الناس في البقاع أصبحت فيما بعد فكرة متكررة: كان يتعينّ على رجل الدين أن يكون في صراع مستمر مع السلطة. في وقت قصير بعد المهرجان في بعلبك، قدّم الإمام موسى الصدر ذات الفكرة لمجموعة من رفاقه رجال الدين: «عندما تشعرون أنكم تسببتم في غضب الحاكم يكون قد حان وقت الإدراك أنكم على الطريق المستقيم. يجب عليكم رفض الإذعان لأسياد هذه الأرض، للظالمين، يجب عليكم الوقوف بجانب الشعب، بجانب بؤساء الأرض» (٣٢).

خمسون يوماً بعد المهرجان المسلح في البقاع، جاءت مناسبة أخرى، ظاهرياً مناسبة دينية، أزالت الحدّ الفاصل بين عالم الدين وعالم السياسة. هذه المرة، كان التجمّع في القاعدة القديمة للإمام موسى الصدر في مدينة صور؛ كان الهدف من الإحتفال بذكرى فاطمة الزهراء، ابنة النبي ﷺ وأم الشهيدين، الحسن والحسين. حشد غفير من الناس كالحشد الذي كان قد

(٣٢) النهار، ٦ أيار ١٩٧٤.

خرج من البيوت في بعلبك جاء لسماع رجل الدين. كان هناك رجال مسلحون من وادي البقاع، وصلوا مع أسلحتهم المضادة للدبابات، مع أصابع ديناميت ورشاشاتهم. وكان هناك أيضاً نبلاء الطائفة الشيعية من اتباع الإمام موسى الصدر. الإمام موسى الصدر وصل... واستقبل بصيحات اللّه أكبر، بأصوات البنادق والرشاشات وزغردة النساء. بدأ كلمته عن فاطمة الزهراء «الطاهرة»، الفاضلة، «المجاهدة الشهيدة في سبيل الحق والإيمان. فاطمة الزهراء بلغت هذا الشأن ليس لأنها بنت رسول الله، بل لأنها عملت وجاهدت وتحملت في سبيل الحق ما تحملت، قال عنها أبوها رسول الله: يا فاطمة اعملي لنفسك فإني لا أغني عنك من الله شيئاً». بعد أن قال ذلك، أقدم الإمام موسى الصدر على الخطوة المتوقعة وهي الإنتقال من التراث القديم إلى الأمور الدنيوية والسياسية. «ذكرى فاطمة الزهراء هي ذكرى العمل والشهادة، ذكرى الشقاء في سبيل الله، ونحن اتخذنا هذا اليوم من فاطمة شفيعة لنا حتى نؤكد قائلين: يا فاطمة بنت رسول الله، يا رسول الله، يا ربنا، نحن تخطينا مرحلة الطفولة. وبلغنا النضج، ما بدنا أوصياء، لم نعد نخاف، تحررنا على رغم كل الوسائل التي استعملوها لمنع البشر من التعليم. اجتمعنا باعداد هائلة لنؤكد أنه لم تعد علينا وصاية، نحن على دربك يا فاطمة وسننتهي بالشهادة».

كان «منذراً» للأخطار الآتية ـ وهو دور المبشرين المخلصين القدماء. وأصدر التحذيرات في بيان صريح إلى «الحكام» والسلطات:

«تجربة التاريخ ليست بعيدة عنكم أيها الحكام، كل مناطق العالم وكل المجتمعات انفجرت في مرحلة من التاريخ. قلنا لكم عالجوا المشكلة. قدمنا لكم طلبات».

«قلنا لهم لا تصنفوا الناس، لا تميزوا بين الطوائف، أعطوا الحقوق لكل الطوائف».

«نحن من هنا من هذا المهرجان نمد يدنا للحوار، ولكن نقول لكم، للدولة، إنه إذا لم تلب طلباتنا فنحن نخشى على وطننا منكم، أصبح حماة الوطن يشكلون خطراً على الوطن. عندها لا نعود نقدر على الصبر، وسنستعين على درء الخطر عنا بالرفق أولاً وبالقوة ثانياً. قوتنا في صوتنا، في ضميرنا، قوتنا في إخلاصنا، في صفاء رؤيتنا، في عدم التفاتنا إلى المصالح الخاصة».

«أريد صيانة هذا البلد وتدارك الإنفجار. ليسمعوا ويعوا. نحن سائرون بإذن الله على الدرب... نحن لنا عدو واحد هو الشيطان وجنود الشيطان الذين يريدون التحكم في الناس من دون أن يعطوهم شيئاً. هؤلاء الذين حكمونا عشر سنين من دون أن يبنوا مدرسة أو مستوصفاً».

«ليتركوا كرامات الناس ودماء الناس والتحكّم بهم والسيطرة عليهم ونطلب من اللّه أن يهديهم. ومن هنا نعلن أننا مع كل المظلومين من جميع الطوائف، مع كل الناس الذين جرحت كراماتهم».

بعدئذٍ طلب الإمام موسى الصدر من المحتشدين أن يقسموا اليمين، فتلا القسم ورددت الجماهير من بعده أنهم لن يهدأوا «حتى لا يبقى محروم في لبنان أو منطقة محرومة»... وأنهم لن يوفروا «جهداً لاحقاق الحق وإبطال الباطل والطغيان ومحاربة أعداء الوطن والمواطن» (٣٣).

قسم اليمين لا يقلب العالم رأساً على عقب أبداً. ويمكن اداؤه وخرقه. كما أن الناس لم تفتقر أبداً إلى وسائل لتحرير أنفسها من التعهدات الأكثر قدسية. لكن قسم اليمين كان شعائر وأداة مهمة في تشكيل الحركات الإجتماعية، وهي عملية كان الشكل والمحتوى فيها مهمين(٣٤). وفي التاريخ

(٣٣) النهار، ٦ أيار، ١٩٧٤.
(٣٤) الثوار الإيرانيون، هوبسباوم، نيويورك، نورتن، ١٩٦٥.

الإسلامي كان قسم اليمين بصورة خاصة وسيلة مهمة في التزام الناس نحو بعضها البعض وفي المساعي المشتركة. ويتبين من كتاب «روي متهادي» المميّز حول التزام الوفاء في المجتمع الإسلامي، أنه كان هناك ثمن لخرق قسم اليمين. لدرجة أن الناس كانت تتجه، بجدّية كافية، لتجنب قسم اليمين الذي كانوا يعرفون مسبقاً أنهم ربما كان عليهم التبرؤ منه [٣٥].

رجل الدين الذي طالب بقسم اليمين كان يعرف المكان والناس: كان مكاناً قاسياً. اعتبرت الناس الحياة الإجتماعية كعالم من النزاعات والخيانات. كان مسلماً به أن السمكة الكبيرة تأكل السمكة الصغيرة وعلى الناس، كما تقول الأمثال الشعبية، أن تقتلع أشواكها بأيديها. في مطالبته بقسم اليمين، كان الإمام موسى الصدر يسعى إلى خلق نوع من الإلتزام بجهد مشترك. والأمل من هكذا قسم يمين - ومن هذه اللحظات الدراماتيكية - هو أن الناس سوف تتأثر بشكل كافٍ للإقدام على تضحيات صغيرة أو الشعور إلى حدٍ ما بشجاعة أكثر في مواجهة اخصامهم أو الإدراك أنهم ليسوا كلياً لوحدهم. قاد الإمام موسى الصدر طائفة هي بدون تاريخ من اللحمة والتضامن. مبعدة عن الأرض، ومرغمة على كسب الرزق بصعوبة، تبجح الناس بالإنجازات الصغيرة وتمنّوا الشر للآخرين. تنافسوا على الفتات الصغيرة المتوفرة في البلد، والمناصب القليلة المتاحة للشيعة في الدوائر الحكومية. الإمام موسى الصدر لم يستطع إلغاء ذلك الوضع. كان يعرفه كله جيداً. وكل ما كان يأمله من هذه المبادرات واللحظات الدراماتيكية هو خلق شعور هش بالزمالة، «استغلال» تاريخ مشترك من الحزن، وجمع الناس مع بعضها البعض. في مثل هذا المضمون، هناك تبرير لحجّة المشككين مفاده أن الزعماء الذين يحاولون جمع الناس مع بعضهم البعض يحرثون البحر، إن

---

(٣٥) الوفاء والزعامة في المجتمع الإسلامي الأول، روي متهادي، دار نشر برنستون، ١٩٨٠، صفحة ٤٩.

الناس ينفصلون ويعودون إلى عداواتهم المألوفة حالما تتفجر الفقاقيع، وحالما تهدأ النشوة. لكن شيئاً ما يحدث عندما يتمّ أداء مثل هكذا قسم اليمين والإلتزامات. الناس - إذاً فقط للحظة، وإذا فقط عدد قليل منهم، ضحوا بالفعل بأنفسهم. تمّ جمع الناس مع بعضهم البعض. وفي وجه صراع كل شخص ضد الآخر، تقدم الناس رؤية أخرى للأشياء: رؤية مليئة بالأمل أكثر، تمكنهم من التصرف بدون خداع، وبدون الإعتقاد أن تدمير رجل ما هو لمصلحة الآخر.

كان قسم اليمين أسلوباً لصوغ علاقات جديدة. الحكايات القديمة للعزلة والإستشهاد الشيعي كانت مدعوّة لغرس الشجاعة في الناس الذين لم يكن عندهم تاريخ الإهتمام والمسؤولية السياسية: هذا كان ابتكار الإمام موسى الصدر. الناس الذين قادهم عاشوا في ظل كربلاء وتحملوا عبئها. تقليد كربلاء، والعالم الشيعي الاكبر الذي دار حوله، كان يجب مواجهته وإصلاحه. كانت كربلاء نسيجاً من عدة خيوط. فقصة بمثل هذا الرثاء وهذه المأساة الكبيرة لا تستطيع ترك الناس مع رسالة واضحة وواحدة. من جهة، كانت كربلاء قصة اختيار ومبدأ، قصة رجل يقاوم عندما كان بإمكانه الإذلال والإذعان. من جهة أخرى، كانت كربلاء قصة قدر مشؤوم وهزيمة. احتفلت كربلاء بحفيد النبيﷺ الذي قضى في المعركة. لكن في الأعماق الخفية للعقل، كربلاء وتكرار أحداثها المروّعة ربما تكون دعوة إلى الإذعان للسلطات التي لا يمكن هزيمتها وللصراعات غير المتكافئة التي لا يمكن التغلب عليها.

قصة كربلاء والعدد الوافر من القصص الشيعية الأخرى حول الحرمان والهزيمة نجحت في الأسلوب الوحيد المتاح لها: حرفت وقلبت وقدمت إيحاءات مكتومة. اعتقدت تلك القصص الشيعية الخارقة أن الضعف سيكون بريئاً، وأن الناس لن «يتعرفوا على المعتدي» حسب الجمجمة

العصرية. لكن في عالم قاس، حيث كانت النتيجة مهمّة أكثر من الرحلة، حيث بررت النتائج أعمال الناس، كان لا مفر من حدٍ معين من الشعور المتضارب والتنافر. الخلفاء، الذين قطعوا رؤوس الأئمة العادلين، كانوا من أهل المال والسلطان. قدم العالم نفسه لهم، انتصروا، ولم يسبق أن عانوا من الحيرة. هل كان الشباب في هذا العالم الشيعي لأن يكونوا ورثة لأولئك الذين ماتوا من العطش والجوع في معارك مشؤومة؟ أو هل كانوا لأن ينتصروا في مبارزاتهم؟ مهما يكن التفسير، قيل للناس أن يمجدوا الحزن والشهادة والندب، لكن أيضاً أن يلاحقوا النجاح بعناد وإلى أي مكان يمكن أن يؤدي إليه.

عاش سجل الشهادة على مقربة وثيقة من حفظ الذات من الأذى وسقط فيه بسهولة. مجدت الناس الشهادة، لكنها عاشت بحذر، كانوا يعرفون أن الرجال الذين يتمتعون بالإستحسان سيهوون بمجرد الحاجة إليهم، وأن المتحمسين سيتركون يتصارعون مع الريح: أولئك الذين وعدوا أنهم سيكونون هناك، (مثل أهل العراق الذين وعدوا الحسين بلقائه)، أوحت القصص، سينطلقون بسرعة إلى منازلهم وإلى زوجاتهم وأطفالهم. أما أولئك الذين جازفوا، الذين خرجوا حقاً لتغيير الأشياء سيحصدون العاصفة. النساء رافقت أولادها إلى احتفالات عاشوراء ومسرحيات الآلام. لكن هذه النساء، الأمهات النادبات، طلبت من شبابها أن يمتنع عن اللعب بالنار: كانت البطولة تضليلاً، هكذا كان يلقن الأولاد. ورث الماكرون الأرض، أما الشجعان قطعت رؤوسهم أو دُسّ لهم السم، لم يكن أحد يريد أن يُلقى رأسه في حضن أمه.

كانت الروح الشيعية الإنهزامية قد ارتدت قناعاً صحيحاً، وواست نفسها. هذا هو الشيء الذي كان يتعيّن على التاريخ الشيعي فعله لمواجهة الحرمان الدنيوي، وقافلة لا تنتهي على ما يبدو من الحزن والهزيمة. «فالأئمة

الورعون»، كونهم كانوا معذبين مستسلمين، زودوا الإسلام جانباً حنوناً ومثيراً للشفقة. خسر الأئمة. لكن المؤمنين كما يكتب أرنولد، الذين يستطيعون «الوصول إلى النزر القليل»، أحبوا الأئمة على نحو أفضل حول تلك المسألة، أحبوهم بسبب تخليهم عن ذاتهم واعتدالهم، شعروا أن الأئمة كانوا عزيزين على الله، وأن الله أحبهم، أنهم وحياتهم ملأت فراغاً في الدين الحازم للنبي محمد ﷺ[٣٦]. أمسك ماثيو أرنولد بحيوية كربلاء. كان الإسلام، الإسلام الرئيس، قضية منتصرة. النبي محمد ﷺ توفي عندما كان في قيادة نظام حكم ناجح. لكن قصة الإنتصار لا يمكن أن تكون قصة كل شخص. يجب أن يكون هناك رثاء وهزيمة أيضاً، حزن ومؤاساة. فكانت كربلاء التي زودت الجانب الآخر الذي كان الأكثر «حناناً» والمثير للشفقة لأولئك الذين شاركوا فيها.

لكن الناس ليسوا «ملائكة»، يتوقون إلى السلطة ويعجبون بالمنتصرين. وتحمّل الناس المضطهدين بين صفوفهم. وإذا استعملنا المجاز الشيعي، كان يوجد خطر «يزيد ما» متربص داخل كل شخص. هذا هو الجانب السيء لكربلاء، وكان على واعظ مثل الإمام موسى الصدر أن يواجهه، وأن يعمل على تحليل تاريخ شيعي معقّد. حاملو رسالة كربلاء ندبوا شهداءهم. لكن هذا الندب أعطى نوعاً من تبرئة معنوية على ما فعله الناس وما لم يفعلوا، وعلى تنازلهم في الأمور الإجتماعية والسياسية[٣٧].

كان الغموض في كربلاء. قصة كبيرة من الخيانة تستطيع بالكاد أن تغرس في الناس، الذين تحمّلوا قيودها وحفظوا خطوطها غيباً، الثقة في أنفسهم وفي الآخرين لتجاوز الخوف والجشع. علمت كربلاء عدم الثقة والإرتياب بالسلطة السياسية. لكن أكثر من ذلك: ظهر في موازاة هذا الإرتياب إحساس آخر، شعور بأن العالم لم يقدم الخلاص وأن كل طريق

(٣٦) مقالات في الإنتقاد، ماثيو أرنولد، لندن، دار نشر ماكميلان، ١٩٣٧، صفحة ٢٦٢.
(٣٧) الجماهير والسلطة، الياس كانتي، نيويورك ١٩٧٨، صفحة ١٤٥.

كان يؤدي إلى زقاق مسدود من الخوف والخيانة. التمجيد وجميع السياسات الإنفعالية التي تأتي معه تم حصرها، وأجبرت على العمل بالسر (تحت الأرض). لكن الثمن كان شعوراً راسخ باليأس. هذا كان صحيحاً بالنسبة للتاريخ الشيعي في كل مكان، لكنه كان بشكل خاص صحيحاً في منطقة نائية مثل العالم الشيعي في لبنان. كانت الناس هناك دائماً على الطرف المتلقي لسلطة شخص آخر. أظهروا جميع المزايا التي تترافق مع تاريخ طويل من الحرمان السياسي: استعطفوا السلطة؛ تكيّفوا معها إلى أبعد حدٍ استطاعوا؛ أطاعوا عن عدم قناعة؛ ثاروا بأساليب صغيرة أو انكفأوا وانتظروا وقتاً أفضل.

كانت التقاليد قد زودت الحماية وأكدت عدم جدوى الحياة السياسية وحتمية الخيانة. والآن يتم التنقيب في التقاليد ـ ذاتها القصص والأساطير والأيقونات ـ بحثاً عن رموز الثورة، وعن أشكال جديدة من التضامن. كان اليسار في لبنان قد تكلم عن الطبقية «وأضرار الطبقية». لكن الرجال والنساء العاديين لم يكونوا قد تجاوبوا بحماس كبير. غير أن مصلحاً دينياً كان ينجح حيث كان قد فشل اليسار. ولم تكن هناك حاجة لاستعارة كلمات ومقولات غربية أو أجنبية. التاريخ الحزين لكربلاء كان معروفاً عند الرجال والنساء الشيعة في لبنان. لقد نشأوا مع القصص الشيعية. وهكذا كان الشخص الثوري، الذي عمل مع التاريخ المألوف ـ غيّره كلما تقدم ـ يكشف شيئاً حيوياً في أولئك الذين التفوا حوله.

كان في أسلوب موسى الصدر وتصرفاته الشخصية شيء ما مفيد له بشكل خاص: الدماثة في تعامله مع الآخرين، ومسحة تكتم جذبت الله إليه. كانت السلطة والزعامة في هذه الحضارة بمثابة سترة المساجين: الرجال الذين امتلكوا السلطة مشوا بتبجح، أرعبوا الناس الآخرين، أجبروهم على الإذعان، وأخافوهم، كان للسلطة ما سُمّي «بالوهرة»، تقريباً من أجل شلّ

أولئك الذين كانوا الطرف المتلقي للسلطة. (إذا افتكرنا صدام حسين، رئيس العراق، مخيف وبغيض، يظهر كالشخص المثالي صاحب وهرة»؛ وفي الواقع، من بين الألقاب التي يملكها صدام حسين، لقب «المهيب»). لكن هذا لم يكن أسلوب موسى الصدر. كانت الناس تُعامل باللطف والحنان مهما تكن أهميتها. إحدى النساء، التي عاشت مع زوجها لفترة في منزل الإمام موسى الصدر، قالت إنها لا تذكر أية حادثة وبخ فيها رجل الدين شخصاً آخر أو كان قاسياً أو مستبداً في تعامله مع من كان من حوله. كان لأسلوبه سحره. وبدون شك جاءت قوة أسلوبه من الكآبة الكامنة في جوهر المذهب الشيعي. عالم السلطة لم يكن لديه مكان للشيعة. كان الأئمة الشيعة المُبجّلون قد قضوا في المعركة وحُرموا مما شعر الصالحون أنه حقهم: الحق في خلافة مملكة النبيّ محمد ﷺ السياسية والدينية، في الثروة، الضرائب، والسلطة. كان على القائد، الذي يدعو الجماهير الشيعية، أن يتمتع ببعض من حزن التاريخ الشيعي، الشعور أن أساليب العالم كانت قاسية ولا يمكن التنبؤ بها وأنه يجب على المؤمنين أن يلتقوا مع بعضهم البعض بدون إدعاءات غير مستحقة لهم في المرتبة والإمتياز. تلك الأفكار الشيعية المجبولة بالعواطف كانت في سلوك الإمام موسى الصدر: ما وصفه «ماتيو أرنولد» بالتخلي عن الذات والإعتدال» للأئمة، أحفاد الإمام عليّ، كان في هذا المدّعي للتقاليد الشيعية.

الفكرة أن الناس تثور لتحرير أنفسهم هي وهم. وبشكل أوضح، تثور الناس لخلق علاقات مقبولة أكثر مع السلطة، للخضوع لرجال جدد، ورجال آخرين. هناك علاقة بين القيادة والطاعة تُلطخ أولئك الذين يخضعون لها، والآخرون الذين لا يخضعون. كانت فئات الناس التي تجاوبت مع موسى الصدر في أواسط السبعينات قد تجاوزت الرؤساء القدامى في البلد. «الإمام الثائر» قدم علاقة جديدة بين السلطة والإذعان. كان الرؤساء

القدامى قد قالوا، «اخضعوا، لأنني أنا أفضلكم». رجل الدين الناشط لم يتقدم بمثل هذا الطلب (الصريح). لم يكن بحاجة إلى ذلك: كان العنصر المهدي لصالحه، الحنين المكبوت في تاريخ شعبه للمخلّص؛ كان، على أي حال، قد تمّ تقديمه إلى الجماهير كمتحدر من سلالة الإمام السابع. وشعر الناس الذين قدموا إليه الطاعة، أنهم كانوا يقدمون الإجلال لتاريخهم وتقاليدهم الشيعية الخاصة بهم. علاقة جديدة بين السلطة والقيادة تم تقديمها كشيء قديم ومُطَمئن جداً. هذه لم تكن «نهاية العصر». لكنها كانت لحظة تاريخية فريدة، ملائمة لمدّعٍ ما. كانت الدولة اللبنانية تنهار، وكان عالم مألوف ينتهي إلى الفشل. لم يعد نظام السلطة يخيف الناس، أو يساندهم. أنكر الشعب قوة الأساليب القديمة العهد وكان مستعداً أن يتبع، أن يُرشد، وأن ينقاد(٣٨).

كان يتمّ جرف العالم التقليدي من الأسفل. الجماهير التي جاءت لسماع الإمام موسى الصدر في مدن البقاع وصور تألفت من العمال المياومين الذين سكنوا الأكواخ في بيروت، من مزارعي التبغ الغارقين في معركة مشؤومة مع علم الإقتصاد، من معلمي المدارس الشاكين من «النظام» الذي عيّنهم، من النازحين إلى بيروت بسبب الحرب الإسرائيلية ـ الفلسطينية التي لم تكن عندهم أية سيطرة عليها. بالنسبة لأولئك الذين كانوا بحاجة لها، لعب موسى الصدر دور تلك الشخصية غير العادية الضرورية لحالة من الإنهيار والخلاص. وبها، امتلك الناس إماماً. أهداف التاريخ الشيعي صريحة. كل جيل يستطيع أن يرى نفسه كخزان الرؤية الشيعية للإنهيار والخلاص، كالمجموعة المقدّر لها أن تعيش الأحداث المتنبأ بها كالحروب والدمار، والإنتفاضات الأخلاقية. بعدئذٍ مجيء اليوم عندما يُصحّح العالم ويتم جلب التاريخ إلى نهايته الشرعية.

(٣٨) ملاحقة العصر الألفي ـ نورمان كوهين. نيويورك. جامعة أكسفورد، ١٩٧٠، صفحة ٢٨٢.

الواقع الشيعي السائد تعايش دائماً مع وعد لعصر ألفي غامض (إنتظار يوم الخلاص). أعطى الوعد مؤاساة؛ وجعل التدابير السياسية والإجتماعية تبدو وكأنها زائلة وغير مستقرة. ترك الناس جاهزة لأشخاص غير عاديين. الخبير في الشؤون الإسلامية «مارشال هودكسون» رسم الطبع الشيعي مع ميله إلى شخصية مخلصة ولمجموعة من الأتباع تأتي مع بعضها البعض استباقاً لتغييرات عظيمة.

«كان ممكن دائماً ظهور القائد المقدّر له (المهديّ) فيمتحن المؤمنين عن طريق استدعائهم، تماماً وكأنهم أنفسهم يشنّون عملية التحوّل الإجتماعية العظيمة تحت قيادته، مع وعد بمساعدة سماويّة عندما تدعو الحاجة. لكن حتى قبل أن يظهر، اتخذ الدور الإجتماعي للعناصر المختلفة في السكان شكلاً متغيراً بالنسبة لأولئك الذين كانوا يعرفون ماذا سيحصل. كل حادثة تاريخية دنيويّة يمكن أن تنبيء أو تحضّر لمجيء المهدي. كان المؤمنون دائماً متيقظين، مستعدين لأخذ دورهم في الفصول الختامية. وفي هذه الطريقة، رؤية ألفية صوّرت بطريقة دراماتيكية كل التاريخ، في الحاضر كما في المستقبل»(٣٩).

في لبنان موسى الصدر، كما في إيران الخميني بعد عدة سنوات، تمّ احترام غموض الوضع. لا أحد قاوم أو خرق الكتب الدينية بإعلان أي من رجلي الدين هو الإمام المنتظر. تُركت الناس لشعورهم الروحي الأكثر قوة، لتخيلاتهم. وأصبح الحدّ الفاصل بين «الإمام» الموجود بينهم وإمام الكتب الدينية والإيمان غير واضح.

إذا كان يتمّ تقويض الماضي، إذا كان يتمّ تطويع الناس وجمعهم مع بعضهم البعض من أجل تفاهم جديد في تاريخهم، كان مهماً تزويدهم بشعور دراماتيكي بالتغيير في قدرهم، وفي مقدرتهم على تغيير وضعهم. بدأ

(٣٩) مغامرة الإسلام، مارشال هودكسون، جامعة شيكاغو، ١٩٧٤، صفحة ٣٧٤.

موسى الصدر بشيء بسيط وعميق! اسم الشيعة في لبنان. حتى الآن كان الشيعة يُعرفون باسم «متاولة» أو «متوالي». قطع السيد موسى الصلة مع الإسم القديم.

«يقولون بأننا متاولة. اسمنا الرافضون، المخالفون، الثائرون، الخارجون على كل طغيان، الواقفون في وجه كل طغيان، من أية جهة أتى ولو كلفنا روحنا ودمنا»(٤٠).

أصبح متاولة لبنان شيعة لبنان. كان الإسم القديم من إنتاج تاريخ لبنان حمل معه الأساليب القديمة للحرمان والجمعيات القديمة، وفرق شيعة لبنان عن بعضهم البعض ووضع عليهم علامة مميزة كمجموعة. غير أن الهوية الجديدة ربطت الناس، من خلال الزمن والمسافة، مع شيعة آخرين في مناطق أكبر. جاءت قطيعة موسى الصدر مع الإسم القديم في خطاب ألقاه في منتصف شهر شباط سنة ١٩٧٤، أمام مهرجان حاشد في بدنايل، إحدى قرى وادي البقاع، بمناسبة إحياء ذكرى وفاة الإمام زين العابدين، الإمام الرابع من الأئمة الإثني عشر. من بين خطاباته، بقي هذا الخطاب الأكثر تأثيراً الذي يتذكره أتباعه على أحسن وجه. كان دلالة على العبء الذي انطوى عليه الإسم القديم.

في معرض دراسة أصل الكلمات وتاريخها، كان أصل كلمة «متاولة» أو «متوالي» غامضاً. لكن الأصل لم يكن مهماً جداً. كان ثقل الكلمة وتاريخها التي أصبحت عنواناً للهزيمة والإذلال. كان الرحالة قد تكلموا عن المتاولة المضطهدين. وكان سُنّة المدينة قد سخروا من المتاولة الوسخين. حتى أن الشباب الكثيري التنقل والمصقولين من الطائفة الشيعية كانوا قد سخروا من المسنّين، المتاولة الميؤوس منهم. كان المتاولة عامل التنظيفات، الحمّال، المرأة

(٤٠) النهار، ١٨ شباط ١٩٧٤.

الحامل مع طفلين أو ثلاثة أطفال يتعلقون بثوبها. كانت هناك لهجة (متوالية) في التكلم، نغم خاص يكشف الشيعة. وقبل كل شيء، كانت هناك كلمات استهزاء تقذف في وجه أي شيعي متغطرس في المدينة، «متوالي أبو ذنب»، تعبير كان أهل المدينة قد لقّبوا به سكان المنطقة النائية. لذا كان يتوجب ترك اللقب القديم، وكان على الرجل الذي يدعو الناس للثورة والتحدّي أن يزوّدهم بهوية جديدة. أضف إلى ذلك، أن السياسة الجديدة كانت تتطلب اسماً جديداً. لكن الناس لا يمكنها إعادة بناء العالم وقهر المخاوف والإغراءات القديمة بدون أخطاء، خاصة عندما تضع جانباً أسماء وهويات قديمة. ودائماً يختبيء القديم تحت كل ما هو جديد. اما الأسماء الجديدة هي تعبير عن النوايا، وتعطي بعض الشجاعة، وبعض الأدلة على أن الناس مصممة على تحطيم القيود القديمة. الناس التي قال لها الإمام موسى الصدر أن ترمي جانباً الإسم القديم تمّت طمأنتها في مناسبة أخرى على أن هناك «مئة مليون شيعي في العالم»، وأن هذه الكتلة الضخمة من البشر موجودة في «إيران، العراق، الإتحاد السوفياتي، أفغانستان، الهند، باكستان، الصين، تركيا، سوريا، لبنان، الخليج، المناطق الشرقية في العربية السعودية، اليمن، وعُمان»(٤١) كان الهدف من تحديد المناطق الشيعية المميّزة: نطاق وهيبة الأماكن النائية. لقد كانت محاولة لتخليص الناس من الصفة الريفية ومن شعورهم بالإنعزال.

إضافة إلى ذلك، منح المذهب الشيعي نفسه معنى سياسياً واضحاً. المذهب الشيعي، قال الإمام موسى الصدر في صيغة مهمة، لم يكن مذهباً إنما «حركة اصلاح تقودها النخبة» التي بقيت مخلصة لروح الإسلام «في وجه سلطة جائرة». في كلام آخر، المذهب الشيعي لا يمكن حصره بالشعائر

(٤١) محاضرة عن المذهب الشيعي «حركة وليست مؤسسة»، نشرت في نخبة من المحاضرات، صفحة ٢.

والعلم الديني. كان هناك أربعة مذاهب سنّية معترف بها. النظرة إلى المذهب الشيعي كمذهب آخر ـ ومن ثم منشق ـ كانت قد حولت المذهب الشيعي إلى غيتو محاصر في العالم الإسلامي. تلك النظرة تطابقت مع الحالة الإجتماعية للشيعة في العالم السّني الكبير لسوريا وفلسطين. رجل الدين المثقف في إيران والعراق قدّم تصوراً مختلفاً أوجد مركزاً «للحركة» الشيعية ضمن الإتجاه السائد في المجتمع الإسلامي: «في كل ما جاء إلينا. . من الأئمة الأثني عشر الذين تشكّل أقوالهم وحياتهم المصدر الرئيسي للمذهب الشيعي، هناك التزام أساسي بالخط الإسلامي العام. ومن يسعى للمعرفة ويتمعن في تعاليم الإئمة الاثني عشر لا يمكنه الخروج بانطباع الطائفية، وبأي تباعد عن الأمة، الأمة الإسلامية»(٤٢).

إذا لم يكن نسب التباعد بين المذهب الشيعي و«الخط الإسلامي العام» إلى عالم العقيدة الدينية، كان يجب اكتشافه في الصراع القائم في العالم الإسلامي بين الحكم الظالم والثورة الشرعية: في كلام آخر، وحسب صفة رجل الدين هذا، تلك «النخبة الثورية»، التي اعتنقت المذهب الشيعي، حاربت من أجل الاسلام ذاته:

«السبب الرئيس للضغط الرسمي ضد الشيعة تاريخياً هو أنهم بالفعل كانوا الأقلية النخبة مع نظرة شاملة لنظام إسلامي كان في حالة نزاع مع الأنظمة السائدة خلال مراحل التاريخ الإسلامي. وهذا ما يفسر أن مؤلفات الائمة والفتاوى الدينية كانت مشبعة بالمواقف الواضحة ضد الحكم المنحرف، ضد السلطة الجائرة. . .

كان من الطبيعي أن هذه الأقلية النخبة، التي كانت تقاتل باسم الإسلام، أن تتمّ محاربتها بجميع الوسائل المتوفرة ـ من القتل إلى النفي ومن

(٤٢) محاضرة عن المذهب الشيعي «حركة وليست مؤسسة»، نشرت في نخبة من المحاضرات، صفحة ٢.

السجن إلى الاتهامات بالانحراف. وفي كل ارجاء العالم الاسلامي اليوم يمكن إيجاد بقايا هذه الأساليب القديمة في التعامل مع المذهب الشيعي»(٤٣).

وهكذا تمّ إعطاء الألم والعزلة الشيعية قراءة نبيلة، وأعطي الناس المرهقين من جراء تاريخ الحصار رؤية جديدة للعالم الاسلامي الأكبر ولدورهم فيه. وحتى الآن ما زالت المنطقة الشيعية في لبنان صغيرة وخائفة أكثر مما ينبغي لأن تنتج رؤية خاصة بها. هذه المنطقة التي قدّم لها رجل الدين قوة مذهب شيعي أعيد تفسيره: مذهب شيعي مجرد من حزنه وشعوره بالاحراج والهزيمة.

كما يحدث دائماً مع هذا الرجل السياسي المبجّل، كانت إعادة تفسير الماضي وسيلة سياسية. لغاية أواسط السبعينات، كانت الحركة الشيعية للإمام موسى الصدر قد وقفت على الحد الفاصل بين هيمنة مارونية على لبنان ووجود فلسطيني مسلح ومتزايد. كانت للموارنة ايديولوجية لبنان كبلد فريد في الشرق العربي وشرعية ما تبقى من الدولة. وكانت للفلسطينيين أفكار التاريخ العربي وأولوية القضية الفلسطينية على مطالب أخرى. بعد أن طردوا من الأردن في حرب أهلية شرسة خلال سنتي ١٩٧٠ ـ ١٩٧١، باشر الفلسطينيون في إقامة دولة ضمن دولة في لبنان. لبنان، قال الفلسطينيون، هو جزء من «الوطن العربي»، وهم لا يمكن أن يقبلوا بقيود على حقهم بضرب اسرائيل من لبنان. كانت القضية الفلسطينية قضية عربية طاغية. وكان لبنان «حديقة بدون سياج»(٤٤)، حسب ما صرّح به، مستعيداً الأحداث الماضية، الزعيم الفلسطيني، شفيق الحوت، كان في لبنان حكم ضعيف. نظام اجتماعي ممزق، وطوائف متنازعة. مشى الإمام موسى الصدر بين قطرات المطر؛ كان رجلاً رشيقاً. لكن الوقت والمكان كانا قاتمين أكثر مما ينبغي لأي شخص لأن يدير

(٤٣) محاضرة عن المذهب الشيعي، سالف الذكر.
(٤٤) جاء هذا الوصف في اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر في شباط ١٩٨٣.

الأحداث فعلاً. وفي وضع من الاضطراب المتفاقم، أصبح الخيط ما بين الرشاقة و«الخيانة» رفيعاً جداً. كان لبنان بلداً يُطالب به معسكران مسلحان، وواقعان: واقع ماروني وواقع فلسطيني مزيف بألبسة القومية العربية. وكان رجل الدين قد تعلم الشروط والقواعد الخاصة في بلده بالتبني. وكان قد شرع في تعليم الناس الاصرار على مطالبهم من الدولة، وعلى اسقاط خوفهم واذعانهم، حالة الفوضى أعطته المجال والأدوات السياسية ليعمل معها. لكن اضطرابات الحرب الأهلية، التي اندلعت في أواسط السبعينات، مهدت فيها بعد لمطالب شاملة ـ فلسطينية ولبنانية على حد سواء ـ ووضعت رشاقة رجل في الوسط على المحك. كان الإمام موسى الصدر قد تبنّى لبنان؛ وعبر الحد الفاصل العربي ـ الفارسي. وخلال العقد السابق، كانت الشكوك والريبة قد تعقبته. كان لدى منتقديه أساليبهم في رفض هويته الجديدة، وفي تذكيره بأصله الفارسي كما أن مرحلة من الحرب الأهلية والقهر جلبت في اعقابها ضغوطات أكبر لأن يكون. لبنانياً كان ذلك يتطلب الولاء لمفهوم محدد وجامد للبنان ومدعوم بقوة من قبل الموارنة. ولأن يكون عربياً، رجل مولود في إيران، كان يتطلب ذلك الاعتراف من قبل الفلسطينيين، القبول بالامتيازات التي تدافع عنها المنظمات الفلسطينية المسلحة، والقبول بالأعمال الانتقامية التي تشنّها اسرائيل في جنوب لبنان.

التساؤلات حول شخصية موسى الصدر المتعددة، حول «عروبته»، حول ولائه للبنان لم تكن تساؤلات حول نفسه فقط؛ كانت في نواحٍ عديدة، تساؤلات حول الهوية المثيرة للجدل للطائفة التي قادها.

مرحلة المواقف الحرجة:
الإمام موسى الصدر والسير بين قطرات الماء

كانت عند الإمام موسى الصدر رغبة الغريب في الارضاء، هذه كانت إحدى مزايا شخصيته التي أشار إليها أحد المعجبين المسيحيين الحادّي البصر عندما وصف لقاءات رجل الدين مع الآخرين كـ «شعائر اغراء»[1]. كانت الميزة التي نسبها البعض في لبنان من الذين كانوا يعرفونه إلى مسقط رأسه. (وكانت دائماً تُوضع صورة إيران، البارعة، الرشيقة، الغامضة، إلى جانب حضارة عربية صارمة وقاسية).

كانت أيضاً الميّزة التي أثارت أسئلة حول اخلاصه: كان الإمام موسى الشخص الذي ظهر في الكنائس ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين على حد سواء. والرجل الذي حرص على تقديم الإجلال إلى الولاء للقومية العربية، وعلى الإشارة إلى الخليج الفارسي بالخليج العربي(وهي مسألة أصرّ عليها القوميون العرب). مع ذلك، كان الحرس الإيرانيون والمتآمرون ضد شاه إيران جزءاً من حاشيته، وقيل إن السيد كان يشعر وكأنه في بيته عندما يكون في وسط أولئك الإيرانيين. بشر بأنباء سارة عن السلام والتعايش، لكنه ترأس مهرجانات مسلحة وهو الذي قال لأتباعه إن «السلاح هو زينة الرجال». كانت المؤسسة اللبنانية قد فسحت مجالاً له؛ وكان ممثلو رئيس الجمهورية والوزراء يودعونه ويستقبلونه في المطار أثناء رحلاته المتكررة؛ مع ذلك ألصقت به رياح التآمر، والشعور أنه رجل مع جدول أعمال خاص به.

بالنسبة للإسلام (السُنّي) في العالم العربي الأكبر، كان غموض رجل الدين غموض إيمانه. في عملية تطور الحضارة الإسلامية، كان هناك توجهان

(١) حرب الآخرين، غسان تويني، سالف الذكر، صفحة ٩٨.

حضاريان متميزان: توجه ظاهري شدّد على المعنى الظاهري للكتب الدينية، النظام الظاهر للأمور، وتوجه باطني شدّد على المعنى الباطني للإيمان، التوجّه السرّي، الذي كانت تجهله الأكثرية.وكان معروفاً فقط لدى المطلعين، لأولئك الذين تبعوا إماماً ما. كان التوجه الظاهري توجّه الإسلام السّني السائد ومدنه ومؤسساته الواثقة من ذاتها، بينما أصبح التقليد الباطني حضارة الشيعة المحرومين والجماعة التي تعمل في السر. ويظهر هذا التقليد الباطني مجسداً بشكل مثالي في شخص الإمام موسى الصدر في لبنان. لا أحد كان يعرف تماماً ماذا كان يريد «الإمام» وإلى أين انتمى، عندما انهارت الأمور في لبنان، عندما حمل الناس السلاح وكان عليهم أن يعلنوا أنفسهم، وتمّ فرز البلد إلى طوائف متقاتلة. رجل الدين، الذي كان عرضة للعديد من التلميحات والرسائل الموجهة والذي رفض التباهي في العلن، لم يكن لبنانياً بشكل كافٍ في نظر الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين.

خلال صعوده للسلطة كان الإمام موسى الصدر قد تودّد إلى النخبة المارونية، كان تقبلهم له مهماً لجهوده الأولى. الإمام موسى الصدر والنبلاء الشيعة من حوله شاركوا مع الأوصياء الموارنة في معارضة مشتركة ضد القابلية السنّية للقومية العربية. كلا الطرفين الشيعة والموارنة كانا من حاملي رسالة التقاليد الإنعزالية والانفصالية عن العالم العربي حول لبنان. كان طرح قضية موسى الصدر للموارنة القضية المقياس التي يطرحها الاصلاحيون بالنيابة عن شعب محروم. الشيعة، قال الإمام موسى، هم أناس من لبنان؛ إذا أُعطوا نصف فرصة، وإذا أُعطوا حصتهم اللائقة من الغنائم، من رعاية الدولة، سوف يكونون «الأبناء المخلصين» لهذا البلد

لكن مع الهجمة الفلسطينية على لبنان، لم يكن الموارنة في وضع بحث الإصلاح، وبسرعة فقد الإمام موسى الصدر المساندة المارونية، تأمل الموارنة ملياً بطهارة البلد وبسيطرتهم على عالمهم الخاص. لعقدين من الزمن، وبعيداً

عن الإنفعالات السياسية، كان الحظ قد حالف الموارنة لأن يبقوا لبنان خارج النزاع العربي - الإسرائيلي، غير أن الحظ بدأ في النفاد. بعد طردهم من عمان على أيدي جيش البدو التابع للملك حسين، أسس الفلسطينيون قاعدة جديدة من السلطة في لبنان. وحوّل اللاجئون الفلسطينيون الذين كانوا خائفين في الماضي، مخيماتهم إلى قلاع مسلّحة. بينما كان الجبل الماروني يراقب التغيير مع خوف متزايد: رجال جدد مع السلاح، مصادر جديدة للاضطرابات، «غرباء» يتكاثرون ويهدّدون عالماً مألوفاً. ولم تعد ممكنة المحافظة على معنى الأمن الذي كان قد جعل الموارنة يقبلون بلبنان الكبير. بلدهم المحبوب كاد يصبح عالماً غريباً. علاوة على ذلك، دفع الخوف بالموارنة إلى ما وراء خطهم الخاص بهم؛ ارادوا أن يكونوا في أرض صلبة. العائلات الرئيسة منهم، التي كانت تعرف العالم العربي، والتي كانت في السابق واثقة من حقها في الحكم، من مقدرتها على عقد صفقات معقولة مع الطوائف الأخرى في البلد، حتى مع العالم العربي، هذه العائلات كانت تخسر المعركة لصالح أناس أكثر تزمتاً. وكما قال أحد المراقبين. كان التغيير في الطائفة المارونية الذي ولد ميليشيات مقاتلة، «انتقام الماروني الصغير، الشخص الريفي، ذو الرقبة الحمراء هو شخصية المقاول المألوفة»(٢) البلد المنتهك كان لا بد المطالبة باسترداده، لكن العالم العربي تساهل مع حالة الغليان في لبنان، ومنح الفلسطينيين حرية العمل، ووفر لهم المال والسلاح. كما أن عدم تحسّس العالم العربي بالمسؤولية ولّد شعوراً مريراً بالخداع عند الموارنة.

الإحساس الماروني بالخوف حول بلد تحت رحمة الرياح والتيارات يمكن اكتشافه في قضية ملفتة للنظر طُرحت سنة ١٩٧٢: مناقشة مشروع قانون

(٢) توفيق خلف، الكتائب والطائفة المارونية: من اللبنانية إلى المارونية، لندن، دار إثياك، ١٩٧٦، ص ٧٥.

يمنح رؤساء الدول الأجنبية الحق في شراء الأراضي في لبنان دون أية قيود. أرض لبنان، قال معارضو مشروع القانون من الموارنة، سيتم شراؤها بأكملها إذا تمت المصادقة على القانون. ثم جاءت القضية في الرسالة الرعوية للبطريرك الماروني في تلك السنة. البلد، قال البطريرك، هو على مفترق الطرق: «تكاثرت الخطط التي ستضع الأراضي اللبنانية، الجنسية اللبنانية، بالإضافة إلى موارد البلد في متناول الجميع، والتي ستفتح الأبواب على مصراعيها، تُقحم سياسته في المجهول، تشوش علاقاته، وتجعل خياراته غامضة»[٣].

علاقة موسى الصدر ـ والشيعة بشكل عام ـ مع الفلسطينيين كانت لا تزال متشابكة ومثيرة للجدل أكثر. كان رجل الدين قد ارتجل ووقف على الحدّ الفاصل بين الفلسطينيين والموارنة عندما كان لا يزال ممكناً فعل ذلك. كان قد أدلى بالتصاريح القاعدة للولاء للقضية الفلسطينية المطلوبة في السياسة العربية، عودة إلى الوراء في سنة ١٩٧٠، عندما كان الوجود الفلسطيني في لبنان لا يزال بسيطاً وكان الإمام موسى الصدر نفسه لا يزال في طريق الصعود، اعتبر «أن طبيعة حرب الفدائيين هي الإنطلاق من قواعد أرضية مجاورة لاسرائيل. فالمبدأ هذا صحيح كأساس. ولا يمكن أن يتعارض مع سلامة لبنان». غير أنه عاد وأضاف، «نطالب بضرورة تنظيم عمل المسؤولين مع المقاومة وتحمّل مسؤولياتهم، فإذا كانت حركة المقاومة تنطلق من أمكنة هي داخل الأراضي اللبنانية وليس من داخل القرى، فلن يكون عندئذٍ لاسرائيل المبرر لقصف هذه القرى، ومادام الإسرائيليون لا يستطيعون وقف التسلل، فكيف يطلبون من اللبنانيين أن يفعلوا ذلك. فليس لبنان بوليساً لإسرائيل»[٤]. كان قد وضع نفسه، أو حاول وضع نفسه، في موقع

(٣) الرسالة الرعوية للبطريرك الماروني الكاردينال بولس المعوشي، ١٩٧٢ وقد جاءت في نص كامل في برقية السفارة الأميركية في بيروت في ١٢ كانون الثاني ١٩٧٢.

(٤) النهار، ٢٧ أيار و ٢ حزيران ١٩٧٠.

بين الموارنة المعارضين للوجود الفلسطيني المسلح في البلد والسنة الذين قدموا دعمهم للفلسطينيين والشيعة معاً. غير أنه بعد اتساع دائرة العمليات الفلسطينية ضد إسرائيل، والأعمال الإنتقامية الإسرائيلية في جنوب لبنان التي جلبت في أعقابها مزيداً من المعاناة لطائفته، أصبح من الصعب على الإمام موسى إعطاء جواباً مترابطاً ومنطقياً. الشيعة، قال الإمام موسى لأحد الموظفين الدبلوماسيين الأميركيين، تعاطفوا مع الفلسطينيين، لكن «تعاطفنا لم يعد يشمل الأعمال التي تُعرض شعبنا لمزيد من البؤس والحرمان»[٦].

القضاء والقدر لعب واحدة من ألاعيبه القاسية والساخرة. أصبحت القرى والمدن الشيعية، التي أهملها التاريخ والأحداث الكبيرة، في وسط عاصفة، وتحولت هذه القرى ذات الطرقات غير المعبدة، حسب التخطيط الفلسطيني للأمور، إلى قاعدة من أجل «استرداد فلسطين العربية». لم يتقدم الفلسطينيون بالاعتذار إلى رجال ونساء جنوب لبنان على إفساد حياتهم. المكان تحوّل إلى جزء من شيء أكبر منه. المنطقة النائية، التي لا تزال بأكثريتها صامتة، أصبحت تواجه أصحاب الشعارات الأقوياء: كانت مباراة غير متكافئة. جاء المال العربي إلى الفلسطينيين من دول الخليج، ومن ليبيا. ولم يكن بمقدور الحركة الشيعية المولودة حديثاً والتي يقودها رجل الدين أن تضاهي هذه المنظمات الفلسطينية. لم يكن الشيعة منظمين ويتمتعون بقوة الكلام كالفلسطينيين. بينما كان الفلسطينيون ينتمون إلى الاتجاه السائد في الحياة السياسية العربية؛ كانوا أهل النظام من سكان المدن العربية، أكثريتهم من المسلمين السنّة. عندما طُردوا من بلادهم في سنة ١٩٤٨، كانوا قد شقوا طريقهم إلى القصور العربية والحركات القومية على حدٍ سواء. كانوا يعرفون

(٥) برقية السفارة الأميركية في بيروت، ١٠ تشرين الأول ١٩٦٩، ملف وزارة الخارجية الأميركية رقم ٤١٤.

(٦) برقية السفارة الأميركية في بيروت، ٣ حزيران ١٩٧٤، ملف وزارة الخارجية رقم ٦٥ صفحة٧.

العالم العربي وأساليبه والأوصياء على سلطته؛ شاركوا في تلفيق أساطير ورموز القومية العربية. لم يكن العالم العربي قادراً على أن يسترجع لهم ما كانوا قد فقدوه في سنة ١٩٤٨ لصالح الصهاينة، غير أنه فعل شيئاً أحسن من ذلك. دعا الفلسطينيين إلى مجالس السلطة العربية. القضية الفلسطينية كانت إلى حد بعيد ضاغطة في العالم العربي الأوسع أكثر من قضية سكان شيعة هامشيين. وإلى ذلك النظام السياسي والحضاري الأوسع كان الشيعة «غرباء».

كان الشيعة يعرفون الكفاية عن إسرائيل، الدولة الجاثمة على حدودهم. لم يكونوا بحاجة إلى معرفة مفصّلة تخبرهم ماذا سيحلّ بهم إذا ما اجتاحت إسرائيل لبنان. كانوا متأكدين أن الفلسطينيين سيقهرون، وأن عالمهم الخاص سيتزعزع أثناء العملية. كان سكان الأكواخ الشيعة في بيروت وضاحيتها الجنوبية قد عاشوا على مقربة من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. بالنسبة للشيعة، انتصبت المخيمات الفلسطينية كرسالة تذكير للخراب الذي يحلّ لشعب يُحرم من أرضه. غير أن غضب المخيمات الفلسطينية وحساسيتهم السياسية لا يمكن أن يطبق على واقع الشيعة. كانت للشيعة شكوكهم وحذر حضارتهم الريفية. كانت عندهم الأرض والمنازل ليخسروها. كانوا يريدون أن تُخمد الحرب الإسرائيلية ـ الفلسطينية لتفادي غضبها الشديد. مثل العرب الآخرين البعيدين عن متناول إسرائيل، أرادوا فقط القول إنهم يقفون إلى جانب قضية الفلسطينيين. لكن بالنسبة لهم، لم يكن ممكناً كسب أوراق الاعتماد العربية هذه. وهكذا شكلت البنية التحتية الفلسطينية منطقة نفوذ هائلة في الأحياء الإسلامية في بيروت وفي جنوب لبنان.

الشعب الذي مثله الإمام موسى الصدر، وجد نفسه بين المطرقة والسندان، بين مطالب الفلسطينيين وحقائق القوة الإسرائيلية. جاء الجحيم إلى القرى والمدن الهادئة في جنوب لبنان. وكانت النتيجة نزوحاً فعلياً من

الجنوب إلى أحياء بيروت. وكان الناس أسرى حرب إسرائيلية ـ فلسطينية وفي موقع يتعذر الدفاع عنه. كانوا إمّا «متعاطفين مع الارهابيين» على حد قول الإسرائيليين أو «متعاونين مع إسرائيل» على حد قول الفلسطينيين. العمليات الفلسطينية جلبت أعمال الانتقام الإسرائيلي؛ في البداية نُسف عدد قليل من المنازل؛ بعدئذٍ هُدمت قرى بأكملها ـ وهُجر أهلها.

القرى المتقلّصة ذات الطرقات غير المعبّدة ربما تكون قد بدت في الماضي كسجن؛ كانت هناك عناية في الأرض واشمئزاز منها في ذات الوقت. لكن عندما جاء الرحيل القسري، عندما أصبحت أحياء بيروت مكاناً للاستقرار بدلاً من زيارتها عند الحاجة؛ جعل الحنين من تلك القرى أمكنة جيلة للتخيلات الحنونة. الشيعة، الذين أضاعوا كل شيء، طُلب منهم أن يتحمّلوا. وكان يجب إخماد الغضب على الفوضى والتبجّح الفلسطيني. حتى أن الناس الذين كانوا يشكون ويتساءلون عن حكمة المسلك الفلسطيني في لبنان، كانوا يتهمون «بالخيانة». كان صعباً على الشيعة، طائفة على هامش التاريخ العربي، إيجاد الثقة بالنفس والقول إنهم لا يستطيعون أن يقبلوا تدمير عالمهم الخاص.

الإمام موسى الصدر نفسه كان بشكل خاص غير مجهّز بوسائل التعامل مع الفلسطينيين. كان حريصاً، بشكل مفرط أحياناً، لتأكيد ولائه للقضية الفلسطينية. لم يكن فقط يعرف أنه كان مراقباً أو مشكوكاً فيه، كان عنده نوع من الحافز ليلعب دور الشخصية القومية الإسلامية، وليكون مخلصاً لإحدى قضايا القومية العربية، كردٍ على واقع ولادته الإيرانية. كان المذهب الشيعي، كما أشار العالم الديني «حميد الغار»، قد «عزل إيران بشكل فعلي عن بقية العالم الإسلامي، في الشعور وفي العمل على حد سواء. . . . وزادت تقاليد الفردانية في الحضارة الإيرانية الإحساس بالانعزال»[٧] لذلك

(٧) الدين والدولة ـ في إيران، حميد الغار، دار جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٩، صفحة ٢٥.

كان الايرانيون الهاربون من ذلك الانعزال ميالين لتضخيم ولائهم لحقيقة إسلامية أوسع خارج إيران.

في المأزق الفلسطيني والعربي للإمام موسى الصدر كانت تُسمع أصداء قصة مشابهة إلى حدٍ ما: قصة الأيديولوجي وخبير الدعاية الكبير من القرن التاسع عشر جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧). كالإمام موسى الصدر، وُلد جمال الدين في إيران، ابن سيّد. لكن إيران كانت صغيرة بالنسبة للسيد جمال الدين، ومذهبها الشيعي كان عبئاً كبيراً لرجل أراد أن يعمل في سياسته القومية الإسلامية. أخفى جمال الدين هويته الإيرانية، إدّعى سلالة في افغانستان السنّية، وشرع في مهنة سياسية من الشعارات والمكائد التي أخذته إلى افغانستان، الهند، مصر واستامبول. زوّر هوية إسلامية شاملة أكثر. بلد ولادته، قال جمال الدين: «كان قفصاً ضيقاً صغيراً»[٨]. في محيطه، أعتبر مشروع جمال الدين دفاعاً عن عالم إسلامي مهدّد من قبل الغرب.

لم يكن الإمام موسى الصدر قد أنكر مسقط راسه أو زوّر هوية جديدة. كان قد عبر إلى وطنه الجديد بصفة رجل دين شيعي ذو ولادة إيرانية، إنما من أصل لبناني. لكن يجب عدم الاستخفاف بمعضلة ولادته وإفراطه في التعويض عما ولدته هويته الإيرانية والشيعية في المحيط «العربي» الواسع. كان الإمام موسى الصدر مسافراً مجبراً: قلقه أخذه إلى الدول العربية في الخليج، إلى الكويت والعربية السعودية وقطر، إلى مصر والجزائر. غير أن تقبّله في ذلك العالم العربي، الذي تودّد إليه والذي بقي فيه غريباً، لا يمكن أن يتحقق دون موافقة فلسطينية. علاوة على ذلك، كان هناك ميزان القوى العسكري القاسي: كان الفلسطينيون مسلحين والشيعة لم يكونوا كذلك. وكان على الإمام موسى الصدر وعلى الناس من حوله أن يبتلعوا الإهانات.

(٨) السيد جمال الدين الأفغاني، نكي كيدي، سالف الذكر، صفحة ٣٤.

في منتصف سنة ١٩٧٥، كان لبنان في حالة مخاض لحرب أهلية شاملة. في شهر نيسان ١٩٧٥، اندلعت الحرب، التي أصبحت طريقة للحياة في لبنان لعدة سنوات قادمة والتي ربما قد تصبح عتيقة الطراز، في قتال عنيف بين حزب الكتائب الماروني والفلسطينيين. كان يوم أحد، في ١٣ نيسان: كان واحد وعشرون فلسطينياً في أوتوبيس يمر في عين الرمانة، ضاحية مسيحية من بيروت، معقل لحزب الكتائب، كانوا يمرون في المكان فور اغتيال مرافق رئيس الكتائب بيار الجميّل، وعلى أيدي ثلاثة مسلحين مجهولين. تمّت مهاجمة الأوتوبيس وقتل جميع ركابه.

كانت حادثة عين الرمانة الشرارة. غير أن الصراع من أجل البلد كان قيد التحضير للسنوات الأربع أو الخمس الماضية. كانت الميليشيات، العديدة، تتسلّح ؛ والثقة في الدولة والخوف من سلطتها كان يتآكل. وأصبح البلد مفتوحاً ومشرّعاً لجميع الاحتمالات في أعقاب حادثة عين الرمانة. بدأ القتال، ولم يكن هناك أي احتمال لأن ينتهي بسرعة.

بدأت أفكار جديدة في الظهور، منها تبريرية في البداية، وبعدئذٍ حماسية. فمن دار الفتوى، صدر القرار القتالي، مع لحن جديد، ضد هذا النظام، نظام حكم الطوائف: «المسلم الحقيقي» في لبنان، قال بيان دار الفتوى، «يمكنه أن يكون مخلصاً فقط إلى ما يفرضه عليه الإسلام، بما في ذلك إقامة دولة إسلامية». نظام الحكم الذي أخمد الخلافات، كان يرسم خطوطاً رفيعة.

في أواخر شهر حزيران سنة ١٩٧٥، اعتصم الإمام موسى الصدر في أحد مساجد بيروت وبدأ صياماً كبادرة احتجاج على العنف في البلد. وصل إلى مسجد العاملية مع أربعة من مساعديه، عباءته في يد ومحفظة في اليد الأخرى. جلس في إحدى زوايا المسجد وأملى رسالة حول الخطوة التي أقدم عليها. «العنف»، قال السيد، «دنّس البلد، جئت إلى بيت الله، وزادي هو

كتاب الله (القرآن) وقطرات قليلة من الماء. سأبقى هنا حتى الموت، أو حتى يتمّ إنقاذ البلد. ودّعت عائلتي، زوجتي وأطفالي، وجئت إلى هنا لأطلب من الله أن ينقذ هذا البلد».

جاء أتباعه في أعداد كبيرة إلى المسجد، كما كان ربما يعرف أنهم سيفعلون ذلك. الحدث تمّ تقديمه مع الميل المألوف للإمام موسى الصدر نحو وسائل الإعلام والدعاية. لقد كان الأمر أكثر من حدث. إنه محطة تاريخية في حياة الطائفة. الإمام الصدر يعلن الثورة على طريقته: ثورة اللا عنف. الحرّاس وحدهم كانوا أصحاب حق في حمل السلاح. لكن العديد من أتباعه جاء مع السلاح؛ قال لهم الحرّاس: «سماحة الإمام يرفض أن يدخل أحد هذا المسجد ومعه سلاحه». وقال الإمام موسى، «حركتنا هي حركة سلمية». في الأيام التي تلت، اندفعت النخبة في البلد لتأييده. استقطب الشخصيات السياسية والدينية من مختلف الطوائف، فضلاً عن رجال الفكر والعلم والصحافة والأعمال ووفود المواطنين والمواطنات.

«مطالبنا واضحة»، قال الإمام موسى الصدر، «نريد وقف النزف الدموي الجاري واستعجال تشكيل الوزارة، واستعجال تلبية مطالب المحرومين، ونريد التحقيق مع من أوصل لبنان إلى هذا الدرك، من جعل لبنان الحوار لبنان الخصام، ومن جعل لبنان المحبة لبنان البغضاء». «سأبقى هنا»، قال السيد، «حتى تسكت المدافع».

في اليوم التالي وصل وفد من جمعية نساء جبل عامل وطلبن من الإمام الصدر السماح لهن بالاعتصام... وبعد حوار طويل معهن قبل الإمام باعتصام نسائي رمزي. أجري له فحص لضغط الدم من قبل أحد الأطباء ـ كان يعاني من ضغط دم منخفض ـ فشرب كوباً من المياه المملّحة، بعدئذ ألقى خطبة يومه الثاني: «... إننا سنفرض اللاعنف، هذا أسلوبنا وهذا خطنا، والذي يأتي إلى هنا ليكون معنا مسلحاً فإننا نقول له: إرحل عنا، لن

أشهر سيفاً، وسيفنا هو كلمات الله، قوتنا حسن نيتنا، ومن يريد شهر السلاح فليذهب إلى غيرنا». مجموعة من رجال الدين المسيحيين انضموا إلى سيل الزائرين. «لبنان كان معه»، قال له أحد المطارنة الكاثوليكيين. البطريرك الماروني اتصل هاتفياً وقال إن صيامه واعتصامه «خطوة مباركة». أحد الكهنة الموارنة أرسل مفيداً أنه هو أيضاً في صيام. وفي مدينة صور، بدأت مجموعة من النساء المسيحيات والمسلمات الصيام، وقالت إنها ستتوقف عن الصيام فقط بناء لتعليمات من الإمام الصدر.

جاء مزيد من المؤيدين في اليوم الرابع، مرة ثانية، ظهر وفد كبير من النساء، نساء من الأحياء الفقيرة (الشيعية) في الضاحية الجنوبية من بيروت، وقلن إنهن سيبقين مع الإمام حتى ينتهي صيامه. تحدث إليهن عن دور المرأة ونضالها في الإسلام «منذ بزوغ التاريخ الإسلامي». بعدئذ شرح لهن ماذا كان يفعله؛ قال إنه كان قد لجأ إلى الاعتصام لإنقاذ الأبرياء الذين كانوا يموتون، ضحايا البربرية والجهل»[٩].

خارج المسجد، في مدينة بيروت وضواحيها، استمر العنف. القناصة ـ ظاهرة جديدة جاءت لتلخّص الحرب القذرة في لبنان ـ طاردوا شوارع بيروت. في اليوم الرابع لاعتصام الإمام موسى الصدر، خيم صمت مخيف على المدينة. أخليت الشوارع من المارة والسيارات. وفي مقال إخباري حزين ويدعو للسخرية، قال أحد الصحافيين إن شوارع المدينة المهجورة كانت قد خيبت آمال القناصة: لم يكن يوماً جيداً بشكل خاص لعمل القناصة. الحدث في المسجد ربما كان عملاً غير بارع أو ميؤوس منه. لكنه كان أفضل من الحرب التي احتدمت خارج المسجد.

(٩) النهار، من ٢٧ حزيران حتى ٢ تموز ١٩٧٥، برقية السفارة الأميركية رقم ٨٣٣٥، بيروت ٢ تموز ١٩٧٥.

الليلة الرابعة من صيام الإمام موسى كانت ليلة رهيبة في بيروت، وفي بقية البلد. إحدى البرقيات الدبلوماسية الأميركية وصفت حالة الفوضى على الشكل التالي:

«عانى البلد بشكل عام وبيروت بشكل خاص من ليلة أخرى سيئة كأية ليلة سبقتها. . . عصابات جوالة تقاتلت مع سكان مسلحين في أحياء عديدة من المدينة. الزاحفون في الليل وأشخاص حقيرون محليون آخرون، مرة ثانية، قاموا بجولاتهم زارعين المتفجرات في كل أنحاء بيروت. في طرابلس أيضاً، سُمع أكثر من خمسة وعشرون انفجاراً خلال ساعات الظلام. كما أن زحلة كانت مسرحاً لاشتباكات بين الفرقاء المتنازعين. وقد ساد التوتر بعلبك، صيدا، صور والنبطية. إطلاق النار في بيروت نفسها كان غزيراً جداً لدرجة أن سيارات الإطفاء عجزت عن الوصول إلى عدة حرائق كبيرة وأجبرت على التخلّي عن محاولات إخلاء الجرحى وقُدرت الإصابات بمئة قتيل وعدة مئات من الجرحى»[10].

أنهى الإمام موسى الصدر اعتصامه الذي استمر خمسة أيام، في ١ تموز. زاره في ذلك اليوم ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ووزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام، الذي كان قد أصبح وسيطاً ومفاوضاً لسوريا في لبنان. تشكلت حكومة الإنقاذ؛ فأنهى السيد صيامه بعد أن ناشده رئيس الوزراء المكلف إنهاء صيامه واعتصامه. كما أن الوعود قُطعتْ بأن هذه الحكومة سوف تنجح حيث كانت الحكومات السابقة قد فشلت، وأن الهدوء سوف يعود. وشكر الإمام موسى الصدر زواره في خطبة قال فيها:

«الحقيقة شرفني مجيئكم اليوم على رغم الأخطار التي تهدد حياتكم

(١٠) برقية السفارة الأميركية رقم ٨٣٣٥، بيروت، ٢ تموز ١٩٧٥.

وحياة كل من يحضر لأن مكاننا مطوق بالقناصة الجبناء الذين يختبئون ويتصدون للأبرياء. . .

كلنا نؤمن بالجهاد والحرب، لكن الأسلحة الثقيلة والخفيفة أصبحت في يد الوحوش الكاسرة. الأسلحة موجودة مع الأقلية من الناس ومن الحكام أيضاً. . . إذا أردنا أن نستعمل القوة، كل فرد منا يملك قوة. وعلى كل حال قرر اخواننا أن ينزلوا إلى بيروت بالأسلحة من بعلبك ومن القرى، ورفضنا. فكفى البلد احتراقاً لأننا نعيش في بلد عزيز كريم. . . وكل ما أقوله إننا نريد إنقاذ البلد حتى نؤكد أن أكثرية الشعب تريد العيش في سلام».

الإعتصام والصيام سلطا الأضواء على ما كان الإمام موسى الصدر قد اعتبره ميزته وميزة الناس الذين تبعوه. في الحرب القذرة، كان السيد وأتباعه يقولون إنهم بريئون. كان البلد بحاجة إلى بديل لاراقة الدماء فقدم نفسه كرجل يزوّد ذلك النوع من البديل السلمي. خارج حديثاً من صيامه، شرع الإمام موسى الصدر في رحلة إلى وادي البقاع، المنطقة ذات المدن والقرى المختلطة دينياً. تفقد بعض القرى المضطربة في وادي البقاع مع مطران كاثوليكي، وتعرض للمضايقة في إحدى هذه القرى من قبل سكانها الذين جاءوا لمشاهدته وسماعه. البلدة، دير الأحمر، كانت مسرحاً لاشتباكات بين الفئات المتنازعة. وكانت محطته الأولى بعد إنهاء صيامه.

لكن الإمام موسى الصدر لم يكن المهاتما غاندي، ولبنان لم يكن الهند. خمسة أيام بعد أن أنهى صيامه، كان على الإمام موسى الصدر أن يعلن وجود ميليشيا شيعية، كان قد أسس نواتها في وقت مبكر. كان قد قال عن نفسه إنه نشأ في إيران دون سماع صوت رصاصة، لذا كان التقليد اللبناني في إطلاق العيارات النارية في الفضاء، أثناء حفلات الأعراس والتجمعات الشعبية، يربكه دائماً. مع ذلك، وفي بداية شهر تموز، اعترف أن لدى الحركة الشيعية، المنتشرة والملتفة حوله، حركة مسلحة خاصة بها. حتى ذلك

الحسين، كان قد ادعى لنفسه الأساس الأخلاقي السامي، وقال إنه يقف خارج لعبة الميليشيات والأسلحة القذرة. كان قد تطرق إلى مسألة السلاح بشعور متضارب. من جهة، كان قد أطلق شعار «السلاح زينة الرجال»، وأنه لا يؤمن بالعنف، وأن العنف كان أحياناً مسموحاً به لتصحيح الظلم. من جهة أخرى، كان قد وعظ ضد جماعة العنف في لبنان، وضد انتشار الفئات المسلحة.

الإمام موسى الصدر اعترف واتباعه أنه كانت عندهم ميليشيا خاصة بهم وذلك بعد أن حصل حادث مفاجىء في وادي البقاع: سبعة وعشرون من اتباعه الشبان، من شيعة البقاع والجنوب ومدن أكواخ بيروت، قتلوا في مخيم للتدريب العسكري في البقاع عندما انفجرت صدفة مواد متفجرة ضد الدبابات كانت مخصصة لتدريبهم. اسم أمل، للميليشيا الشيعية، ارتُجل بسرعة. (أمل كلمة تعني أفواج المقاومة اللبنانية). كان يجب إعطاء تفسير لمخيم التدريب والتشكيلة العسكرية الأولى، قال الإمام موسى الصدر، إن الرجال في المخيم كانوا يتدربون للذهاب إلى الجنوب لمحاربة إسرائيل، كانوا مختلفين عن الميليشيات الأخرى. وإن الحركة التي انتموا إليها ستكون أنصار الجيش اللبناني في الجنوب. وفي مؤتمر صحافي، عرض الإمام موسى وثيقة خطها الجرحى بدمائهم: «دعونا نكون الشهداء الحسينيين» ـ تيمناً بالإمام الحسين، رمز الشهادة.

مع هذا الإعتراف العلني بميليشيا تحت وصايته، كان الإمام موسى الصدر قد اتخذ قراراً خطيراً لا رجوع عنه؛ أخذ القرار بطبيعة الظروف أي الخضوع للمنطق. كان الشيعة بحاجة إلى قوة مسلحة خاصة بهم. الفلسطينيون كان عندهم مقاتلوهم، وكذلك الموارنة. الدروز في جبل الشوف كانوا طائفة عشائرية مع تقليد عسكري طويل خلفهم. وحدهم الشيعة كانوا لا يزالون غير محضرين لقواعد البلد الجديدة. كان باستطاعة الإمام موسى

إلقاء خطب مثيرة للمشاعر وباستطاعته أيضاً القيام بإضرابات عامة أو الصيام احتجاجاً على هذا أو ذلك الظلم في الدولة. لكن هذه الأساليب نجحت فقط طالما ساد حد من السلام الأهلي. وفي مجتمع في حالة حرب، كان على الإمام موسى الصدر أن يعمل بموجب قواعده الجديدة.

العمل والتفسير المحرّف لم يتمكّنا من إخفاء مشاكل الإمام موسى الصدر السياسية مع الأعضاء المحافظين أكثر في المؤسسة الشيعية. كانت المؤسسة الشيعية لا تزال أسيرة ما بين رموز سلطة الدولة وبين السياسة الجديدة للميليشيات والسلاح. ولم يكن أعضاء هذه المؤسسة مستعدين للغوص في الأساليب الجديدة؛ كانوا يفتقرون إلى الوسائل والثقة بالنفس ليعلنوا أنهم أيضاً ـ كالموارنة والفلسطينيين ـ أحرار في اللجوء إلى الإعتماد على الذات وفي تأسيس جيش صغير خاص بهم. إضافة إلى ذلك، كان للإمام موسى عدد من الأخصام في المؤسسة الشيعية، متمثلين بقوة كاملة في المجلس الشيعي الأعلى. العديد من هؤلاء الأخصام، كان متلهفاً لوضع رجل الدين على جانب الفتنة، والمطالبة لهم بما تبقى من زخارف سلطة الدولة. أما الرجل، الذي كان قريباً من الأوصياء الموارنة ومن النخبة المسيحية في لبنان، كان يغامر الآن في أرض جديدة خارج الأمن والعالم المنظم للسياسة الشرعية. لم يبق كثيراً من الشرعية للإستناد عليها؛ ومع ذلك، كان لا يزال أعضاء المؤسسة الشيعية المسنون الهامدون، خائفين كثيراً من شق طريقهم الخاص.

الإمام موسى الصدر بذل قصارى جهده في ظل هذه الظروف. عمل على تبرئة المجلس الشيعي الأعلى من أية مسؤولية عن مخيم التدريب. وقال إنه ليس لأمل أية علاقة بالمجلس. غير أنه كان قد يئس من هذا المجلس: كانت فرصة له ليقول ذلك في العلن. في مأتم «شهداء أمل»، الذي تحوّل إلى مهرجان سياسي، بايعت الصيحات الإمام موسى الصدر كـ «إمام

المحرومين» و «إمام المجاهدين».

إلى صفوف أمل انضمت مجموعة متنوّعة وعريضة من الشباب الشيعة الفاعلين سياسياً. كان البعض من أمثالهم فاعلين في التنظيمات اليسارية والفلسطينية سابقاً، بعد خيبة أملهم مع الفلسطينيين واليسار، أرادوا الإنتماء إلى حركة «من طائفتهم الخاصة». كان البلد ييأس من حجج وادعاءات ايديولوجية وشاملة؛ وكان الناس يعودون إلى عالم أنسبائهم. أحد المحامين الشباب، من عائلة شيعية معروفة، كان قد لقي نصيبه مع الفلسطينيين عندما كان طالباً في الجامعة الأميركية في بيروت، وتم قطع علاقاته مع الفلسطينيين وانضم إلى حركة أمل خلال سنتي ١٩٧٢ - ١٩٧٥، هذا الشاب كان مثالاً يوضح هذا الإتجاه. «تجربتي مع الفلسطينيين»، قال الشاب، «أرجعتني إلى جذوري الشيعية. كما أن معاناة الشيعة على أيدي الفلسطينيين جعلتني أرى الأشياء بمنظار جديد». لقد كان قراراً صعباً، يقول محدثي عن قطيعته مع الفلسطينيين؛ كان «طلاقاً قاسياً» كان الفلسطينيون قد نسوا ما كان مفترضاً منهم ان يفعلوه في لبنان؛ وأن القضية التي جذبته، عندما كان في الثامنة عشر من عمره، لم تعد تؤازره بعد سبع سنوات. يقول الشاب، إنه بعد عدة سنوات من التجربة والزمالة مع الفلسطينيين، استطاع أن يرى بوضوح أكبر «الجوهر السنّي لحركتهم». وهكذا بعد مرور سنة صعبة من الوقوف على الحدّ الفاصل بين أمل والفلسطينيين، اختار أمل. في الماضي الذي سبق هذا الإختيار، كان هذا الشاب قد اعتبر نفسه كـ «رجل ينتمي إلى العالم والكون». كان طليقاً في اللغتين الفرنسية والإنكليزية وابناً لعضو نافذ في السلطة القضائية اللبنانية ـ شاب عصري من بيروت، كثير الترحال، واسع الإطلاع في الماركسية ومفتن بـالأفكار والمقولات الماركسية. في بيروت أواسط السبعينات، لم تعد الظروف محرجة لرجل شاب، يتمتع بهذا النوع من الرؤية والموقف، أن يشق طريقه إلى حركة سياسية مُلهمة من قبل رجل دين شيعي.

الآخرون، أيضاً شبان نموذجيون، ومن الذين انضموا إلى أمل، كانوا من طبقة إجتماعية مختلفة. كان البعض منهم شباناً تمدنوا حديثاً، أبناء فلاحين وأبناء أصحاب متاجر صغيرة وحرفيين، وهم كانوا يفتقرون إلى حضارة وثقافة محدثي السابق كانوا قد عارضوا الإنضمام إلى الأحزاب اليسارية. أحد الفاعلين السياسيين، المولود في سنة ١٩٥٣، الذي انضم إلى أمل فيما بعد وأصبح واحداً من قادتها بعد عقد من الزمن، كان انموذجاً لنظرائه. وصف نفسه إبناً لصاحب متجر صغير. من قرية جنوبي صيدا؛ كان دقيقاً جداً حول حجم المتجر، وأراد الإشارة إلى أن المتجر كان يبيع فقط بعض الحلى الصغيرة والسلع الأساسية. حصل على ثقافة محدودة؛ لم يتابع الدراسة الجامعية؛ ولم يكن يعرف لغات أجنبية. كان شخصاً تقياً متديناً، شيعياً يؤمن أن لبنان وأصحاب السلطة فيه لم يعطوا الشيعة فرصة عادلة. كان محدثي لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره عندما رأى الإمام موسى الصدر للمرة الأولى. إحدى المناسبات الدينية جلبت الإمام موسى الصدر إلى قرية محدثي في سنة ١٩٦٨. كانت شهرة الإمام موسى الصدر، طبعاً، قد سبقته إلى هناك. وبعد سماع خطابه، إقتنع هذا الشاب أنه يمكن إثارة «التراث الشيعي» وبإمكان رجل دين أن يؤثر على القضايا السياسية والإجتماعية. أصبح محدّثي جزءاً من حاشية الإمام موسى الصدر، مخلصاً «للإمام» وقضيته. لذلك كان من الطبيعي أن يكون واحداً من الأعضاء الأول في حركة أمل. ولا يمكن لهذا الرجل ذي الأصل المتواضع أن يشعر وكأنه في بيته في أية حركة سياسية أخرى. ولاؤه الإسلامي حال دون الإنتساب إلى الحزب الشيوعي، وكونه من إنتاج المنطقة الشيعية النائية كان أذكى من أن يؤمن أنه يستطيع الإنتماء إلى الحركة الفلسطينية. كان محدثي يتمتع بذلك الخليط من البساطة والذكاء الموجودين في أولئك الذين من أصل ريفي. تقبل الطبيعة الطائفية للبنان؛ تقبل أن حمل السلاح كان وقفاً على السلطة السياسية. بالنسبة له، كان الولاء للإمام موسى الصدر ولاء دينياً واقتناعاً أن

طريق رجل الدين قدمت الأمل الوحيد للناس البسطاء من الريف أمثاله. غير أن العقد الإجتماعي للبلد كان قد خُرق؛ وكانت جميع الطوائف الرئيسة في لبنان قد اعتنقت أنه يتعين عليها صون ذاتها. فكانت الميليشيا الشيعية الجديدة واحدة من الأساليب الجديدة.

لم يكن من ضمن سلطة الإمام موسى الصدر إيقاف العاصفة. كانت الوقائع الجديدة في البلد قد صادقت على استعمال السلاح كوسيلة للدفاع عن المصير وكحق من الحقوق الأكثر جوهرية. تاريخ الشيعة تاريخ طويل من الإذعان: حُرموا من السلاح. ولو أن رجلاً كان قد اختار التخلي عن السلاح والدفاع عن النفس، لما كانت الناس تبعته. كما حصل، كان أفضل ما يمكن فعله تشكيل حركة مسلحة مؤقتة وبديلة بوسائل محدودة جداً.

لاح في الأفق صراع من اجل مدن الأكواخ في بيروت. وبشكل متزايد بدأ الكلام عن «جرف» مواقع عسكرية وجغرافية وسكنية. كانت مدينة بيروت مجموعة من الأحياء والطوائف: كانت بيروت الشرقية بالإجمال مسيحية، وبيروت الغربية معقل سُنّي؛ عدة أحياء شيعية ـ أحياء فقيرة جنوبي بيروت، وأحياء أرمنية شيعية شمالي المدينة ـ كانت عُرضة للهجوم من قبل الميليشيات المارونية. وفي أية عملية اختبار للسلاح، ستُفقد هذه الأحياء ومعها امكنة الشيعة من المدينة. تفقّد الإمام موسى مدن الأكواخ هذه في صيف ١٩٧٥، التي كان يقطنها أتباعه الأكثر إخلاصاً. هذه الأحياء، قال السيّد، التي بنيت بالعرق والعمل الشاق، وُجدت هنا لتبقى. وأولئك الذين تكلموا عن افراغها، حذّر السيد، يضعون أسس تقسيم البلد. في ظل هذه الظروف، كان حمل السلاح «واجباً مقدساً».

لكن وبالرغم من وجود الميليشيا، لم يكن السيد موسى قائداً لرجال مسلحين. كانت مواهبه في المنبر والاجتماعات. بدأ بعض رجال الدين الشيعة باستعمال السلاح وشهر البنادق. غير أن الإمام موسى لم يفعل ذلك

أبداً. أحد الشبان الذي كان ابناً لعائلة على علاقة وثيقة مع الإمام موسى الصدر يتذكر نزهة في بعلبك في وقت من الأوقات صيف ١٩٧٥، ضمّت، بالإضافة إلى الإمام موسى الصدر، إبن عمه العراقي الصعب المراس السيّد حسين الصدر، وبعض الأصدقاء. كان السلاح في أيدي هذه المجموعة، وبدأ العديد منهم التدريب والتباهي ببراعتهم في الرماية. بعدئذٍ عرض ابن عم الإمام بعض رصاص «الدمدم» وشرح كيف أن هذا الرصاص ينفجر في أجسام الأعداء الذي يُصابون به. «إنه لغريب»، كان تعليق موسى الصدر، «أن الإنسان لا يقتل الآخرين فقط، إنما يُحسن أساليب القيام بذلك». لم يملك الإمام موسى مزاج وطبع المقاتل، كان لا يزال يلح على إصلاح الوضع القائم القديم: كان يريد فرض سلطة الدولة في الجنوب؛ ولم يكن يؤمن أنه يمكن خوض حرب أهلية «وربحها». وكان يعرف تمام المعرفة أن طائفته الخاصة، التي بدأت لتوّها بالتخلص من همودها وخوفها، لا تستطيع أن تفوز في أي اختبار للسلاح، إضافة إلى ذلك، فإن القوة العسكرية والمال لتجهيز ودفع الرواتب للميليشيات المسلّحة لم تكن متوفرة بسهولة لهذه الطائفة.

وفي سنة ١٩٧٦، سنة بعد اندلاع الحرب الأهلية، حصل ما كان متوقعاً؛ وكان البرهان المؤلم عن ضعف مركز الإمام موسى الخاص وعن الوضع الميؤوس للشيعة في لبنان، فقد قامت الميليشيات المارونية الكتائبية، المتلهفة لإفراغ «كانتوناً» خاصاً بها، بطرد السكان الشيعة حوالى مئتي ألف مواطن من حي الأكواخ الأرمنية ـ الشيعية (النبعة)، كان هذا الحي بمثابة وطن للشيعة منذ أواخر الأربعينات، عندما بدأوا بشق طريقهم من قرى الجنوب والبقاع إلى بيروت، كانت بيروت الغربية، الموطن التقليدي للطبقة الوسطى السنّية، قطاعاً من المدينة يتألف من منازل مع حدائق، ومغلقة بوجه الأكثرية الشيعية. لذلك انتقلوا إلى جانب الأرمن، إلى مدن الأكواخ التي كان اللاجئون الأرمن قد بنوها عندما جاءوا إلى لبنان في اعقاب الحرب

العالمية الأولى. هناك تعلّم قسم كبير من الشيعة ما كان معروفاً من أساليب المدينة.

فَقد ذلك الموطىء للقدم في المدينة. وشجب الإمام موسى أعمال حزب الكتائب. وقال، إن الضمانات كانت قد أُعطيت له بأن السكان الشيعة في ذلك الجزء من بيروت هم في أمان. كما حذّر من أن مشروع تقسيم البلد لاح في الأفق. كان الإمام موسى الصدر يعرف إلى اين سيقود التقسيم الفعلي: الموارنة سوف يتمسكون بجزء البلد الذي يخصّهم، وسيعم الإضطراب المناطق المختلطة، وهو وطائفته سوف يُتركون في منطقة خاضعة للنفوذ الفلسطيني.

لم يُشارك الإمام موسى الحماسة الثورية لأولئك من اليسار اللبناني ومن الفلسطينيين الذين اعتقدوا أنه يمكن الإطاحة بالنظام السياسي للبلد وتحويل لبنان إلى شيء جديد، إلى جمهورية علمانية، إلى نوع من تجربة راديكالية. كانت السنوات الأولى للحرب الأهلية (١٩٧٥-١٩٧٧) مرحلة هكذا أوهام. هذه الأوهام التي كان يؤمن بها الفريق الأكثر تطرفاً من الفلسطينيين؛ وكان يسعى إلى تحقيقها أيضاً الزعيم الدرزي الغامض كمال جنبلاط، الذي استغل حالة الاضطراب كفرصة لتصفية الصراع القديم بين الدروز وأخصامهم الموارنة في جبل لبنان. «نحن نشعره»، قال جورج حبش، رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الماركسية الميول، في بيان صدر في منتصف سنة ١٩٧٦ ويوضح احساسه، «إن النظام الرجعي، البورجوازي، الطائفي قد انهار وإن الحركة الوطنية اللبنانية سوف ترتكب خطأ كبيراً إذا سمحت لهذا النظام أن يحيا من جديد ويعاد بناؤه على أساس إصلاحي. الحركة الوطنية اللبنانية لديها فرصة للاصرار على لبنان جديد ـ لبنان ديمقراطي، وطني، علماني»(١١).

(١١) المأزق العربي، فؤاد عجمي، دار نشر جامعة كامبريدج، نيويورك ١٩٨١، صفحة ١٤٦.

الإمام موسى الصدر، الغريب الذي كان قد تعلّم حقائق البلد، بقي ملتزماً بفكرة العقد الطائفي بين الطوائف الرئيسة في البلد. كان مرتاباً من مخططات كبيرة تحاك للبنان؛ كانت عنده حاسة قوية من البراغماتية عن الأشياء التي يمكن تحقيقها وتلك التي لا يمكن. «كان رأي ببعض الأحزاب وممارساتها»، أشار السيد موسى في خطبة ألقاها في آب ١٩٧٦، «دفع المقاومة الفلسطينية إلى أن تصبح حركة هدفها قلب الأنظمة العربية وأولها لبنان، وهذا الخيار في رأينا حركة اقليمية تجعل الطريق بعيداً، سيما وأن تغيّر الأنظمة العربية، لأهمية الموقع العربي ولثرواته، لا يتم إلاّ بعد تغيّر كثير من أنظمة العالم. وهذا في رأينا خط مشبوه في هذه المرحلة، لا يخدم قضية التحرير، بل هو على الأرجح، ارادة الدول الكبرى، بل ارادة اسرائيل». وأشار السيّد إلى «أن مهمة المقاومة هي تحرير الأرض المقدسة ووجوب تجنيد كافة الطاقات في هذا السبيل، وتحديد العلاقات مع الناس والدول على ضوء موقفها من قضية التحرير، وإن الهاء المقاومة بأي عمل آخر سوى التحرير، هو تعطيل لدورها وتأخير لمهماتها». كان السيد حريصاً على عدم إعطاء جواب قاطع على رهاناته: ميّز بين الفلسطينيين «الشرفاء والمتطرفين»، بين أولئك الذين أدركوا حدود لبنان وبين أولئك الذين لعبوا بالنار (١٢).

كان موسى الصدر قد ساهم في إثارة عاصفة؛ كان جزءاً من تحالف اصلاحي طالب بإعادة توزيع السلطة في البلد. لكن العاصفة التي احتدمت في سنة ١٩٧٦ كانت أقوى بكثير من مقدرة الإمام موسى الصدر والآخرين في لبنان على معالجتها. وكالمغناطيس جذبت حالة الاضطراب سوريا على طول الحدود. كانت سوريا قد ساعدت الفلسطينيين وقدمت دعماً إلى اللبنانيين المتحالفين معهم. لكن عندما اندلع القتال الفعلي في لبنان، وعندما ظهر أن

(١٢) خطاب الإمام موسى الصدر في بعلبك بتاريخ ١٠/٨/١٩٧٦ بمناسبة ذكرى مولد الإمام المهدي.

السكان الموارنة المخذولين سوف يختارون تقسيم البلد، أقدم الرئيس حافظ الأسد على تغيير كامل في موقفه، وتدخلت سوريا للحفاظ على الوضع الراهن، لن يكون هناك انتقام ضد الموارنة، أعلن الحاكم السوري؛ ولن تكون هناك جمهورية فلسطينية ويسارية على حدوده. وحدّد الرئيس السوري حافظ الأسد الأدوار في ما كان متبقياً من الدولة اللبنانية. اللبنانيون سيهتمون بشؤونهم الداخلية الخاصة، وهو سيتكفل بكبح الفلسطينيين المتمردين والذين يصعب التعامل معهم(١٣).

التدخل السوري إلى جانب الوضع الراهن، الذي تغيّر بشكل طفيف صيف ١٩٧٦، أصبح فيما بعد مركبة الإمام الصدر. كان الإمام موسى الصدر يسعى لمصادقة نظام الرئيس حافظ الأسد منذ مدة. وكان الرئيس حافظ الأسد قد وصل إلى السلطة سنة ١٩٧٠؛ وأصبح رئيساً للجمهورية العربية السورية في شهر شباط سنة ١٩٧١. وكون الرئيس الأسد من الطائفة العلوية، جعل الأكثرية السنية في وضع لا يمكنها من أن تقبل التغيير مع رباطة جأش. غير أن الحكم في سوريا قام في سنة ١٩٧٣ بنشر مشروع قانون يلغي الإشارة إلى أن الإسلام هو دين الدولة، وتفاجأ الحكم السوري بالاستياء كونه يعتبر العلويين فرعاً شرعياً من الإسلام. وكان الإمام موسى الصدر في ذلك الحين رئيساً للمجلس الشيعي الأعلى في لبنان، فتدخل وقال: «إن العلويين والشيعة شركاء في المحنة لأنهم اضطهدوا كما اضطهد الشيعة. . .» وأضاف: «إن هؤلاء المسلمين الملقبين العلويين هم اليوم اخوان الشيعة الذين يسمون في مصطلحات الحاقدين المتاولة، ولن نسمح لأحد بلدم فئة كريمة، . . . . وإننا نريد أن نؤدي واجبنا الإسلامي والإنساني والحضاري في لبنان وسوريا وتركيا، فنقدم لهم ما يطلبون من خدمات.»* وفي خلاصة

(١٣) الحرب من أجل لبنان (١٩٧٠-١٩٨٣)، إيتامار رابينوفيش، جامعة كورنل، ١٩٨٤.

(*) كلمة السيد موسى الصدر في طرابلس بتاريخ ١٩٧٣/٧/٦.

بارعة للمؤرخ السياسي مارتن كرامر، «إحتاج نظام الرئيس حافظ الأسد إلى شرعية دينية سريعة؛ وكان الشيعة في لبنان، كما قرر السيد موسى الصدر، بحاجة إلى نصير قوي. فالتقت المصالح بنشاط من كل اتجاه»(١٤).

قيام رجل الدين الشيعي القادم من إيران بإضفاء شرعية دينية على (العلويين) سكان المنطقة النائية السورية. بدا إلى مراكز الإسلام السنّي، في بيروت، ودمشق على حدٍ سواء، على أنه أقل من تحالف استراتيجي أملته ضرورات سياسية وليس التقاء طائفتين سريتين غامضتين. كانت الهيمنة السنّية قد انتهت في سوريا؛ وكانت في سنواتها الباهتة في لبنان. لم تكن القومية العربية في الهلال الخصيب قد توصلت إلى تفاهم بشكل مخلص وواضح، مع طائفية هذه المجتمعات الممزقة، ولم تكن قد وحدت المناطق النائية والمنشقين؛ بل كانت قد رفعت راية لأيديولوجية علمانية ورفضت الاعتراف أن المحرومين والحدّين سيعتبرون تلك الأيديولوجية غطاء للهيمنة السنّية. وتحركت الأحداث بسرعة، ولم يستطع أي شخص أن يطرح تسوية اجتماعية بين الطوائف اللبنانية في وقت بدأت تحدث الإنتفاضات الكبيرة.

وأصبح الإمام موسى الصدر يعتبر عدواً لكل شيء «تقدمي» من قبل الفلسطينيين والأحزاب في بيروت. لم يكن قد شارك اليسار بحماس؛ ولم يعد يستطيع تحمّل السيطرة الفلسطينية في الجنوب أو التغاضي عنها بصمت، إلى «العمامة السوداء» مع «القلب الأسود» - كما «وصف في ذلك الحين» - نُسبت جميع أنواع المؤامرات والأعمال الدنيئة. في مهرجان للفلسطينيين وحلفائهم في مدينة صيدا الساحلية صيف ١٩٧٦، قال أحد الخطباء: «كل شخص يعرف» أن رجل الدين كان قد تمّ «قذفه في لبنان» من قبل المخابرات الأميركية، وأن «الناس» تراقب ما كان يفعله الإمام موسى الصدر. وأعلن أن «الوطنيين» في هذا البلد ليسوا بحاجة لاستيراد الإيمان والوطنية من إيران.

(١٤) البحث عن الشيعة، مارتن كرامر، كانون الأول ١٩٨٤، صفحة ١٨.

فترات الصيام والاعتصام الدراماتيكية للإمام موسى الصدر تمّ الاستهزاء بها في مهرجان آخر: الأرض، قال أحد الخطباء، لا يمكن تحريرها عن طريق الصيام والصلاة، إنما فقط عن طريق «الكفاح المسلح»[١٥].

على مدى الخمسة عشر سنة السابقة كان رجل الدين مهتماً بتعليم الناس تحدّي «السلطات الحاكمة»، «الاقطاعيين»، و«الظالمين». أما الآن فكان يواجه وجمهوره وضعاً جديداً. موسى الصدر نفسه وصف التحالف الفلسطيني ـ اليساري بـ «الإقطاعية الجديدة». نحن حاربنا، قال لأتباعه، الإقطاعيين القدماء، قاومناهم، لكن لنواجه في النهاية نوعاً جديداً من الهيمنة. تكراراً ومراراً، ردّد ما كان قد فعله هذا الشعب «الشريف الصغير» في الجنوب من أجل القضية الفلسطينية، وما تحمله من خراب. قال موسى الصدر في معرض الدفاع عن نفسه إنه لم يكن خادماً لسوريا، إنه كان يسعى فقط لاخماد البركان في البلد، ولإعادة مقدار من التعقّل.

كانت حرب لبنان تثبت على أنها حرب بدون نقطة تحوّل. بعد فترة، لم يعد أحد يزعج نفسه بإحصاء اتفاقات وقف اطلاق النار. وأصبحت الحلول لمشاكل البلد تتراوغ في البيانات، القمم العربية التي انعقدت في العواصم العربية لحل الأزمة، و«القمم الروحية» التي عقدها زعماء الدين لطوائف البلد. ودخل لبنان في عالم جديد خارج الكليشيات والتعويذات المألوفة، مكتشفاً على طول الطريق، مستويات جديدة من الهمجية والوحشية. في شهر آذار سنة ١٩٧٧، الشخصية البارزة في التحالف الذي طالب بالتغيير، الزعيم الدرزي كمال جنبلاط أُغتيل. «أخبروني أنني سأكون الشخص التالي على الخط»، قال رجل الدين؛ كان مستعداً للشهادة. أستشهد بزين العابدين، ابن الإمام الحسين، الذي كان قد سأل والده فيما إذا كان خطه

(١٥) مع الاعتذار للإمام الصدر، عادل رضا، القاهرة، ١٩٨١، صفحات ١٥٢-١٥٤.

صحيحاً. وعندما أخبره والده الحسين أن خطه كان صحيحاً، قال الابن إنه يرحب بالموت، «هكذا»، قال رجل الدين، «كان طريقنا»[١٦].

بينما استمرت المجازر والحرب الطائفية، أصبح من الصعب على السيّد موسى أن يقول تلك الأشياء حول تسامح لبنان، حول عبقرية البلد في التعددية، التي كان قد ردّدها في سنوات المدنية النسبية. بدا الإمام موسى الصدر بشكل متزايد أقل ثقة بالبلد وبنفسه. ولم تكن فترة ١٩٧٦ - ١٩٧٨ إبداعية بالنسبة له. لم يتعاف تماماً من وطأة طرد الشيعة من شمالي شرقي بيروت على أيدي الميليشيات الكتائبية. وفي خضم الحرب المحتدمة، اعتمد الإمام موسى الصدر مرة ثانية على ذخيرته من التاريخ والرموز الشيعية، لم يعد يحاول تعليم طائفة هامدة أساليب الثورة. قبل سنوات قليلة، عندما كانت محاربة السكوت والإذعان من أهدافه، مجّد الإمام موسى الصدر ذكرى الإمام الحسين؛ وجعل من الرجل الذي قضى في الثورة مثالاً معاصراً. أما الآن، كونه يفتقر إلى القوة المسلحة الكافية، ويرى البلد يتفتت، استشهد بشخصية أخرى من التراث الشيعي: شخصية زين العابدين (٧١٣م) الإمام الرابع اتجه إلى تراث زين العابدين من أجل أخذ العبر في الصبر والمثابرة ـ ومن أجل المؤاساة لأن طائفته لم تكن عسكرياً بمضاهاة الفلسطينيين والموارنة. كان زين العابدين قد نجا من مجزرة كربلاء. في ذلك الحين، حال مرضه الشديد دون اشتراكه في القتال؛ كما أن حياته وُفرت من قبل الحاكم يزيد. كان قد عاد عاد من دمشق، مع من نجوا من عائلة الحسين بعد معركة كربلاء، إلى المدينة المنوّرة في بلاد الحجاز، حيث عاش لثلاثة عقود أخرى، مبتعداً عن السياسة ومكرساً نفسه للصلاة والعلم. سنة واحدة بعد حادثة كربلاء، هاجم جيش يزيد المدينة المنورة وقام بنهبها وسلبها، وقتل عدداً كبيراً من أهلها. أُستثني زين العابدين؛ فاختلف مع أنصاره المقاتلين الذين

(١٦) الإسلام: عقيدة راسخة ومنهج الحياة، موسى الصدر، بيروت ١٩٧٦، صفحة ١٩٠.

كانوا يعتقدون أن «الخروج»، الثورة المسلحة، هي المهمّة الملائمة لأي إمام(١٧).

في إحدى خطبه التي ألقاها بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٧٨ قال الإمام موسى الصدر: «ألسنا في وضع يشبه وضع الإمام زين العابدين عليه السلام الذي اعتمد أسلوب الدعاء والإبتهال وأسلوب الإحتجاجات أمام الباطل الناعمة الهادئة؟». لم يُذعن زين العابدين أبداً للإضطهاد أو ضلّ عن رسالة والده. كان فقط قد غير الوسائل؛ اختار أسلوباً كان ينسجم مع أوضاع عصره. الإمام الرابع أصبح عالماً دينياً مشهوراً؛ ندب مصير والده ومصير المسلمين في عصره. واستمدّ المسلمون الذين جاءوا إليه القوة من قوته وصبره. برفضه شنّ هجوم ضد العدو، وتحدّي الفرص الغير متكافأة المستحيلة، أبقى زين العابدين قضية أهل البيت حيّة؛ كان راغباً وقادراً على انتظار فرصة ملائمة. قاوم الإضطهاد لكنه احتفظ بموقعه، رافضاً الإذعان للإضطهاد أو القيام بثورة يحكم عليها بالفشل. كان زين العابدين يعرف ميزان القوى القاسي. كانت سلطة وثروة العالم لإسلامي قد انتقلت منذ مدة طويلة من المدينة المنوّرة ومكة المكرمة إلى دمشق. وكان «جند الشام» في ذلك الحين مصدر الرعب في العالم الإسلامي. إعلان الثورة ضد هكذا فروقات مستحيلة كان سيعني موتاً أكيداً له وهزيمة لقضيته. «براغماتية» زين العابدين كانت الرمز الذي عرضه رجل الدين بعد تلك المجازر التي حصلت في لبنان. وقال الإمام في تلك الخطبة: «تذكروا كربلاء لبنان. كانت في سنتي ١٩٧٥ و١٩٧٦ آلام لبنان الدامية، كانت في تلك الفصول، والآن نحن نعيش لبنان ما بعد المحنة، لبنان ما بعد كربلائه، وهنا نقتبس من سيرة الإمام علي بن الحسين عليهما السلام سلوكاً. نشعر بأن التشنج يضرنا. بأن السلاح يضر الوطن، لماذا؟ لأن الوطن لا يطيق. لأن لعبة الأمم ولعبة الكبار على قدم وساق. من كل ثغرة صغيرة كانت أم كبيرة في جسم هذا الوطن

(١٧) أصل وتطور الاسلام الشيعي، جافري، لندن، لونغمان، ١٩٧٩.

تفوت الأعاصير التي لا تخدم وطننا وليست لمصلحة شعبنا»(١٨).

حرب لبنان، بشكل متزايد لا معنى لها وضارية، قتلت العديد من الأرواح ـ والسمعة. كانت الناس ترى المؤامرات الخيانات في أعمال أي شخص بارز. وكان موسى الصدر دائماً المغناطيس لكل أنواع التأويلات. ومع ذلك، هناك وصف للإمام موسى، خلال تلك الظروف القاسية، يعطي ملخصاً عادلاً عن كل ما كان يحاول فعله، جاء الوصف في مذكرات سياسية عن الحرب اللبنانية، «السلام المفقود» كتاب للسيد كريم بقرادوني. (بقرادوني، عضو نافذ في المكتب السياسي لحزب الكتائب، كان طوال فترة سنوات (١٩٧٦ - ١٩٨٢) مستشاراً للرئيس اللبناني الياس سركيس، وصديقاً حميماً للنجم الصاعد في السياسة المارونية، بشير الجميل. كان رجل الإرتباط بين حزب الكتائب والرئيس حافظ الأسد). رغم أنه حزبي، كتب بقرادوني مذكراته مع مسحة فنان، تعطي صوراً مرسومة بحدّة لمجموعة شخصيات سورية ولبنانية على حدٍ سواء، وتوضّح ألاعيبهم السياسية. أما وصفه للإمام موسى الصدر فكان على الشكل التالي:

«وسيم الطلعة يُعنى بقيافته، وهندامه، ومظهره، وصورته، وكلامه... عنيد، طموح، شجاع، وشعبي... بعث في الطائفة الشيعية شعورها بتفوقها العددي، وتراثها التاريخي، ودورها الأكثري، وانتماءها اللبناني. وكثيراً ما كان يردد: «لبنان، بالنسبة إلينا، هو وطن نهائي».

خصم الشيوعية، وعلى الأخص خصم الجنبلاطية، لدرجة أصبح فيها أبغض الناس إلى اليسار اللبناني. اتهم الحركة الوطنية بأنها تستغل الجماهير الشيعية وتضعها في فوهة المدفع في صراعها ضد المسيحيين. وقد قال لي، في هذا الصدد: «تريد الحركة الوطنية مقاتلة المسيحيين إلى آخر شيعي». وحمّل كمال جنبلاط، عام ١٩٧٦، مسؤولية إطالة حالة الحرب، فلاحظ أمامي:

(١٨) النهار، ٧ كانون الثاني ١٩٧٨.

«لولا كمال جنبلاط لانتهت الحرب في شهرين، وبسببه هي تستمر منذ عامين، والله أعلم إلى متى ستدوم!».

وينفر الإمام في المقابل من غطرسة الجبهة اللبنانية. قال لي في حزيران ١٩٧٧: «لا يجوز أن تكون الجبهة متكبرة إلى هذا الحد على المسلمين. ولا يحق لها أن تعاملهم كأنهم خونة. فاليمين الحاكم مسؤول لأنه أهمل الجنوب والشيعيين اللبنانيين منذ فجر الإستقلال، فأصبحوا محرومين وتحولوا إلى بروليتاريا لبنان. لا يخدعن أحد نفسه، فكل ظلم ينتهي إلى انفجار!»

هذا الثائر والمتمرد يدين «جشع اليمين الحاكم»، بقدر ما يدين «فوضوية الفلسطينيين والتقدميين». وقد طوّر مشروعاً سياسياً يستبعد فيه هؤلاء وأولئك... إنه خميني لبنان، ولكنه خميني مستنير!

أما علاقاته بدمشق فغير ثابتة. صديق حافظ الأسد وبيت سره. ولكنه يحذر السياسة السورية. ولم يكتم تخوّفه من رؤيته سوريا تُقسّم لبنان. وقد قال لي في حزيران ١٩٧٧: «من حسن الحظ أن سوريا لا تستطيع أن تهضم لبنان....».

وقد فرغ صبره من اعتداءات الفلسطينيين، فاتخذ موقفاً صارماً من منظمة التحرير الفلسطينية. وقبل اختفائه بقليل قال لي حازماً: «ليست المقاومة الفلسطينية ثورة، لأنها لا تتصرف تصرّف الساعي إلى الإستشهاد. إنها آلة عسكرية ترهب العالم العربي. بفضل الأسلحة يستطيع عرفات انتزاع الأموال، وبفضل الأموال يغذي الصحافة، وبفضل الصحافة يُحدثُ تأثيراً في الرأي العام العالمي». ويضيف مهدداً: «منظمة التحرير سلطة فوضوية في الجنوب. لقد تغلب الشيعة على عقدة الدونية حيال المنظمات الفلسطينية. لقد طفح الكيل!»[١٩].

(١٩) السلام المفقود، كريم بقرادوني، دار عبر الشرق للمنشورات، بيروت، ١٩٨٤، صفحات ١١٧ - ١١٨.

استحوذ وصف بقرادوني على الرجل ومركزه الصعب. فيما يتعلق بميزة الغموض التي أحاطت بالإمام موسى الصدر - بعضها مصقول، والبعض الآخر بسبب كونه أجنبياً - تظهر العناصر الأساسية في الوصف البقرادوني. إنه رجل دين في حالة نزاع مع النظام السائد في البلد لأنه كان نظاماً جامداً ومغلقاً، أراد من أبواب هذا النظام أن تفتح،* وأراد مكاناً في هذا البلد للشيعة ولنفسه. لكن في ذات الوقت لم تكن عنده ثقة في اليسار اللبناني، ليس لأن أتباع اليسار لم يكونوا مؤمنين «أتقياء»، بل لأنهم يتشبثون بالعقائد الوهمية والنظرية وكونهم المنافسين في كسب ولاء الشباب الشيعي. تعاطف موسى الصدر مع الفلسطينيين؛ كانت فيه تلك الحاجة الشيعية والإيرانية لإظهار الولاء لقضيتهم. لكن مثل الشعب الذي قاده، كان السيد موسى قد قطع علاقته مع الفلسطينيين. سئم المجادلات العنيفة، وأصبح يذكر الفلسطينيين في العلن أنه يجب عليهم أن لا يسعوا إلى «وطن بديل» في لبنان. كانت انطلاقته من مدينة صور، التي تبعد بضعة كيلومترات عن الحدود الإسرائيلية. كان يعرف، وقال مراراً، إن إسرائيل مصممة على اجتياح لبنان، على نطاق واسع، إذا استمرت الهجمات الفلسطينية.

في منتصف شهر آذار ١٩٧٨ أرسلت إسرائيل جيشها إلى جنوبي لبنان، في هجوم عسكري واسع النطاق ضد الفلسطينيين. تذرعت إسرائيل أن سبب الغزو هو هجوم فلسطيني داخل إسرائيل أسفر عن مقتل إسرائيليين. أكثر من عشرة آلاف جندي إسرائيلي عبروا إلى لبنان. هدف هذا الإجتياح - عملية الليطاني - كان تدمير قواعد منظمة التحرير الفلسطينية في الجنوب وتوسيع الشريط الحدودي على الحدود اللبنانية - الإسرائيلية الواقع تحت سيطرة ضابط لبناني منشق، الرائد سعد حداد الذي كان العميل البديل لإسرائيل في جنوب لبنان. كانت في إسرائيل، في ذلك الحين، حكومة جديدة ومتصلبة أكثر، حكومة الليكود برئاسة مناحيم بيغن، التي كانت قد

حطمت السيطرة الصهيونية لحزب العمل على السياسة الإسرائيلية. تعهّد بيغن «بقطع ذراع الشر» للمقاتلين الفلسطينيين في لبنان؛ ومن الآن وصاعداً، سيكون الردّ الإسرائيلي على الإستفزازات الفلسطينية من لبنان أقسى مما كان عليه في العقد السابق.

لكن حملة إسرائيل العسكرية كانت غير حاسمة. الحدث الذي لم يفاجىء أحداً هو تقهقر القوات الفلسطينية في جنوب لبنان مع المدنيين. لم تكن أبداً النوايا، قال قادة المقاتلين الفلسطينيين، محاربة إسرائيل في حرب تقليدية. وكان الإنسحاب التكتي أسهل ما يقدم للناس كقرار فلسطيني حكيم. وجهت ضربة قاسية إلى الفلسطينيين، لكن قاعدتهم في لبنان لم تدمّر. وثبت في النهاية أن الضحايا الرئيسيين للإجتياح هم السكان الشيعة في الجنوب. كانوا الناس الذين تحملوا الوطأة العظمى لتلك الحرب. بالكاد بقي منزل سليماً في النبطية. وبقي فقط حوالى ثلاثين عائلة في المركز الزراعي الذي يضمّ أربعين ألفاً من المواطنين والذي كان في السابق مزدهراً، كما أفاد أحد المراسلين الصحافيين الأميركيين في ٢٠ آذار ١٩٧٨»(٢٠).

هذا الإجتياح الإسرائيلي في آذار ١٩٧٨ وتكاليفه البشرية المذهلة دفع الإمام موسى الصدر للتكلم بصراحة أكبر حول الوجود الفلسطيني في الجنوب ومعضلة شعبه في أواخر آذار وجه الامام موسى الصدر، نداءً إلى العرب بشكل «رسالة مفتوحة» حول محنة الجنوب. قال السيد موسى: «في محنة لبنان الأهلية استمرت (إسرائيل) في شن حرب نفسية وإثارات طائفية وإرسال عصابات وإغراء فئات، كما استغلت الخوف والفقر فسلّحت جماعة ووضعت الجدار الطيب على الحدود...»

وتساءل الإمام موسى: «ماذا فعلتم بجنوب لبنان أيها العرب؟... إننا نعلم أن العرب يملكون أسلحة أخرى غير القوة العسكرية... إنها علاقات

(٢٠) نيويورك تايمز، ٢١ آذار ١٩٧٨.

دولية، ديبلوماسية، إقتصادية، سياسية، بترولية، مالية وثقافية». لكن يظهر أنهم «متفرجون» غير فعالين» في حين تفقد الأرض العربية قطعة قطعة. الأرض في الجنوب، قال السيد موسى، لا يمكن إنقاذها من قبل الفلسطينيين؛ «لا نريد من أحد من الأشقاء ولا نريد من المقاومة الفلسطينية أيضاً أن تساهم في معالجة هذا الأمر. إن إسرائيل تتذرع إذا دخل غير اللبنانيين في سبيل تحرير أرضهم. نحن ستتكفّل بذلك وسنتحدى العالم بذلك»(٢١).

وفي خطبة أخرى ألقاها السيد موسى في أحد مساجد بيروت بتاريخ ٣١ آذار ١٩٧٨ قال: «هناك مطامع استيطانية إسرائيلية، معروفة، وهناك مطامع استيطانية طائفية معروفة أيضاً. وهناك مطامع استيطانية عربية ناتجة عن الكسل والفرار من الموقف والفرار من المسؤولية، معروفة. الأرض معرّضة. غيابنا عن الأرض يهدّد الأرض».

وكان الإمام موسى قد قال في هذه الخطبة: «كل هذه الأخطار في جانب، والنزوح في جانب آخر، والعيش في المنفى، والعيش بعيداً عن الأرض، والعيش بعيداً عن البيت، بعيداً عن القرى خط ذو وجهين؛ ذل وضياع وتعريض للانحطاط في مكان النزوح. وخط وطمع من مختلف الفئات في الجنوب في المكان الذي تركناه»(٢٢).

تكلّم الإمام موسى عن «استراتيجية عربية شاملة» لمواجهة إسرائيل، لكن دون أوهام؛ كان يعرف أن لا وجود لمثل هذه الاستراتيجية في الأفق. وضع أمام العالم العربي الأوسع معضلة شعبه في الجنوب وأخبر عن التضحيات التي قدمها الشيعة خلال عقد من القتال الفلسطيني - الإسرائيلي.

(٢١) النهار العربي والدولي، ٢٦ آذار ١٩٧٨ - وخطبة الإمام الصدر في مسجد الصفا بتاريخ ٣١ آذار ١٩٧٨.

(٢٢) خطبة الإمام الصدر في مسجد الصفا يوم الجمعة بتاريخ ٣١ آذار ١٩٧٨.

لكنه كان يعرف أنه هو والناس الذين قادهم كانوا على هامش المجتمع العربي.

مع ذلك، بقي الإمام موسى مدمناً على السفر إلى العواصم العربية، على الحركة المحمومة، وعلى التغطية الصحافية. واصل جولة جديدة من الرحلات العربية في ربيع وصيف ١٩٧٨. تلك كانت الممارسة القاعدة لرجال السياسة في لبنان: البحث في بلدان أخرى عن التسوية الاجتماعية التي فشلوا في التوصل إليها في وطنهم. رحلات رجل الدين أخذته إلى المملكة العربية السعودية، إلى الأردن ومن بعدها إلى الجزائر. وأثناء زيارته للجزائر قُدم للإمام نصيحة من قبل السلطات الجزائرية بوجوب التوجّه إلى ليبيا لزيارة زعيمها معمّر القذافي. القذافي كانت عنده «أفكار» للبنان، وكان عنده المال غير أن الإمام الصدر لم يكن واحداً من رجال ليبيا في لبنان. كان لليبيين عملاؤهم اللبنانيين، الأحزاب والجماعات الناصرية في بيروت، وكانت علاقاتهم متقلبة مع الفئات الفلسطينية في لبنان. من موقعه الأمن في طرابلس الغرب، حثّ القذافي على الحروب على طول الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية، أراد من الفلسطينيين واللبنانيين أن يعيشوا نزواته الثورية.

القذافي ورجل الدين كانا قد التقيا مرة واحدة في سنة ١٩٧٥، عندما ذهب الإمام موسى الصدر إلى ليبيا لحضور أحد المؤتمرات. وكان الرجلان يختلفان بالأطباع جذرياً. كان الاجتماع، كما تفيد المصادر الشيعية، قد انتهى إلى خلاف. القذافي، ليس برجل بارع بشكل خاص، أوصل الاجتماع إلى نهايته عن طريق الوقوف مترهلاً في كرسيه ومدّعياً الذهاب إلى النوم. بعد سنة، كان القذافي قد أرسل رئيس وزرائه إلى لبنان للقيام بجولات ومقابلات مع جميع الفعاليات في نزاعات ذلك البلد. بقي رئيس الوزراء الليبي شهرين في لبنان وسوريا، مستجمعاً قليلاً من التسامح، اجتمع حتى مع بيار الجميّل رئيس حزب الكتائب. غير أن الإمام موسى استبعد من تلك الجولة من الاجتماعات، لكن الدعوة الليبية ـ التي توصل إليها الإمام استناداً إلى

الليبيين، والتي كانت بناء لنصيحة قدمتها السلطات الجزائرية استناداً إلى المصادر الشيعية ـ قُبلت. وأُبلغ الليبيون أن رجل الدين سوف يأتي في ٢٥ آب[٢٣].

قبل يومين من الرحلة إلى ليبيا، ظهرت إحدى مقالات الإمام موسى الصدر حول الصراع في إيران بين الشاه والمعارضة الدينية في صحيفة «اللوموند» الفرنسية. كانت إيران في ذلك الحين تستهلك مزيداً من اهتماماته. مسقط رأسه، في حالة ثورة منذ شهر كانون الثاني من تلك السنة، كانت له مطالب عليه.(«الإمام»، كما قال عنه الصحافي المصري محمد حسنين هيكل، «وضع أصابعه في عدد كبير من الفطائر»). كان المقال في جريدة «اللوموند» الفرنسية قد صُبغ بالآمال المتحررة الأولى المتوقعة من الثورة. كان دعوة لإعطاء العدالة للمعارضة في إيران، وإلى تفهم الصراع في مسقط رأسه. إنها «ثورة حقيقية» تنتشر في إيران، قال الإمام في مقاله. لم تكن ثورة اليمين أو اليسار، إنما ثورة شعب في تنوع أجياله: «الثوريون الإيرانيون، لا يمثلون شريحة اجتماعية محددة، فالطلبة والعمال والمثقفون ورجال الدين يساهمون جميعاً في الثورة». . . وهي حركة حدّد زعيم المعارضة، الإمام الكبير الخميني أهدافها بوضوح وهو عندما شهد بأصالة هذه الحركة، فقد أشار إلى أبعادها القومية والثقافية، والتحررية». وأضاف الإمام موسى في مقاله قائلاً: إن النظام الأكثر تسلحاً في العالم الثالث، ومدّعياً الدفاع عن التقدم والديمقراطية، ينهار، واستطاع «العالم المتمدن» في كل مكان الاعتراف بالصراع في إيران[٢٤].

(٢٣) هناك مذكرتان مفصلتان من قبل المجلس الشيعي الأعلى، تلخصان مجمل الأحداث المتشابكة التي بدأت مع رحلة الإمام موسى الصدر إلى ليبيا وهي مدعومة بالوثائق. إحدى هذه المذكرات هي «ملخص المبادرات والجهود المتعلقة باختفاء الإمام موسى الصدر ورفيقيه». المذكرة الأخرى تتضمن نص البيان حول اختفاء الإمام موسى الصدر الذي أصدرته ليبيا في ١٧ أيلول ١٩٧٨ وتنفي كل ما جاء في هذا البيان الليبي من قبل المجلس الشيعي الأعلى.

(٢٤) نداء الأنبياء، جريدة «اللوموند» الفرنسية، ٢٣ آب ١٩٧٨.

بدأت رحلة الإمام موسى إلى ليبيا في ٢٥ آب. قام بهذه الرحلة مع اثنين من رفاقه ـ رجل دين أصغر منه، الشيخ محمد يعقوب والصحافي عباس بدر الدين، الذي كان مفترضاً أن يغطي الرحلة، ويرسل الأخبار عنها إلى صحف بيروت. إحدى الرسائل المكتوبة باليد مرسلة من الإمام موسى إلى صديق ـ أحد التقنيين في عمان الذي له صلات وثيقة مع الملك حسين ـ لم تظهر حماساً كبيراً للزيارة الليبية. الإمام موسى سيأتي إلى عمان قريباً، قال في الرسالة، فور انتهاء الرحلة إلى ليبيا. سأل رجل الدين عن ملك الأردن، تمنى له الصحة والعافية، وقال إنه يتشوّق للقاء العاهل الأردني مرة ثانية[٢٥].

كان دافع رحلة ليبيا الطمع، قال منتقدو رجل الدين: رجل سياسي آخر من لبنان يذهب إلى ليبيا مع وعاء قصدير طالباً المال. الأسوأ من ذلك، قال أولئك الذين شككوا برجل الدين إنه استدعي إلى ليبيا لتقديم تقرير عن المال الليبي الذي كان قد استلمه. غير أن مؤيديه قالوا، كانت رحلة واجب. دُعي إلى عاصمة عربية، بناءً لوساطة جزائرية، وكان ذاهباً ليضع أمام الليبيين هموم شعبه.

أُستقبل الإمام موسى في ليبيا من قبل مسؤولين ليبيين على مستوى منخفض. أُرغم على الانتظار للقاء القذافي. في ٣٠ آب، فعل الإمام موسى الصدر ما كان بارعاً جداً فيه: أعطى مقابلة أخرى، هذه المرة لمجلة كويتية، النهضة، في المقابلة كرّر أفكاره الأساسية، تكلم مرة ثانية عن شعب جنوب لبنان وتضحياتهم نيابة عن الفلسطينيين. ومما قاله الإمام موسى في هذه المقابلة: «إن ما تعرضت وتتعرض له الطائفة الإسلامية الشيعية بوجه خاص في لبنان هو فوق الوصف، سيما وأنها تدفع ثمن مواقفها الوطنية والقومية والإنسانية أيضاً وكان بإمكانها أن تتجنب المآسي لو كانت غير مبالية بتلك

(٢٥) رسالة من الإمام موسى الصدر موجهة إلى علي غندور في عمان الذي قدّمها بدوره إلى المؤلف ويعود تاريخها إلى ٢٤ آب ١٩٧٨.

القيم». كان الإمام موسى في بلدٍ شكك في دوافعه. وقد ظهر التوتر في مقابلته. «إننا في لبنان لم نعد نملك شيئاً نخسره... فليفكر الأشقاء بما عندهم من ثروات وأرض وقوة وبما لديهم من تراث ودين وحضارة وقيم، أقول لهم إن كل شيء لديكم مهدد، أليس كذلك؟» كان العرب البعيدون عن قوة إسرائيل مطالبين ببحث أزمة أولئك الموجودين بين وابل النيران المتقاطعة للحرب الإسرائيلية ـ الفلسطينية.

اليوم التالي، ٣١ آب، كان اليوم الأخير الذي شُوهد فيه رجل الدين في العلن. عند الظهيرة، شُوهد الإمام موسى ورفيقاه يغادرون الفندق، كان في طريقه للاجتماع مع الرئيس القذافي، كما أخبر الإمام موسى مجموعة من اللبنانيين التقوا به صدفة والذين كانوا في زيارة لليبيا في ذلك الوقت. ذلك اليوم كان يوم اختفاء الإمام.

تبع ذلك ستة أيام من الصمت. ولم يصدر أي خبر صحافي حول موسى الصدر، أو أية تصريحات من قبله إلى الصحافة. في الأول من أيلول احتفل نظام القذافي بالذكرى التاسعة للانقلاب العسكري الذي كان قد أطاح بالنظام الملكي الليبي وأوصل القذافي إلى السلطة. الإمام موسى الصدر لم يكن في الاحتفال، الذي كان قد دعي لحضوره. وعلى غير عادة رجل الدين، لم تكن هناك أية اتصالات هاتفية مع عائلته أو مع أي من رفاقه وأصدقائه الحميمين في بيروت.

قُرعت أجراس الإنذار في ٦ أيلول. السلطة الدينية الشيعية في بيروت أجرت اتصالات مع السفارة الليبية واستفسرت عن مكان وجود الإمام موسى الصدر. قالت البعثة الليبية إنها سترسل برقية إلى ليبيا، وإنها ستعود وتتصل بالسلطة الدينية لإيفائها بالمعلومات المطلوبة، واعتبرت أنه لا يوجد داع للقلق أو الخوف. عندما لم تأت المعلومات الموعودة، قدمت مزيد من الاستفسارات إلى الليبيين من قبل رفاق الإمام موسى الصدر في المجلس الشيعي

الأعلى، ومن قبل أعضاء الحكومة اللبنانية. وفي ١٠ أيلول، بعد سؤال رسمي من الحكومة اللبنانية، قال الليبيون إن رجل الدين ورفيقيه غادروا ليبيا إلى روما، في ٣١ آب، على متن طائرة أليطاليا رقم الرحلة ٨٨١. بعد يومين، قالت «السفير»، الصحيفة اللبنانية اليومية، التي يموّلها القذافي، إن اختفاء الإمام موسى الصدر، ربما كان مرتبطاً بـ «الأحداث في إيران» ـ الصراع المتزايد بين الشاه والمعارضة العلمانية ـ الدينية الواسعة والمنظمة ضد نظام حكمه.

بعدئذ في ١٧ أيلول، أصدر الليبيون ما كانوا يعتزمون أن يكون بيانهم حول الموضوع. كان بياناً أصدرته أمانة الشؤون الخارجية الليبية. الإمام، قال الليبيون، كان قد «استقبل بحرارة» من قبل المسؤولين الليبيين. بناء لطلبه، رتّبت السلطات الليبية سفره إلى روما، مع رفيقيه، في ٣١ آب. وإن الإشاعات التي تقول إنه لا يزال موجوداً في ليبيا، تروج من قبل «أوساط حاقدة» تحاول «تفجير الوضع في لبنان، المعقل الأخير للثورة الفلسطينية»[٢٧].

لكن الإشاعات استمرت. إحداها قالت إنه موجود في امستردام ضحية الخطف، إشاعة أخرى قالت إنه عاد إلى مسقط رأسه في إيران للمشاركة في الهجوم الأخير ضد الشاه. وفي أيام أخرى، أفادت التقارير أنه وصل إلى سوريا، أو إلى العراق للتحادث مع آية الله الخميني الذي كان في ذلك الحين في المنفى. في إحدى البرقيات الدبلوماسية، المرسلة من بيروت، قيل عن السيّد موسى أنه «في مالطا أو بالغرب من بحيرة كومو: يُحتفظ به هناك من قبل عملاء القذافي الذين كانوا «يلقنونه درساً». «راقبوه بعناية»،

(٢٧) النص الرسمي الليبي حول اختفاء الإمام موسى الصدر كما صدر في نسخته الإنكليزية التي زُوّدت به وزارة الخارجية الأميركية بتاريخ، ٣٠ أيلول ١٩٧٨ وحصل عليه المؤلف بتاريخ ٢٥ تشرين الأول ١٩٨٤ في وثائق وزارة الخارجية الأميركية.

أضافت البرقية لأولئك الذين استلموها في إيطاليا، كان «رجلاً طويلاً، يرتدي عمامة وثوباً طويلاً. جذاباً جداً للنساء». برقية ديبلوماسية أخرى، أرسلت من طهران، أفادت أن رجل الدين المفقود هو في سوريا، «ضيفاً على الرئيس الأسد». وقيل إن المعلومات جاءت من زوجة رجل الدين. الإمام الصدر، أفادت هذه البرقية، كان قد ذهب إلى دمشق بعد تمضية «عدة أيام مع الخميني في العراق»[٢٨].

بعدئذ، وبشكل لا مفر منه، كانت هناك تقارير عن وفاته ـ هذه التقارير التي استشهدت بمصادر «لم يتم التأكد من مصداقيتها». في أحد هذه التقارير، قيل إن الإمام الصدر قد قتل في ٣١ آب، آخر يوم شوهد فيه في العلن. كان قد «دخل في نقاش محموم مع مضيفيه الليبيين»، كما أفادت هذه البرقية الدبلوماسية الأميركية. «أراد الليبيون إخافة الإمام، وفي أثناء هذا التهويل، ضرب أحد الليبيين الإمام ضربة قاتلة». المسألة كلها كانت «حادثاً مفاجئاً». لم تكن هناك «نيّة» لقتل الإمام. الليبيون «ندموا لأن القفاز لم يكن ناعماً مخملياً بشكل كافٍ»[٢٩].

كان أتباع الإمام يريدون عودته، ألصقت صوره في كل مكان من الأحياء الشيعية في بيروت وضواحيها، في جنوب لبنان ووادي البقاع، قرأ أتباعه في اختفائه في ذلك المحيط الليبي البعيد والبغيض مرارتهم الخاصة، وشعورهم الخاص باستبعادهم عن المجتمع العربي الأوسع من حولهم. كانت قصائد الندب الشيعية قد ندبت قطع الرؤوس والموت بدس السم لعدد كثير من المتحدرين من سلالة الإمام علي. وكان الأدب الشيعي لسجل الشهداء غنياً في وصفه لوحشية مغتصبي السلطة الذين قتلوا الزعماء الشيعة والمدّعين منهم؛ جعل الحكام والجنود الذين انتصروا في قتالهم غير المتكافىء مع أهل

(٢٨) برقية السفارة الأميركية في بيروت رقم ٠٥٧١٤ - ٠١٠٧٠٨٢، أيلول ١٩٧٨.
(٢٩) برقية السفارة الأميركية في باريس، رقم ٠٧٨٠٤٨٩-٠٣٩٠٠، تشرين الثاني ١٩٧٨.

البيت تجسيداً للوحشية. وغرس في أهل البيت ـ الأقلية ذات القدر المشؤوم، الأطفال اليتامى، النساء النادبات ـ الحنين الشعبي للشهداء الفاضلين. معمر القذافي والإمام موسى الصدر كان بإمكانهما الخروج بسهولة من الأدب الشيعي والصور المصغرة الفارسية التي أحيت ثانية مشاهد الصراع والهزيمة: جندي عديم الرحمة وضيف بريء دخل مكاناً يكتنفه الغدر. صورة مصغّرة لهذا المثل، عُلقت في منازل الفلاحين والفقراء من سكان المدن والقرى الشيعية، تصف دس السّم للإمام الثامن، علي الرضا (٨١٨) من قبل الحاكم في ذلك الحين، المأمون. كان المأمون، كما أكد أدب سجل الشهداء، قد دعا علي الرضا ليكون خليفة، وبعد حين، وفي تغيّر مفاجيء، أمر بدس السّمّ له (٣٠): الحكم كان نزوياً: لعب الحاكم الليبي الدور الذي كانت تتوقعه تخيلات شعب مهزوم تاريخياً أن يلعبه رجال السلطة.

تقريباً شهر واحد بعد اختفاء الإمام موسى الصدر، وصل معمر القذافي إلى دمشق لحضور مؤتمر قمة لدول الصمود والتصدي ـ سوريا، ليبيا، الجزائر واليمن الجنوبية ـ إضافة إلى ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. كان المؤتمر واحداً من اجتماعات القمة العديدة التي جمعت الدول العربية المعارضة لنظام الرئيس المصري أنور السادات لعقده صفقة صلح مع اسرائيل. إنتقل أربعة رجال دين شيعة من لبنان إلى سوريا للإجتماع بالقذافي والاستفسار عن الإمام المفقود. جاءوا ليفعلوا ما كان يفعل الشيعة لقرون عديدة: لتقديم عريضة، للظهور مع شكوى أمام رجل السلطة. لكن رجال الدين الأربعة لم يأتوا لوحدهم؛ ظهروا على رأس حوالي متي ألف متظاهر. موكب طوله حوالى ١٥ كلم ـ الناس في «سيارات وباصات وتراكتورات» ـ تدفقت إلى دمشق. اليافطات والرايات والشعارات التي حملوها كانت غنية في معانيها وتلميحاتها: «يا عرب، اين الإمام؟» جاء في أحد اليافطات، شعار

(٣٠) مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني، النجف، العراق ١٩٣٤، صفحات ٣٦٨-٣٧٤.

آخر، أشار إلى واحدة من الأعراف المقدسة في المجتمع الإسلامي، عُرف حسن الضيافة والتعهد بالسلامة يقدمها أي مضيف ويكون مديناً بها للضيف: «هل هذه هي الطريقة التي تعاملون بها ضيوفكم يا عرب؟». قُدمت مذكرة إلى رؤساء الدول المجتمعين وطلب رجال الدين الأربعة الاجتماع بالقذافي(٣١). جاءت الموافقة على الاجتماع. وأدخل الأربعة إلى جناح القذافي في فندق الشيراتون في دمشق.

الإمام، قال رجال الدين الأربعة عن الزعيم المفقود، كان رجلاً فان، ويمكن لشعبه أن يفهم ويقبل موته. لكن لا يمكنهم القبول أنه يمكن أن يختفي، «ويذوب مثل بضع حبات من الملح». ذكّر رجال الدين الأربعة رجل الصحراء المزيف قيود الضيافة العربية. كان رجال الدين الأربعة يصونون التاريخ والدين التقليدي الشيعي، كانوا يعرفون غيباً ماذا حلّ بالمتحدرين من سلالة الإمام عليّ على مدّ العصور؛ الرثاء والتاريخ الذي كان رجال الدين الأربعة قد حفظوه غيباً ورووه، والذي أخبر عن السهولة التي ألغى بها الحكام، المجردون من أي وخز للضمير، تعهدات الأمان الممنوحة للضيوف، الأخصام ومقدمي العرائض. كان رجال الدين الأربعة يعرفون أن هناك ثغرات وأساليب يتهرب الحكام من خلالها، من التعهدات المعطاة. في التاريخ الخارق للمذهب الشيعي وصراعه مع السلطات الحاكمة في المجتمع الإسلامي، أرتكبت جميع أنواع أعمال الوحشية على أيدي خدام الحكام، بينما تظاهر الحكام بالبراءة. إحدى القصص من عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (٨٠٩م) أخبرت عن جريمة قتل أحد المتحدرين من سلالة الإمام علي، عبدالله بن الحسن، على أيدي وزير هارون الرشيد، قدّم الرأس المقطوع للضحية إلى الحاكم من بين الهدايا المقدّمة إليه من قبل الوزير المتلهف لأن يرضيه. كان الحاكم يريد أن يُنفّذ العمل. لكن بعد حين،

(٣١) النهار، ٢٢ أيلول ١٩٧٨.

عندما اصطدم الحاكم بالوزير، ذكره الخليفة بدماء عبدالله بن الحسين المغدور «الذي قتلته بدون اذن مني»[٣٢]. كانت هناك إشاعات وتلميحات في الأيام التي تلت اختفاء الإمام موسى الصدر مفادها أن المساعدين «المتحمسين» للقذافي كانوا قد اغتالوا الإمام موسى الصدر دون إذن القذافي. وهكذا جثم التاريخ على اللقاء ما بين القذافي وزواره الأربعة.

لم يتقدم الحاكم الليبي بأي اعتذار. أثار موضوع أصل الإمام موسى الصدر. «أخبروني أن موسى الصدر هو إيراني؛ أليس كذلك؟» سأل القذافي. كان يتمّ رسم الخطوط والحدود الفاصلة وكان يُوضع رجل الدين المفقود خارج حدود العالم العربي. رجال الدين الأربعة الذين يفتشون عن زعيمهم، تطرقوا إلى اصل السيد موسى. تكلموا عن جذوره اللبنانية، عن فرار صالح شرف الدين، الجد الأعلى للسيّد موسى، من لبنان إلى العراق. بعدئذٍ رووا كيف غادر والد السيد موسى العراق في العشرينات؛ وتكلموا في الأسلوب الذي يتبعه الناس الحريصون على السلامة والتحذّر في مثل هذه الأمور، عن الخدمات التي كانت عائلة الصدر قد قدمتها إلى سياسة وحضارة العراق. اداء رجال الدين الأربعة وضع الإمام موسى وعائلته على الجانب العربي من الحد الفاصل الكبير بين العرب والفرس. بعدئذٍ تطرقوا إلى شيء ربما كان يراود ذهن القذافي: «أوراق الاعتماد» السياسية للإمام التي كسبها في الصراع من أجل جنوب لبنان بين اسرائيل والفلسطينيين. الإمام شرح رجال الدين، كان قد حارب من أجل شعب الجنوب، من أجل سيطرتهم على أرضهم. كان الإمام قد ذهب، في إحدى المرات، إلى قرية في جنوبي لبنان تعرضت لأشد القصف الاسرائيلي؛ صلى في مسجدها ونصح أهلها بالقتال من أجل أرضهم. بيعوا بقركم، قال لهم الإمام موسى، مواشيكم، فراشكم، لكن اشتروا سلاحاً وتشبثوا بالأرض. كان الإمام قد حذّر من أن

(٣٢) مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني، سالف الذكر، صفحة ٣٢٩.

جنوب لبنان لا يستطيع وحده تحمل عبء المواجهة مع اسرائيل. هذه مسؤولية عربية، قال الإمام موسى. وقضية فلسطين كانت «عزيزة على الإمام»، قيل للعقيد القذافي. لكن الإمام لم يكن يؤمن أن الأمور في الجنوب يمكن أن تستمر أطول بكثير مما استمرت من قبل، كانت اسرائيل مصممة على الاجتياح عاجلاً أم آجلاً. هل كان العالم العربي مستعداً ليفعل الكثير، لهؤلاء الناس الحديين الذين قادهم الإمام؟

كان اجتماع رجال الدين الأربعة مع القذافي عقيماً. وعد القذافي أن ينظر في الموضوع؛ تكلم عن الكثير الذي كان قد تعلمه واستمتع به من مؤلفات ابن عم الإمام موسى، محمد باقر الصدر. قال القذافي إنه كان يعمل على تحقيق «الوحدة المذهبية» للإسلام السُنّي والشيعي، وأن الإسلام السائد في ليبيا وافريقيا الشمالية متحرر من نوع الإنقسامات الموجودة في لبنان. كان يعرف، قال القذافي إن شيعة لبنان هم في خط النار في الجنوب وأنهم الطائفة الأكثر غبناً في لبنان. كرر القذافي في كلامه أنه لا يميّز بين المسلمين وأخبر رجال الدين الأربعة عن التبرعات المالية التي كان نظام حكمه قد قدمها إلى المسلمين في مالطا وأفريقيا والولايات المتحدة الأميركية. وزير الخارجية الليبي، وتابع القذافي، سيكون على اتصال مع رجال الدين ومع المجلس الشيعي الأعلى في لبنان إذا توفرت أية معلومات حول الإمام المفقود[٣٣].

الآخرون، خارج لبنان، طلبوا من القذافي إطلاق سراح ضيفه أو على الأقل، إعطاء الإيضاح حول مكان وجود الإمام موسى الصدر. من مدينة قم: آية الله محمد كاظم شريعة مداري - من المحتمل أنه المرجع الديني الأكثر بروزاً في قم، وعادة هو رجل حذر ولا يتعاطى السياسة - أرسل البرقية التالية إلى القذافي: «الناس في جميع البلدان تعرف أن الإمام الصدر دُعي إلى

(٣٣) مع الاعتذار، عادل رضا، سالف الذكر، صفحة ١٦٥.

بلدكم وأنه ذهب إلى هناك... لذلك يطالب جميع المسلمين الحكومة الليبية، التي يعتبرونها مسؤولة عن هذا الاختفاء، بمعلومات عن صحة وعافية الإمام»(٣٤). رسالة أخرى أكثر براعة أرسلت إلى القذافي من الملك حسين ملك الأردن. اتسمت صياغة الرسالة باهتمام وتحفظ الرجل الذي أرسلها، الذي كان يخاطب بصفته رئيس دولة رئيساً آخر، تمّ تذكير «الرئيس الأخ» بمكانة ضيفه: الإمام الصدر كان «نجماً بارزاً في العالم الإسلامي»، قيل للقذافي، إنها في مصلحة العرب، أشار الملك حسين، وضع نهاية سريعة لهذه المسألة. الملك، نفسه مسلم سنّي من عائلة من السيّاد والشرفاء، المتحدرين من سلالة النبي محمد ﷺ، أشار إلى «الأبعاد الطائفية» لهذه القضية - رجل دين شيعي يصاب بأذى على أيدي حاكم سنّي. هذه «أوقات حساسة وصعبة» للفلسطينيين ولجميع اللبنانيين، قال العاهل الأردني، ووضع مساعيه الحميدة بتصرف القذافي: «ساعدنا حتى نستطيع مساعدتكم، بمشيئة الله»(٣٥).

كان السيد موسى قد سافر إلى ليبيا بجواز سفر لبناني، والحكومة اللبنانية تأملت بعناية قنوات الإستفسار عنه. لكن الحكومة اللبنانية لم تستطع الضغط على القذافي بشكل قاسٍ. لقد كانت أعداد كثيرة من اللبنانيين تعمل في ليبيا وتعتمد على الشعور الودّي للقذافي قبل أن يقدم لبنان على استعداء الليبيين. بلد الخدمات الذي يعتمد على أموال المهاجرين لا يستطيع استعداء العقيد صاحب الثروة النفطية. إضافة إلى ذلك، الرئيس اللبناني، التكنوقراطي، الذي كان يتمتع بقليل من السلطة، لم يكن يشعر بمودّة قوية

(٣٤) نص برقية شريط مداري، موجودة في ملخص المبادرات والجهود المتعلقة باختفاء الإمام موسى الصدر، والتي نشرت من قبل المجلس الشيعي الأعلى.

(٣٥) نسخة عن رسالة الملك حسين إلى القذافي المحررة في ١٤ شباط ١٩٧٩ في عمان توفرت للمؤلف من قبل أحد مستشاري العاهل الأردني.

نحو الإمام الصدر. قال الرئيس إلياس سركيس لأحد المقربين: «يُوحي أكثر مما يوضّح، ويقلق أكثر مما يُريح»(٣٦).

من الأفضل، قال الرئيس اللبناني، أن يستعمل الرئيس حافظ الأسد والسلطات الجزائرية نفوذهم مع القذافي. لم يكن يوجد الكثير يستطيع هو نفسه أن يفعله: كان رئيساً بدون دولة، وتكنوقراطياً في بلد تتنازعه الميليشيات. وكانت عنده أمور أخرى ليقلق حولها. كان أسيراً بين الحالة القتالية والخوف المتزايد لدى طائفته المارونية الخاصة والحركة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. لكنه كان قائد قوات الردع العربية. غير أنه لم تكن تربطه علاقة قوية بشكل خاص مع الشيعة. وحسب تخطيط الأمور، كان شيعة لبنان لا يزالوا هامدين نسبياً والرجل، الذي ساهم في إثارة العاصفة في شيعة لبنان، لم يكن في مكانه.

بالرغم من ذلك ما زال في لبنان معسكران متحاربان رئيسيان: الموارنة مع شعورهم بأن البلد، الذي كان لهم، يجب استرجاعه - أو إذا فشل ذلك، تقسيمه - والفلسطينيون وغطاؤهم، الميليشيات اليسارية التي حققت بعض السلطة بدعم ومساندة فلسطينية. غير أنه على المدى البعيد، كان من المتعذر الدفاع عن الموقع الفلسطيني، كما أنه لا يمكن دعم القضية الفلسطينية التي كانت تقيم دولة ضمن دولة في لبنان. لكن قضيتهم كانت مثيرة للجدل كثيراً، فبالنسبة إليهم كان لزاماً الإستمرار بما كانوا يفعلونه، وإسكات أولئك الذين أشاروا إلى معضلة حركة مسلحة فلسطينية تقدم الثناء لسيادة دولة عربية وفي ذات الوقت تضعفها. لم تكن الدولة الفلسطينية في المتناول، ولا المجال السياسي، الذي يسمح بممارسة السلطة الفلسطينية، خارج لبنان. كان أمام القادة الفلسطينيين خياران. كان بإمكانهم قطع الصلة مع تراث كامل من التاريخ الفلسطيني والتوصل إلى تفاهم مع إسرائيل، يقولون وداعاً

(٣٦) السلام المفقود، كريم بقرادوني، سالف الذكر، صفحة ١٦٨.

«للكفاح المسّلح»، ويحاولون إنقاذ ما تبقى من الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية من نهر الأردن. أو بإمكانهم التشبّث بما كانوا قد سيطروا عليه في لبنان وحمايته، «الدولة البديلة»، مع كل أوهامها ومؤاساتها.

في مكان ما بين هذين المطلبين من أجل لبنان وقف الشيعة. المحاولة الثالثة من أجل البلد، المحاولة الشيعية، لم تكن قد بذلت بعد. لكن مقوماتها كانت موجودة. كانت المقومات موجودة منذ بعض الوقت. آخر إحصاء رسمي للسكان في لبنان، الذي جرى في سنة ١٩٣٢، كان قد وضع السكان الشيعة في المرتبة الثالثة بعد الموارنة والسنّة. قدر ذلك الاحصاء عدد سكان الشيعة بحوالى مئة وخمسين ألف نسمة، معظمهم من السكان الريفيين، ويشكّلون حوالى ١٩ بالمئة من سكان البلد. في أواسط السبعينات، كان معروفاً ـ في الأسلوب الذي عرف فيه لبنان الأشياء ولكنه لم يعترف بها أبداً ـ أن الشيعة كانوا قد أصبحوا الطائفة الأكبر في البلد. لم يكن أحد متأكداً من الأرقام الصحيحة. وأن إجراء أي إحصاء سكاني جديد، يدعم بالوثائق التغيير الديموغرافي، كان مسألة سريعة الإنفجار سياسياً، ولذلك منع الاحصاء. لكن في سنة ١٩٧٨، كانت توجد أرقام قدرت عدد سكان الشيعة بحوالى تسعماية ألف نسمة، ما يقارب ٤٠ بالمئة من سكان البلد (٣٧) إضافة إلى ذلك، لم يعد الشيعة سكان ريفيين، ولا محرومين إقتصادياً كما كان الحديث عن «الحرمان» في الماضي قد صوّرهم. وأصبح القسم الأكبر من الثروات الضخمة في بيروت يخصهم ـ المال الذي تمّ كسبه في أفريقيا الغربية، أو في الدول العربية في الخليج، أو في اقتصاد المضاربة في لبنان.

عندما بذلت المحاولة الشيعية من أجل السلطة، كانت قد اعتمدت على الثروة الشيعية التي تطالب بدور سياسي، على طموح الطبقة الشيعية

(٣٧) التطور الديموغرافي في لبنان، جوزيف كيشيشيان،، ١٩٨٣، صفحات ٣ - ١١.

الجديدة الذي وُلد من الثقافة وبعض الإزدهار، وعلى عدد كبير من الفقراء سكان المدن، المستعدين لحمل السلاح في مكان كاد السلاح يصبح شارات للقيمة الشخصية الذاتية وأداة لصون وحماية المصير. غير أن الواقع ومطالب الطائفة كانت أهم من مطالب المقولات الإجتماعية والإقتصادية. وفي هذا الخصوص ثبت أن الإمام موسى الصدر كان على حق: كان قد طرح فكرة طالبت بجمع الأغنياء والفقراء، واخماد الخلافات الطبقية؛ كان قد قال إن هناك شيئاً ما مرتبطاً بصنع التاريخ أكثر من القوى الإقتصادية. في أعماق الناس الذين يملكون بعض الثروة والثقافة، وخاصة في حالة الفقراء، كان الإمام موسى الصدر قد احتكم إلى جاذبية وعبء التاريخ الشيعي. كان قد احتكم إلى سلطة أجداده. بعد اختفائه بقليل، أضفى صوت الماضي على الواقع المعاصر في جميع أرجاء عالم الإسلام الثقة والصرامة المكتشفة حديثاً.

عن الأبطال والناس الذين يصنعونهم ويعتمدون على أساطيرهم، أشار العالم النفسيّ جون ماك إلى ما يلي: «خلال مدة حياته يملك البطل بعضاً من السيطرة عن ما يتمنى أن يمثله رغم أنها تكون غالباً محدودة. بعد وفاته يصبح البطل ملكاً للجمهور ويتقرر مغزاه للتاريخ من خلال أعماله التي تبقى ومن خلال تفسيرات جمهوره التاريخي... وإن خلق اسطورة بطولية يتوقف على استجابة التاريخ، وعلى التقاء أحداث وأوضاع خاصة مع رجال ونساء غير عاديين يتولون إدارة هذه الظروف»(٣٨).

في منزلته الرفيعة الفريدة والقوية ـ كونه غائباً وفوق النزاعات، ومع عدم وجود أي شخص مستعد تماماً لأن يخرج ويعلن وفاته ـ كان الإمام موسى الصدر قد أصبح «ملكاً للجمهور» في إيران ولشيعة لبنان وشيعة العراق. حيكت عدة خيوط من التاريخ الشيعي حوله: إستشهاد الإمام الحسين؛ اعتدال العديد من خلفاء الحسين الذين اعتبروا صراعات الناس

(٣٨) أمير الفوضى، حياة لورانس، بوسطن، ١٩٧٦، صفحات ٢١٦- ٢١٧.

الدنيوية كأشياء تفسد الروح؛ بعدئذٍ الأفكار الشيعية الواضحة لغيبة الإمام ورجوعه المنتظر. ما كان يمثله الإمام موسى كان شيئاً قديماً جداً، له قدسية مميّزة خاصة. مع ذلك كان الإمام موسى الصدر رجلاً حديثاً وعصرياً بقدر ما استطاع الواقع العصري للإسلام أن يستجمع. عن «استجابة التاريخ» كانت هناك وفرة في حياة وعمل الإمام موسى الصدر. وأي كان الشخص الذي أزاح الإمام موسى الصدر عن مسرح الأحداث كان الأداة الجاهلة إزاء التاريخ الشيعي.

الورثة والتراث

عدة أشهر بعد اختفاء الإمام موسى الصدر، دفعت الثورة الإيرانية نظام الشاه إلى الهاوية. ومُجدت رموز الإسلام الشيعي التي كانت في السابق تسبب الإحراج. لم تعد الناس تنتظر العصر الألفي السعيد؛ أعلنوا أن في إيران العلاج لأمراض العالم الإسلامي. أصبح شيعة لبنان جزءاً من قصة أكبر. وأصبح الإمام موسى الصدر نفسه يؤدي وظيفة جديدة كلياً. كان رجلاً ذا هوية مزدوجة، مُدعى به من قبل الإيرانيين والشيعة في لبنان؛ كان يُجسّد الروابط، الحقيقية والخيالية على حدٍ سواء، بين الاثنين.

أحدثت ثورة رجال الدين في إيران بقيادة آية الله روح الله الخميني تغييراً في علاقة الشيعة مع العالم العربي الأوسع ورموزه. في الماضي، عندما كانت القومية العربية العقيدة الصارمة للمدن العربية الكبرى، وعندما كان الرجال والنساء في المناطق الشيعية النائية يشقون طريقهم إلى بيروت ومحيطها، كانت «الصلة الفارسية» للشيعة في لبنان وفي بلدان عربية أخرى تحمل مثل حقيبة سفر مشكوك بها ومسببة للإحراج أما الآن فالثورة الإيرانية أوقفت التاريخ على رأسه. ثورة كبرى نجحت باسم الإسلام والأصالة الحضارية. وتقليد سياسي من الإذعان أفسح المجال أمام حركة إنقاذية؛ ورجال الدين الذين كانوا في السابق يدعون الناس إلى العبادة ويراقبون الشعائر الدينية، أصبحوا يدعون الناس إلى السلاح [1].

رمى الثوريون في إيران ثقلهم في البحث عن الإمام موسى الصدر. قبل سنوات، عندما بدت إيران أنها معزولة عن العالم الإسلامي من حولها،

(١) الطائفة الشيعية الإمامية والسياسية في الشرق العربي، عباس كيليدار، دراسات الشرق الأوسطية، العدد ١٩ كانون الثاني ١٩٨٣.

كان موسى الصدر قد حل حقيقة وثقافة إيران إلى مكان بعيد في ذلك الحين. أما الآن رسالة إيران ظهرت على أنها تعبر الحدود بسهولة. ولم يكن يتعين على الثوريين من رجال الدين الإيرانيين أن يجاهدوا لتأكيد نوع من وحدة الإيمان والمصلحة مع شيعة لبنان. لقد خصصوا واعتمدوا على تلك الشخصية الإيرانية الخاصة التي كانت قد عاشت وعملت بين اللبنانيين. كان الولاء لرجل الدين المفقود الجسر المحتمل بين إيران ولبنان.

من منفاه ـ أولاً من العراق، حيث كان يعيش منذ سنة ١٩٦٥، بعدئذٍ من فرنسا، التي كان قد ذهب إليها في بداية تشرين الأول سنة ١٩٧٨ ـ كان آية الله الخميني قد أرسل برقيات ورُسل إلى معمر القذافي في ليبيا، إلى حافظ الأسد في سوريا، إلى ياسر عرفات في بيروت، مطالباً بحلّ قضية اختفاء الإمام موسى الصدر. أولى رسائل الخميني المتعلقة بموضوع الإمام موسى الصدر أُرسلت في شهر أيلول سنة ١٩٧٨، بعد اسبوعين من اختفاء هذا الأخير؛ كانت الرسالة مُوجهة إلى ياسر عرفات في بيروت، تطالبه أن يفعل ما يستطيع من أجل «توضيح الغموض» بالنسبة لمكان وجود الإمام موسى الصدر. كان آية الله الخميني في ذلك الحين لا يزال شخصية من المعارضة الإيرانية، واحداً من آيات الله، الذي كان قد عارض الشاه وأُرغم للجوء إلى المنفى. كانت السلطة والشهرة التي جعلت منه فيما بعد شخصية تاريخية عظيمة لا تزال بعيدة لبضعة أشهر.

بعد وصوله إلى منفاه في فرنسا بثلاثة أيام، أرسل الخميني مبعوثاً إلى ليبيا. بعدئذٍ في أواخر شهر تشرين الثاني، ذهب أحد رفاق الإمام موسى الصدر في لبنان برفقة صدر الدين، الابن الأكبر للإمام موسى الصدر، والذي كان عمره في ذلك الحين عشرين سنة، إلى «نوفل لوشاتو» حيث كان يسكن الخميني في فرنسا. حثهم رجل الدين العجوز على الصبر، موضّحاً إلى

أي مدى كان مهتماً بالإمام موسى، ووعد أنه سيستمر بفعل المستطاع حتى تتحقق العودة السليمة للإمام موسى.

في شهر شباط ١٩٧٩، عاد الخميني نفسه إلى إيران. وسيطر على موارد دولة كبيرة. بعد انتصار الثورة بثلاثة أسابيع وصل إلى طهران وفد شيعي لبناني من رجال الدين والسياسيين الذين كانوا قد عملوا مع الإمام موسى الصدر، جاءوا لتهنئة رجل الدين المنتصر، لتسجيل بعض الحق والادعاء بثورة إيران، ومطالبة قادتها ملاحقة قضية الإمام موسى الصدر. لم يتأخر الليبيون كثيراً. في شهر نيسان سنة ١٩٧٩، أرسل معمر القذافي رئيس وزرائه إلى إيران. وما كان قد أزعج الليبيين هو اكتشافهم أن قضية اختفاء الإمام موسى الصدر استحوذت على الإهتمام الشديد للنظام الإيراني. في مطار طهران، حصلت مشادة كلامية حادة بين رئيس وزراء القذافي، عبد السلام جلود، ووزير الخارجية الإيراني، ابراهيم يازدي. كرّر جلود الخط الرسمي لليبيا ومفاده أن الإمام الصدر كان «صديقاً لليبيا». بالإضافة إلى ذلك، قال جلود، سبق لليبيا أن بحثت قضية الإمام موسى الصدر مع لبنان لأن الرجل المفقود هو مواطن لبناني. وبالتأكيد، قال جلود، لا يمكن التوقع من الليبيين أن يعطوا أجوبة لحكومتين حول مصير شخص واحد. كان الليبيون، قال جلود، قد ساعدوا شيعة لبنان، «اشتروا زيتونهم وتبغهم وحفروا آباراً لهم». وإن ما يهم الآن هو وحدة «الثورتين» ـ الليبية والإيرانية. ولا يتعين على الثورة الإسلامية في إيران أن تصبح «طائفية» ومسببة للإنشقاق إلى هذا الحدّ وتتبنّى قضية الإمام موسى الصدر فقط لأنه شيعي. وأضاف جلود أنه جاء إلى إيران لبحث «التعاون الإستراتيجي» بين الثورتين وليس قضية الإمام موسى الصدر [٢]. استدعى الأمر تدخل احمد

(٢)تقرير السفارة الأميركية في إيران رقم ١٢٠٦٥ المُرسل إلى وزارة الخارجية الأميركية بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٧٩. وهذا التقرير الخاص كان من بين الوثائق الدبلوماسية الأميركية التي حصل عليها

الخميني، ابن آية الله الخميني، لإنهاء النزاع ومواكبة جلود إلى والده. بعدئذٍ، وفي حضور آية الله الخميني، تمّ استجواب جلود بقساوة مرة ثانية حول ما حصل للإمام موسى الصدر.

كان مسقط رأس الإمام موسى يطالب به. في مخيلة أتباعه الشيعة في لبنان، كان مقدراً لإمامهم، الإمام موسى الصدر، أن يعود إلى بلد ولادته في أعقاب انتصار الثورة. كان سيصعد إلى القمة هناك، كانوا متأكدين، وكانوا مولعين بقول ذلك. كان الإمام موسى الصدر قد آوى الإيرانيين المنشقين ضد الشاه. فعل ذلك في البداية مع حذر: كان لبنان مسرحاً لمكائد الآخرين، وكان لدى الشاه رجال دين وسياسيين لبنانيين كانوا يذهبون إليه لتقديم تقارير ويطلبون رعايته. ففي سنة ١٩٧٠، ظهرت عقدة موقع موسى الصدر عندما اندلع صراع في العالم الشيعي حول اختيار مرجع التقليد، بعد وفاة آية الله محسن الحكيم، الذي كان معترفاً به على أنه المرجع الديني الرئيس في النجف، العراق. لم يكن محسن الحكيم، وهو عربي مقبولاً كمرجع ديني لعدد كبير من رجال الدين في إيران. كان المركز الشيعي في قم قد بدأ يبرز كمركز متميز للعلم الديني. لهذا شهد عقد من الزمن، بين وفاة آية الله حسين بوروجردي في سنة ١٩٦١ ووفاة محسن الحكيم في سنة ١٩٧٠، درجة من اللامركزية في السلطة الدينية ومرحلة اعتبر فيها محسن الحكيم مرجعاً دينياً كالآخرين بدلاً من اعتباره المرجع الوحيد اللامتنازع عليه. إضافة إلى محسن الحكيم، كان في النجف كبار المجتهدين الدينيين الآخرين؛ كان هناك المُبعد من قم، آية الله روح الله الخميني الناشط سياسياً، وخصم الشاه؛ في النجف أيضاً، كان هناك آية الله أبو القاسم

= حراس الثورة الإيرانية بعد استيلائهم على السفارة الأمريكية في ٤ تشرين الثاني ١٩٧٩. كما أن صحيفة نيويورك تايمز أكدت في عددها الصادر في ١٨ تموز ١٩٨٤ صحة الوثائق المصادرة من مبنى السفارة الأمريكية في طهران.

الخوئي، رجل دين حذر أكثر بكثير من الخميني، وعالم ديني بالفطرة. في إيران نفسها كان هناك مرجعان يتمتعان بتأييد كبير، آية الله أحمد الخنصاري في طهران وآية الله محمد كاظم شريعة مداري المعتدل نسبياً في قم. بعد وفاة محسن الحكيم، كانت مسألة الزعامة الدينية في العالم الشيعي مرة ثانية موضوع نزاع. لم يستطع أحد تكريس مرجع ديني وحيد، ولم تكن النتيجة محتمة أنه سيكون هناك مرجع ديني وحيد غير متنازع عليه كما كانت الحال عندما كان بوروجردي على قيد الحياة. كما ثبت في النهاية، كشفت الأحداث بعد وفاة محسن الحكيم عن خلافات سياسية ومذهبية حادة حول طبيعة دور المرجع الديني، وحول التوازن بين الفعالية السياسية والانضباط العلمي المفترض أن يكون موجوداً في عمل وسلوك مرجع ديني معين.

وكما كان متوقعاً، كان اختيار رجال الدين الفاعلين سياسياً في إيران، لآية الله روح الله الخميني، آنذاك قادم جديد نسبياً إلى النجف، فقد أرسل ثمانية وأربعون عالماً دينياً في قم إلى الخميني المبعد برقية تعزية بوفاة محسن الحكيم وتعهدوا له بتأييده. أما الشاه، الذي كان يتمنى كسوف الخميني، كان قد أعطى مباركته لاختيار المرجع الديني من أحد الاثنين: آية الله محمد كاظم شريعة مداري المعتدل نسبياً أو آية الله أحمد الخنصاري[٣]. في مدينة النجف ذاتها، كانت توجد مجموعة قوية مؤيدة لآية الله أبو القاسم الموسوي الخوئي. كان الخوئي معلم الإمام موسى؛ وللخوئي تعهد السيد موسى بالتأييد في بيان علني في شهر تموز ١٩٧٠[٤]. أكثر من حذر سياسي كان يحدث هنا: إلى حد ما، كان العالم الشيعي في لبنان تقليدياً قد تطلع إلى النجف كمركزه الديني. وبموجب قيود النجف ـ السلطة الدينية، الأولية فيما

(٣) الدور المعارض للعلماء في إيران القرن العشرين، نكي ليدي، جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٢، صفحات ٢٥١ - ٢٥٢.

(٤) برقية السفارة الأمريكية، في بيروت رقم ٥٩٧٤ تاريخ ٢٠ تموز ١٩٧٠.

يختص بعلماء الدين ـ كانت قضية آية الله الخوئي صفقة جيدة. في سنة ١٩٧٠، بينما كان الإمام موسى الصدر لا يزال يفتش عن دور سياسي في لبنان، كان من الصعب عليه أن يقدم على الاختيار الأكثر راديكالية بإعلان نفسه مؤيداً للخميني كمرجع ديني.

لكن في سنة ١٩٧٤، كان الإمام موسى قد ألقى بالحذر إلى الرياح وأصبح ناقداً قاسياً للشاه. (أحد زملاء الإمام موسى الإيرانيين، الدكتور مصطفى شمران، العالم الفيزيائي الذي تدرّب في أميركا، عمل مع رجل الدين في لبنان لعقد من الزمن، ورجع إلى إيران بعد الثورة ليصبح وزيراً للدفاع في النظام الجديد، وقُتل على الجبهة العراقية في سنة ١٩٨١). كان الإمام موسى الصدر قد أعطى من نفسه، ومن الموارد التي كانت تحت سيطرته، للمعركة ضد الشاه. كان قد أخذ إلى السوريين البعض من الإيرانيين الثائرين ضد الشاه وأمن لهم بعض المساعدة السورية. بالنسبة لأتباعه كان الإمام موسى الصدر البشير للثورة في إيران. مثل رجال الدين الثوريين في إيران، ولكن قبلهم بعدة سنوات، كان الإمام موسى قد حجب الفرق بين الدين والسياسة، ورسّخ حق تفوق الدين على السياسة الذي لم يكن مألوفاً حتى تاريخه. ولكن خارج نطاق التحديد، كان الإمام موسى قد انتمى إلى عالمين شيعيين مختلفين جذرياً في لبنان وإيران. أقدم على الانتقال من عالم إلى آخر. الذي حدث بعدئذ أن المجتمع الثوري الأكبر في إيران استطاع بطريقة ما احتضان شيعة لبنان. هذا الشيء كان يريده الإيرانيون، وكان شيئاً يعطي الإطراء لطائفة في لبنان كانت تفتقر دائماً إلى راع أجنبي. صعوبات الانتقال، الشكوك التي كانت قد أحاطت برجل الدين نفسه، تمّ نسيانها. «احتل موسى الصدر مكانة عظيمة في قلوب الفرس»، قال رئيس وزراء إيران مهدي بازركان، الرجل الإسلامي العصري، في مرحلة سبقت تخليه عن منصبه لصالح مجموعة متطرفة من رجال الدين: «طلبنا من ليبيا أن

تستقبل لجنة التحقيق التابعة لنا وأن تساعدنا في البحث عن الإمام موسى الصدر. نحن أيضاً لن نقيم علاقات مع ذلك البلد حتى يفعلوا ما طلبنا»(٥).

إن عملية اختفاء الإمام، التي أصبحت قضية تثير اهتمام الرأي العام كانت إلى حدٍ ما مقياساً لمنزلته. كانت أيضاً ما صنع التوقيت التاريخي منه. كان الإمام موسى الصدر قد دخل إلى عالم الناس المعزولين، مشى معهم ومن أجلهم خارج عالمهم المعزول. في عملية البحث عنه، رأى الشيعة في لبنان تأكيداً لأهميتهم الخاصة. وعبّر رجال الدين في إيران، من خلال اهتمامهم به، عن شعورهم المتزايد أن ثورتهم تخصّ عالم الإسلام ككل، إيمانهم بأن للمذهب الشيعي مركز في إيران، وأن الشيعة في البلدان العربية كانوا بمثابة روافد لذلك المركز.

اهتمامات الإمام موسى الصدر كانت جوهرياً اهتمامات بالتغيير الاجتماعي؛ كان جدول أعماله جدول أعمال سياسي بكل ما في الكلمة من معنى، يقبل بحل وسط ـ حل وسط أكثر مما ينبغي، هكذا اعتقد المتزمتون. رجل الدين الذي ظهر كقائد ملهم لإيران بدا على أنه حريص جداً على الشعائر الدينية والطهارة. بينما الإمام موسى، الذي كان أصغر من آية الله الخميني بربع قرن، كان قد حاول التوفيق بين حقائق متنازعة، وعمل جنباً إلى جنب مع كهنة ومطارنة مسيحيين. أما آية الله الخميني، الرجل الصارم، الذي لم تترك رؤيته مجالاً لحلول وسط، اعتبر الاتصال مع الناس من خارج العقيدة الإسلامية كتدنيس. ومع ذلك أُخفيت هذه الخلافات، وكان الإمام المفقود ابناً ورفيقاً بالنسبة لرجل الدين المسنّ في إيران: «أستطيع القول إنني تقريباً ربّيته»، قال آية الله الخميني عن الإمام موسى الصدر في إحدى المناسبات. «احتجازه» في ليبيا، قال الخميني، «معاناة لقضية الإسلام»،

(٥) مقابلة مع رئيس وزراء إيران مهدي بازركان، نشرت في نيويورك تايمز، ٢٨ تشرين الأول ١٩٧٩.

وقال الخميني، «جده» الإمام موسى، الإمام السابع، موسى الكاظم، وُضع في السجن «لسبع سنوات، أربعة عشر سنة استنادا إلى بعض المصادر». الإمام موسى، أيضاً، كما لمّح إلى ذلك، سيعود إلى أتباعه[٦].

جنباً إلى جنب في المناطق الشيعية من لبنان كانت صور آية الله الخميني ورجل الدين الأصغر منه. لكن بالرغم من أن الهدف من الصور كان إظهار وحدة الإيمان، وربط قائد ثورة إيران برجل الدين، تشير الصور إلى خلافات من الصعب إغفالها. صور الخميني هي لرجل عجوز صارم استثنى الشكوك وحلول الوسط، صور الإمام موسى إلى جانب صور الخميني تعرض رجل دين بشعره الأشعث بالكاد مغطى بعمامته، وابتسامته الساحرة. كان الرجل العجوز قد عاش في عالم مغلق، مدينة قم الدينية، حُرمة النجف، مدينة أخرى للعالم الديني؛ العالم المعزول بكتبه الدينية. لم يستحوذ عالم خارج العقيدة على الاهتمام الكبير للخميني. أثناء إقامته القصيرة في فرنسا، أخذ أعضاء الحاشية الرجل العجوز في نزهة لمشاهدة باريس ولزيارة «برج إيفل». خرج الخميني من السيارة، ألقى نظرة، وبعدئذٍ رجع إلى السيارة خاتماً بذلك النزهة. أبقى الخميني العالم المدنس في وضع حرج. بينما عاش الإمام موسى الصدر حياته وسط حقائق وادعاءات متضاربة. كان قد ظهر في مدينة بيروت مع سكانها المسيحيين، وقلبها السنّي، ولاجيئها الفلسطينيين، وادعاءاتها الغربية. كان عالم بيروت عالماً متنوعاً وليس نقياً. وكان على أي شخص عاش وسار في بيروت وقت الإمام موسى الصدر، أن يكون بارعاً في الدخول والخروج من حضارات وأطباع مختلفة. كان الإمام موسى الصدر نتاج ظروف معقدة أكثر من الظروف التي صاغت آية الله العجوز. إبنان من أولاد الإمام موسى الصدر الأربعة، ولدا في إيران، وابنتان ولدتا في لبنان. كان أعضاء عائلته في لبنان يتكلمون لغتين العربية

(٦) مع الاعتذار للإمام الصدر، عادل رضا، سالف الذكر، صفحة ١٩٤.

والفارسية. بقي الإمام موسى بكل ما في الكلمة من معنى إنساناً بمجتمعين مختلفين: في حقائب السفر العائدة للإمام موسى، التي أرسلها الليبيون إلى روما في محاولة تمويه غير بارعة، وجدت آثار لكل من إيران ولبنان، بلده الأصلي وبلده بالتبني: كتابان صدرا في إيران باللغة الفارسية، شريطا تسجيل من الموسيقى الإيرانية، رسالة لم ترسل بعد، مكتوبة باللغة الفارسية، وموجّهة إلى آية الله الخميني في منفاه العراقي، لائحة اسمية بالإيرانيين الذين يعملون معه والتي حددت رواتبهم، ولائحة مشابهة لميليشياته اللبنانية «أمل».

في إيران، فرضت قاعدة رجال الدين نفسها بعد انتصار الثورة بوقت قصير، هذه القاعدة التي تعتبر أن الفقيه لا يقوم فقط بالمهمة المتمتعة بقداسة القدم، بإعطاء التوجيه والنصيحة حول أمور الفقه الإسلامي، إنما أيضاً يحكم[٧]. سيطرت ولاية الفقيه الخمينية في إيران. لكن أثرها كان سريعاً في المجيء إلى لبنان. كان لدى إيران مترمتوها، حزب الله، رجال مصممون على فرض نظام صارم من التشدد والتكيّف. لبنان، أيضاً، أصبح فيها بعد لديه حزب الله الخاص به، مقاتلون دينيون ومتعصبون للدين، الذين آمنوا أن لبنان، بلد الطوائف المتنازعة، يمكن إعادة صياغته حسب صورة إيران. في كلمات رجل دين شاب من حزب الله، السيّد إبراهيم الأمين: «عالم الفقيه ليس عالماً جغرافياً محدداً، إنه يشمل عالم الإسلام بأكلمه»[٨]. قضية ومسألة القيود التقليدية للمذهب الشيعي طُرحت في لبنان كما سبق أن طرحت في إيران. كان تقليد شيعي، خاص بعلماء ورجال الدين المسنّين، قد أمن أنه يجب إبقاء العقيدة بعيدة عن الصراع السياسي القذر حتى لا تدنس. هذا

(٧) الإسلام في العملية السياسية، جيمس بيسكاتوري، دار نشر جامعة كامبريدج، ١٩٨٣ صفحات ١٦٠ - ١٨٠.

(٨) الحركات الإسلامية في لبنان، مقابلات أجريت مع رجال الدين، دار الشراع، بيروت ١٩٨٤.

التقليد كان يعرف تاريخ المذهب الشيعي، ويعرف أن العقيدة المحاصرة استمرت لأن الأئمة الذين عملوا على تطويرها في أوقات الشدّة فعلوا ذلك لأنهم كانوا قادرين على ردع الحماسة غير الملجومة عند المتطرفين. الإمام الرابع، زين العابدين، نجا لأنه بقي بعيداً عن مكائد العصر، لأنه تقبّل أن قضيته لا يمكن أن تنتصر في وجه قوة الدولة الإسلامية المتمركزة في دمشق. الإمام السادس، جعفر الصادق، أعطى المذهب الشيعي ثقافته، وضمن استمراريته عن طريق تجريد مفهوم الإمامة من التوقّع أن أماما ما يجب أن يحكم. توصل المذهب الشيعي إلى تسوية مع العالم كما كان[٩]. وساعد حذر المجموعة الرئيسة للمذهب الشيعي على النجاة من الهزيمة في معارك ميؤوس منها، والذوبان في «التركيبة السنية»، كما قال أحد الخبراء الأميركيين في الحضارة الإسلامية[١٠].

أحد الفقهاء الشيعة الأكثر شهرة في لبنان، محمد جواد مغنية، خالف من داخل ذلك التقليد القديم للمذهب الشيعي مفهوم الخميني الذي يعتبر أن للمجتهد الحق بالحكم. ويظهر ذلك في كتابه «الخميني والدولة الإسلامية» الذي صدر في سنة ١٩٧٩»[١١] أثنى مغنية على تقوى وعلم الخميني. وكتب يقول بخشوع: «إن انتصار الخميني كان واحداً من ألغاز القرن العشرين.. برهن أن الإيمان هو أقوى من الصواريخ والدبابات». رفض النقد القومي العربي للخميني: الإسلام، كتب مغنية، لم يكن أبداً مبنياً على العرق أو الأرض أو الجنسية. على أي حال، قال، لا يوجد الكثير الذي يمكن للعرب أن يفتخروا به اليوم: أشار إلى النزاعات في المجتمع العربي، المجازر والإذلال على أيدي إسرائيل والغرب. إنتصار الخميني، قال مغنية، أرجع

(٩) مجلة المجتمع الشرقي الأميركي، مارشال هودغسون، رقم العدد ٥، ١٩٥٥، صفحات ١ - ١٣.

(١٠) مجلة المجتمع الشرقي الأميركي، مارشال هودغسون، رقم العدد ٥، ١٩٥٥، صفحة ١.

(١١) الخميني والدولة الإسلامية، محمد جواد مغنية، بيروت ١٩٧٩.

التاريخ الإسلامي إلى حيث كان قد ظُلم، إلى حكم الإمام الأول، الإمام علي، صهر النبي ﷺ. كل هذا، مع ذلك، لا يمكن اتخاذه، قال مغنية، كقاعدة لإقامة حكم رجال الدين. ولا يمكن معادلة عالم الإمام المعصوم مع دولة يقودها علماء الدين والأوصياء على المؤسسة الدينية. الفقيه هو مجرد شخص فانٍ؛ «عرضة للنسيان، للكبرياء والغرور، لميول شخصية، إلى تأثير البيئة والمكانة الاجتماعية والظروف الإقتصادية»[١٢] في كلام آخر، الطهارة ليست من هذا العالم؛ يستطيع رجال الدين أن يرشدوا الناس وأن ينطقوا بالحكم حول ما هو حلال أو حرام، لكنهم لا يستطيعون المطالبة بالحكم. في وجه السياسة الشيعية الجديدة التي أعطت رجال الدين دوراً سياسياً صاعداً، استخدم مغنية القيود الشيعية القديمة. كانت المناظرة مناقشة العلم الديني بين المجتهدين. لكن شيئاً آخر تمّ توضيحه في معارضة مغنية. آية الله الخميني جاء من بلد حيث المذهب الشيعي كان العقيدة السائدة؛ وفي ذلك العالم الكبير يمكن دمج الدين مع سبب وجود الدولة، ويمكن جعله يدعمها. بينما مغنية، رجل دين لبناني، عاش في بلد صغير تنافسه عقائد دينية مختلفة، وحيث الإنضباط هو التقليد القديم العهد لطائفة أقلية في بلد لم يكن مستقلاً بذاته تماماً. كان شيعة لبنان قد تعلموا العيش في ظل قوى أجنبية.

لكن هناك لحظات وأوضاعاً تاريخية عندما يُقيّد الإنضباط بسهولة بتهمة الضعف وعندما تدفع الناس بالحذر جانباً. والنتيجة الفورية لثورة إيران كانت واحدة من هذه اللحظات. كان الناس في لبنان يرغبون في الإرتباط بعالم كبير من الإسلام وبثورة التشدّد. بينما كان السيد موسى الصدر، الذي جاء إلى لبنان حيث الطائفة الشيعية المقهورة، قد حاول تحسين لغته العربية، وتخليصها، قدر ما استطاع، من نكهتها الفارسية. أما الآن، فإن رجال الدين المولودين في لبنان يتصنّعون اللغة العربية بلهجة فارسية. تحوّل الإمام موسى

(١٢) الخميني والدولة الإسلامية، محمد جواد مغنية، بيروت ١٩٧٩، صفحة ٥٩.

الصدر إلى أيقونة (معبود)، وجُعل منه رجل الحرب والطهارة الذي كان مطلوباً.

في المناطق الشيعية في لبنان، في الأحياء الفقيرة من بيروت، في قرى وادي البقاع وفي الجنوب، كانت الملصقات التي تحمل صور الإمام الصدر موجودة في كل مكان. كان الإمام موسى مطالباً به من قبل سياسيين بارعين، من قبل طبقة متوسطة شيعية جديدة تتوق إلى مكانتها الخاصة، من قبل شبان حالمين في التفاؤل أخرجوا من قرى الجنوب إلى حالة الفوضى والإضطراب في بيروت. لم يكن هؤلاء الشبان يعرفون رجل الدين. لم يكونوا في مكان قريب عندما وزع مجموعة أوراق اللعب وتلاعب بوقائع مختلفة. كان عندهم صوره وذكراه وأقواله. لقد قطروا حياته إلى مبادىء أساسية قتالية بسيطة. في أعقاب اختفائه، رجال شباب مصقولون بعشر سنوات جهنمية من الحرب في لبنان، وملهمون بالرسالة الألفية لإيران، اقتحموا عالماً جديداً كاملاً من الحماسة والقتال. أطلق اسم «الألوية الإنتحارية» تيمناً بالإمام الذي لم يكن أبداً مرتاحاً لأساليب العنف في لبنان، وأصبحت ذكرى اختفاء موسى الصدر مناسبة لأعمال الجرأة والغضب. في بداية شهر أيلول سنة ١٩٧٩، بعد اختفائه بسنة فقط، قامت مجموعة من الرجال الشبان بالسيطرة على طائرة تابعة لشركة أليطاليا. طلبوا أن تقلع الطائرة إلى هافانا من أجل وضع قضية الإمام المفقود أمام زعماء الدول غير المنحازة، الذين كانوا في ذلك الحين مجتمعين في كوبا. لقد ظنوا أن زعماء الدول غير المنحازة - عدد كبير منهم حكم بالإرهاب - سوف يتأثرون بقضية اتسمت بلعبة سياسية غير أخلاقية. لم يكن أول حادث خطف طائرة على أيدي شباب شيعة، ولن يكون الأخير. طالب الخاطفون بإطلاق سراح إمامهم وبعودته إلى شعبه. وإلاّ، قال الخاطفون، «سوف نقلب العالم كله». لكنهم كانوا مجموعة لطيفة، قال ركاب طائرة أليطاليا عن الخاطفين: وضعوا أزهاراً في فوهات مسدساتهم وقدموا

الشوكولا إلى رهائنهم(١٣). مزيد من أعمال العنف تلت. وبدت الأحداث في لبنان والعالم الأوسع للإسلام أنها تتحرك بسرعة رهيبة. وتأرجح الشيعة على طول الطريق من الهمود إلى الشهادة. كانت الناس بحاجة إلى «قديسين»، وفي السيد موسى وجدوا العناصر التي منها يمكن بناء القداسة القتالية. حام عبيره فوق عالم الشيعة المدمّر في لبنان، وأصبحت سياسة هذا العالم، في نواحٍ عديدة، صراعاً حول عالم إمام مغيّب.

من الجزء الشرقي للبلد، من وادي البقاع، حسين الموسوي، معلم مدرسة سابق أصبح واحداً من المتحمسين لإيران الثورة في لبنان. يقدم روايته وذاكرته الخاصة عن الإمام موسى الصدر. قال الموسوي، إنه كان في صور في سنة ١٩٧٦ مع الإمام الصدر. كان يوجد صراع في تلك السنة، داخل الحركة التي أطلقها موسى الصدر بين «العناصر المسلحة» من جهة وأولئك الذين «نشأوا على الطريقة الغربية، بما فيهم الماركسيين». وأضاف الموسوي قائلاً: إن الإمام هدأ الأمور وأعلن أن أمل، الميليشيا التي أطلقت سابقاً، كانت «حركة إسلامية» وفكرها السياسي «الإسلام». في وصف الموسوي، الهدف هو تحقيق «مجتمع إسلامي» وإن شاء الله، مع الوقت دولة إسلامية أيضاً. الموسى الصدر الذي يفهمه الموسوي هو «ابن حقيقي للثورة الإسلامية»(١٤). رجل الدين السياسي الذي تودّد إلى المسيحيين، الأوصياء على السلطة، في وقت الهمود الشيعي، والذي تعمّد إظهار الولاء إلى البلد الذي كان قد تبنّاه، يصبح في نظر هذا المناضل القتالي بشيراً لسياسة المطلق. في أنظمة حكم بلاد الشرق التي كانت سائدة في لبنان قبل الإنهيار، مع كل ادعاءاته وسلطاته، الناس مثل الموسوي، الناس من سكان الريف الذين يفتقرون إلى الثقافة والجذور الإجتماعية الصحيحة، كانوا مجرد متفرجين. وفي

(١٣) نيويورك تايمز، ٨ أيلول، ١٩٧٩.
(١٤) الحركة الإسلامية في لبنان، سالف الذكر، صفحات ٢٢١ - ٢٢٢.

مناخ من الإنهيار والمجازر، جاءت فرصتهم. لقد أخفوا استياءهم وطموحهم في ملابس تقليد ديني؛ في ذلك التقليد ورموزه وأوصيائه، وجدوا الضمانة التي كانوا بحاجة إليها لسياسة قاسية.

أتباع السيد موسى كان عندهم إمامهم؛ في الأحياء الفقيرة المهدمة من بيروت، ومع وجود شيء قليل جداً للإعتماد عليه، تشبثت طائفة مع تاريخ من الحرمان بتراث رجل الدين المفقود. في صيف سنة ١٩٨٢، بعد اختفاء موسى الصدر بأربع سنوات، عندما اجتاحت إسرائيل لبنان وحطمت السيطرة الفلسطينية في الجنوب وفي المناطق الإسلامية من بيروت، انتشرت إشاعة بين الجماهير الشيعية مفادها أنه عُثر على الإمام المفقود من قبل الجيش الغازي. لقد كان في لبنان طول مدة الإحتجاز، هكذا أوحت الرواية الحماسية. لم يقل من كان يأسره. لكن العداوة الفلسطينية ـ الشيعية في الجنوب تركت قليلاً من الشك حول هوية الأوغاد. أعطي الخيال شيئاً شبيهاً بالدقة: موسى الصدر، قيل، عثر عليه، لحيته طويلة، وملابسه رثّة. فقط ظهر أحد رفيقيه اللذين اختفيا معه، الصحافي عباس بدر الدين؛ الآخر، الشيخ محمد يعقوب توفي. إنه وقت الحرب والإنتفاضة! أراد المؤمنون إرجاع رجل الدين لهم.

التراث المتعدد الجوانب للإمام موسى الصدر كان جلياً عندما جاءت إسرائيل واحتلت المدن والقرى الشيعية في جنوب لبنان. بتدمير القوة الفلسطينية في صيف ١٩٨٢، كانت إسرائيل قد فعلت ما لا يمكن فعله. في البداية صمت الشيعة أثناء الحملة العسكرية الإسرائيلية في سنة ١٩٨٢. لكن خلافاً للمسيحيين اللبنانيين، لا يمكن للشيعة احتضان إسرائيل. لم يكونوا من ذلك النوع من الشعب: التعامل مع أناس من خارج العقيدة لم يكن جزءاً من تاريخهم. لقرون، كان الموارنة قد لعبوا لعبة دعوة الغرباء والإعتماد على مواردهم. الشيعة، من جهة أخرى، حملوا معهم القلق من

الإلتقاء مع الغرباء، والخوف من التدنيس. والعلاقة الشيعية غير المألوفة مع العالم العربي الأكبر ـ كانوا منه، لكن ليس تماماً ـ جعلتهم عاجزين عن التوصل إلى تفاهم مع إسرائيل. مثل زوجة القيصر، كان يتعين على الشيعة أن يكونوا فوق الشبهات. كانوا متأكدين أنه لن تغفر لهم إقامة علاقة حميمة مع إسرائيل.

مخططات إسرائيل للمدى البعيد في لبنان كانت أيضاً مشكلة أخرى للشيعة. كانت إسرائيل قد جاءت كمنقذ، لكن المنقذين يمكن أن يخدعوا. كان يوجد دائماً في لبنان شك بأن إسرائيل تطمع بأراضي الجنوب ومياه نهر الليطاني. وكانت مجموعة من الكتابات السياسية قد روّجت لتلك الفكرة. كما كانت هناك أفكار دينية صهيونية كافية هنا وهناك، وترداد فلسطيني متمم لهذه الأفكار، مما يجعل الناس يتساءلون ويقلقون، إضافة إلى أن إسرائيل لا تعطي أبداً الضمانات الكافية بأن وجودها سيكون مؤقتاً، وكلما طال بقاء الجنود الإسرائيليين، كلما زادت مصداقية الشكوك.

الجنوب كان «يتمّ سلخه عن جسم لبنان»: هكذا عبّر عن الوضع في الجنوب نائب رئيس المجلس الشيعي الأعلى، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، في ذكرى عاشوراء، في تشرين الأول ١٩٨٢، بعد دخول إسرائيل إلى لبنان بحوالى خمسة أشهر، إسرائيل قال الشيخ شمس الدين، دخلت لبنان بحجة حماية أمن الجليل. لكن، بشكل متزايد، أصبح الخطر أكثر وضوحاً؛ وأن «هوية لبنان سوف تزول، وسيستغلّ اقتصاده ومياهه»[١٥].

استمرت فترة السماح المعطاة لإسرائيل لأكثر من سنة بقليل. كانت إسرائيل قد دخلت لبنان مع فهم خاطىء للبلد؛ كان صانعو القرار الإسرائيلي لا يعرفون شيئاً عن الشيعة، وكانت إسرائيل، في الواقع، تحاول

(١٥) خطبة الشيخ محمد مهدي شمس الدين في ذكرى عاشوراء، تشرين الأول ١٩٨٢.

فرض هيمنة مسيحية في جزء من لبنان يقطنه عدد قليل جداً من المسيحيين. على ذيل السترة الخطافيّة لإسرائيل ركب لصوص الرائد سعد حداد، وهو ضابط مسيحي منشق عن الجيش اللبناني وكان حليفاً لإسرائيل منذ سنة ١٩٧٦. ميليشيا الرائد حداد، قوة أغلبيتها من المسيحيين، انتقلت من منطقتها على حدود إسرائيل شمالاً باتجاه نهر الأولي. بعدئذٍ جاءت الوحدات المتعصبة «للقوات اللبنانية» المارونية، الأكثر تطرفاً من بين المجموعات المسيحية. كان حداد ورجاله يريدون السلطة والغنائم تلك الحسنات، المعنوية والمادية التي منحتها الحواجز لأولئك الذين كانوا يديرونها في لبنان. أرادت «القوات اللبنانية» فرض إرادتها على الجنوب، جزء من البلد حيث يُشكّل الشيعة ثمانين بالمئة من السكان؛ وهكذا استبدلت السيطرة الفلسطينية في الجنوب بحكم مسيحي قائم على المضايقة والإبتزاز.

غير أن المشاكل بين إسرائيل والشيعة كانت تنتظر حصولها. وحصلت في يوم رمزي بشكل خاص: ١٦ تشرين الأول، سنة ١٩٨٣، يوم عاشوراء، اليوم العاشر من شهر محرّم، إحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين في كربلاء. ظهرت قافلة إسرائيلية مسلحة بالصدفة في مدينة النبطية الشيعية في ذلك اليوم وحاولت شقّ طريقها من خلال مسيرة النادبين والضاربين أنفسهم. قُتل شخصان، وجُرح العديد.

سبق السيف العذل ورمي النرد في الجنوب. في اليوم التالي، أصدر الشيخ محمد مهدي شمس الدين، نائب رئيس المجلس الشيعي الأعلى، فتوى دينية تدعو إلى «العصيان المدني» و«مقاومة الإحتلال في الجنوب». التعامل مع إسرائيل، قال الشيخ شمس الدين، «محظور قطعاً» من «إخوانه وأبنائه في الجنوب». وطلب منهم الولاء إلى الأرض، وأن يدافعوا عنها ويتشبثوا بها مهما كان الثمن. كل جيل، قال الشيخ شمس الدين، له كربلاء خاصة به؛ والإنسان يأخذ اختياره الخاص؛ بإمكانه «الترفع والتضحية» أو

بإمكانه «الخضوع والخيانة»(١٦).

عكس حديث شمس الدين ما قاله موسى الصدر؛ مع ذلك، كان الشيخ شمس الدين مسؤولاً دينياً يتصرّف حسب القواعد التقليدية للنظام السياسي اللبناني. كان رجلاً لا يتمتع بالموهبة الخارقة، وكان قد اختاره هذا المنصب السيد موسى الصدر. كان مفصّلاً من مادة أكثر تقليدية من الإمام موسى الصدر: رجل محافظ، مشكك بالعواطف الشعبية. لكنه كان يواجه تحدياً من تحت من قبل رجال دين أكثر تشدداً. كان الشيخ شمس الدين قد أصدر دعوته للعصيان المدني من بيروت. لكن كان يوجد رجال دين ومؤمنون صادقون آخرون في جنوب لبنان تحت الإحتلال الإسرائيلي، آمنوا بنوع مختلف كلياً عن السياسة. السائقون الإنتحاريون و«الشهداء» لم يتأخروا. في ٤ تشرين الثاني، اقتحم سائق انتحاري المقر العسكري الإسرائيلي في صور. وكان السائق الإنتحاري شاباً في العشرين من عمره. قتل في العملية الإنتحارية ستين شخصاً بينهم تسعة وعشرون جندياً إسرائيلياً. ردّت إسرائيل بإغلاق جسر نهر الأولي الذي يربط الجنوب ببيروت. كلنتون بيلّي، وهو أكاديمي إسرائيلي كان يعمل كضابط ارتباط في جنوب لبنان، لخّص تأثير الإجراء الإسرائيلي على الشكل التالي: «انهارت قاعدة الإقتصاد الجنوبي. وحطّمت هذه الحادثة آخر شعور ودّي نحو إسرائيل»(١٧) بعدها اندلعت حرب شرسة بين الشيعة والمحتلين الإسرائيليين. في سنة ١٩٨٤ لوحدها، حصل أكثر من تسعمائة هجوم ضد الجنود الإسرائيليين في جنوب لبنان.

كان الإمام موسى الصدر قد مجّد الناس التي استشهدت؛ كان قد حوّل قصة كربلاء من القرن السابع إلى قصة معاصرة والآن الرجال الذين اندفعوا تلقائياً إلى الموت معلنين الولاء للإمام موسى الصدر وقائلين إنه

(١٦) النهار، ١٨ تشرين الأول ١٩٨٣.

(١٧) شيعة لبنان بعد حرب ١٩٨٢، كلنتون بيلي، جامعة تل أبيب، كانون الأول ١٩٨٤، صفحة ١٨.

علّمهم الشهادة وحب الأرض. في الإفادات الأخيرة التي أدلى بها العديد منهم، كانت هناك كلمات وداعية حول الإمام موسى، حول «عودة الإمام الغائب».

أولاد العالم العربي من زواج سابق (أولاد الجارية)، الشيعة، قاتلوا اسرائيل بحماس وشراسة. في الضراوة التي قاتلوا بها، حرّر الشيعة شعورهم التاريخي من كونهم مستبعدين عن الاتجاه السائد في التاريخ العربي. كونهم لم يتأثروا بالعقائد الممجدة للقومية، أراد الشيعة الدخول إلى هذا الاتجاه السائد. كان العالم العربي قد وظف بعضاً من نفسه وثروته في القضية الفلسطينية؛ بعدئذٍ في اعقاب حرب سنة ١٩٨٢ ثبت أن الشيعة هم الأعداء الأكثر شراسة لاسرائيل وخاصة أكثر مما كانت عليه منظمة التحرير الفلسطينية. «وُظفت ثروة عربية ضخمة للفلسطينيين»، قال نبيه بري، رئيس حركة أمل «وأظهرنا للعرب دروس الاستشهاد والشجاعة»[18].

رجال من هامش مجتمع كبير، «من أطرافه، من حدوده الخارجية» كانوا يعرضون مقدرتهم القتالية نيابة عن هذا المجتمع[19]. القومية ـ في انعطاف مألوف وقديم ـ كانت تجد مناصريها الأكثر تعصباً وسط الطوائف والناس الجديين. مثل رجل الدين المولود في إيران والذي قادهم، والذي كان بحاجة ماسة أحياناً للاعتراف العربي، أراد ورثة الإمام موسى الصدر خوض حرب عربية كبيرة. كان التوقيت قد انتهى، لكنهم لم يعرفوا ذلك. كانت القومية العربية مع رجالها الأقوياء وشعاراتها قد أغفلتهم عندما كانت سائدة. الآن بعد أن جدوا القتال ضد اسرائيل، كانت هناك حالة سلم بين اسرائيل ومصر، وكان الاتجاه السائد للمجتمع العربي قد قطع شوطاً طويلاً في التخلص من هاجسه الإسرائيلي.

(١٨) المحاضر السرية الكاملة لمؤتمر لوزان، طلال سلمان، السفير، ١٩٨٤، صفحة ٢٦٦.
(١٩) عكس التيار، إزاياه برلين، نيويورك، بنغوان، ١٩٨٢، صفحة ٢٥٨.

كان الإمام موسى قد جاهد بين الشيعة في الوقت الذي كانوا هم يغادرون قرى المنطقة النائية في الجنوب والبقاع ويبدأون في تعلم أساليب المدينة. دنوا من بيروت بالخشوع الذي ينظر به سكان القرى إلى المدن الكبيرة. بطلة إحدى الروايات الخيالية، «حكاية زهرة» (صدرت في سنة ١٩٨٠)، للمؤلفة الشيعية حنان الشيخ، قالت عن المناطق الأنيقة للمدينة إنها كانت تخص «صنفاً مختلفاً من الناس»[20]. كانت تلك البطلة تتذكر بيروت الستينات. في سنة ١٩٨٤، بعد اختفاء الإمام موسى الصدر بست سنوات، سقطت بيروت الغربية، الملاذ التقليدي للطائفة السنية ذات الامتيازات الأكثر، في أيدي الشيعة، سكان الأحياء الفقيرة والقادمين الجدد إلى المدينة. حركة أمل، منذ سنة ١٩٨٠، تحت قيادة نبيه بري، محامٍ في الأربعينات من عمره، ورجل جاء من جذور اجتماعية متواضعة من الجنوب، برزت كقوة مسيطرة في بيروت الغربية. أوقف العالم على رأسه: أبناء سكان القرى أعلنوا انتصارهم على المدينة وأطلالها.

كانت مخيلة عتيقة الزي قد استمرت في وصف شيعة بيروت الكبرى كمتطفلين على المدينة وفلاحين يمكن ترحيلهم إلى مناطق أجدادهم في الجنوب ووادي البقاع. هكذا كان المخطط الواضح الذي كان يضمره النظام الماروني الهشّ والذي برز (مع دعم أميركي قصير المدى، من خريف ١٩٨٢ لغاية شتاء ١٩٨٤) من افرازات الحرب التي شنّتها اسرائيل على لبنان في سنة ١٩٨٢. في هذه النبرة تحدث أحد الموارنة الشباب ذوي النزعة القتالية إلى أحد الصحافيين الاميركيين عن الشيعة: «الشيعة في بيروت هم كثافة غير طبيعية. إنهم لاجئون من الجنوب ويجب أن يعودوا إليه»[21]. بولس نعمان، الرئيس النافذ للرهبانية المارونية، طرح رأياً مشابهاً إلى أحد الصحافيين

(٢٠) حكاية زهرة، حنان الشيخ، بيروت ١٩٨٠، صفحة ٨٠.
(٢١) مجلة الجمهورية الجديدة، كريغ كاريل، ٣ أيلول ١٩٨٤، صفحة ٢٣.

الشيعة. في رأي هذا الكاهن السياسي في كل ما في الكلمة من معنى، الشيعة من سكان المدينة ـ حوالى سبعمائة ألف مواطن، ربما أكثر ـ سيتم ارجاعهم إلى مناطقهم. كان عدد كبير من سكان الشيعة قد نشأوا في المدينة وكانوا يملكون الكثير من العقارات في بيروت الكبرى. وبالرغم من ذلك، حقهم في مكان هناك لم يكن معترفاً به بعد.

كان الشيعة قد مروا بهذه المأساة من قبل. في بداية الحرب الأهلية، كان الشيعة قد خسروا واحداً من مواقعهم الرئيسة في المدينة، النبعة، الحي الأرمني ـ الشيعي شمالي شرقي بيروت، طُردوا في سنة ١٩٧٦ عندما سقطت هذه الضاحية وراء الخطوط القتالية المارونية ولم يستدع الأمر مخيلة كبيرة لاكتشاف المخطط الجديد: بيروت الشرقية ستبقى مسيحية؛ بيروت الغربية سيتوجب عليها التفاهم مع النظام الذي يُسيطر عليه الموارنة لأنها كانت تفتقر إلى الوسائل العسكرية للدفاع عن نفسها. في الخطة لم يكن يوجد مكان لشيعة بيروت الكبرى. كان مفترضاً لهذه الخطة أن تكون مدعومة بدعم وقوة أميركية. كان الاثم لصيف ١٩٨٢ الرهيب، الضوء الأخضر الذي أعطته الولايات المتحدة الأميركية لاجتياح اسرائيل للبنان، وللمجازر التي حصلت فيما بعد، قد أخذ جنود المارينز الأميركيين في خريف ١٩٨٢ في مهمة غير محددة في مجتمع لم تفهمه اميركا تماماً. وُصفت المهمة بـ «مهمة حفظ السلام»؛ جندت الولايات المتحدة الأميركية مشاركة فرنسية، بريطانية وايطالية في عمليتها. وعندما أخذت موقعاً على الأرض، أصبحت هذه القوة البعيدة طرفاً في النزاعات الطائفية في لبنان. خلف درع وهيبة قوة عظمى، شرع النظام الماروني في قهر بلد صعب التدبير. في الماضي، عندما كانت فرنسا قوة يحسب لها حساب، كان الموارنة قد جعلوا من أنفسهم جزءاً من مهمة فرنسا في الشرق. ولفترة وجيزة من خريف ١٩٨٢ حتى بداية ١٩٨٤، ظهر أن التاريخ يعيد نفسه بالنسبة للموارنة. الولايات المتحدة كانت ستفعل

لهم ـ هكذا كانوا يأملون ـ ما فعلته فرنسا في إحدى المرات. كان وقتاً لتفضيلات كبيرة: الجيش الذي تلقّى تدريباً اميركياً سوف يوحد البلد؛ «سكان الأكواخ» الشيعة في الضاحية الجنوبية من بيروت كان سيتم اخراجهم؛ الدروز العشائريون في جبل الشوف جنوبي شرقي بيروت كان سيتم هزمهم. وبعدها سيتم خلق نظام جديد.

لكن كان من الصعب دعم المحاولة المارونية للهيمنة. والولايات المتحدة الأميركية، التي «انجرّت» إلى النزاعات الطائفية، لم تستطع جعل الشيعة والدروز يخضعون للسلطة المارونية، ولم تستطع أيضاً اخراج سوريا من لبنان. إيران الثورة، أيضاً، أصبحت الآن طرفاً في سياسة لبنان. اتجهت قافلة إلى بيروت من طهران، عن طريق وادي البقاع. جلبت القافلة إلى لبنان أصحاب الشعارات والكراريس، «مرشدين» دينيين ورجال الحرس الثوري. كان لبنان «استعراضاً ثانوياً» لبعض الوقت؛ وكان دخول إيران في الساحة اللبنانية تغييراً على لحن قديم. كان اللبنانيون دائماً يدعون الغرباء لترجيح كفة الميزان ضد لبنانيين آخرين، وكبح الرعاة الأجانب للطوائف المتنافسة. كان الموارنة المسيحيون قد اعتمدوا على موارد القوى الغربية وعلى موارد اسرائيل. وكان القوميون العرب في لبنان قد ركبوا على ذيل السترة الخطافيّة للقوى العربية الأكبر. ومن الطبيعي أنه كان هناك شيعة متلهفون لتلقي رعاية إيران. تاريخياً كان شيعة لبنان يفتقرون إلى راعٍ أجنبي. وفي إيران وجدت بعض المجموعات الشيعية اللبنانية مثل حزب الله راعياً لها. إلى جانبها، كانت إيران متلهفة إلى مهتدين إلى الدين، وحريصة على اظهار أن ثورتها كانت ثورة أوسع للاسلام ككل. وبذلك كانت إيران تسقط ذلك الشعور بالانفصال عن العالم الإسلامي الذي كان قدرها منذ رحيل الحضارة الفارسية السامية في القرون الوسطى التي كانت فيما مضى حضارة الإسلام على طول الطريق من تركيا إلى اندونيسيا، كما أن القادة الثوريين

لإيران لا يستطيعون محاربة القوة الأميركية في الخليج الفارسي. غير أنه في حالة الفوضى في لبنان، وفي الوجود الأميركي هناك، وجد هؤلاء القادة الفرصة التي أرادوها.

في ٢٣ تشرين الأول ١٩٨٣، بعد مجيء القوة المتعددة الجنسيات الغربية إلى لبنان بسنة، اقتحم سائقان انتحاريان مقر قيادة الجنود المارينز الأميركيين ومقر قيادة الجنود الفرنسيين، قُتل ٢٤١ أميركياً و٥٨ فرنسياً. لقد كانت مهمة أميركية مشؤومة. لم يكن لبنان مصلحة حيوية لأميركا ولم تكن هناك فائدة في الادعاء أنه كان. تحت وابل نيران السفن الحربية الأميركية في البحر المتوسط، بدأت الولايات المتحدة الأميركية انسحابها من لبنان(٢٢). في بداية شهر شباط سنة ١٩٨٤، اقتحم الشيعة وحلفاؤهم الدروز بيروت الغربية، وانهار جيش الرئيس اللبناني أمين الجميل الذي تلقى تدريباً أميركياً وانقسم في اتجاهات طائفية. (كان في هذا الجيش دائماً أكثرية شيعية من الجنود العاديين، رجال من المنطقة النائية الذين انضموا إليه لأنها كانت فرصتهم الوحيدة للحصول على وظيفة مضمونة). دعا نبيه بري الوحدات الشيعية في الجيش للتخلي عن الحكم وهم فعلوا ذلك. أما المعركة في الجنوب ضد اسرائيل كان يخوضها رجال دين يتمتعون بالنزعة القتالية. وكان المتطرفون في حزب الله يحرزون تقدماً في وادي البقاع. وإذا كان لقادة حركة أمل في بيروت أن يحتفظوا بما تبقى من المركز السياسي الشيعي، هذه كانت فرصتهم أن يفعلوا ذلك، وهم انتهزوا هذه الفرصة.

كان يتعيّن ان ينظر إلى البلد وأن توزع الحصص فيه بأساليب جديدة. كانت المنطقة النائية قد تدفقت إلى المدينة. المهرجانات الشيعية لشهر محرم الاحتفالات بعاشوراء احياءً لذكرى وفاة الإمام الحسين ـ النادبون والجلد

(٢٢) مراسل نيويورك تايمز، فريدمان الذي كان يُغطي هذه الفترة في بيروت.

الذاتي ـ كلها كانت في الماضي من اهتمامات المدن والقرى الصغيرة، أما الآن فأصبحت تقام في بيروت. وفي الحالة القتالية الجديدة، التي كان يتباهى بها جيل شيعي من الشباب بولائه إلى التقاليد، يمكن رؤية محاولة الناس للتخلص من ارتباك واذلال الماضي. وإن القادة الشيعة الذين خرجوا كأسياد لخراب بيروت يتذكرون الزمن ليس بالبعيد عندما كانت بيروت مكاناً غريباً، وعندما كان يتوجب أخذ الموتى من الطائفة الشيعية إلى قرى أجدادهم لدفنهم هناك لأنه لم يكن في المدينة مقبرة شيعية. السلطة جاءت إلى شيعة بيروت، لكنها جاءت في وقت الكارثة. لقد حوّل الغضب المدينة إلى انقاض.

كانت الامتيازات قد ولدت لعنتها: الغضب ولم تكن توجد أرض «وسط» يمكن للناس أن تقف عليها في لبنان، أو في اكثرية العالم الإسلامي حول لبنان فيما خصّ هذا الموضوع. وإذا استعملنا كلمات «فيكتور هيجو» في «البؤساء»، كانت حرباً بين «الانانيين» و«المنبوذين». من جانبهم «سيطر على الانانيين الذهول من الازدهار الذي يؤذي الشعور، الخوف من المعاناة الذي في بعض الحالات يذهب إلى حد كره جميع المعذبين، الرضى الذاتي المتين، الأنانية المبالغة فيها جداً لدرجة أنها تخمد الروح». جاء المنبوذون بما كان الانتظار والحرمان قد تسبّبا في نفوسهم! «الطمع والحسد، الامتعاض من سعادة الآخرين، اضطراب العنصر الإنساني في البحث عن انجازات شخصية، قلوب مليئة بالضباب، البؤس، العوز، والإيمان بالقضاء والقدر، والجهل البسيط، الموت»(٢٣).

كان يتعيّن على أي قائد ملهم للمنبوذين أن يكون مركبة لجميع انفعالاتهم. وكان الإمام موسى الصدر قد أصبح قائداً ملهماً للمنبوذين الشيعة في لبنان. رجال شباب يحملون صوره، ويسيرون تحت رايات أقواله، أغلقوا بيروت الغربية ـ الجزء المسلم من المدينة، والموطن السابق لحضارة

(٢٣) البؤساء، فيكتور هيجو، بنغوان، صفحة ٥٢٥.

«عالمية» تلاشت في حرب طال أمدها - في ٣١ آب سنة ١٩٨٤، الذكرى السادسة لاختفاء الإمام موسى الصدر؛ هل كانوا حقيقة يتوقعون عودته؟ أو هل كان ذلك تعبيراً عن عرفان الجميل لما كان رجل مولود في بلد بعيد قد فعله لطائفة كانت دائماً تنتظر ودائماً تطيع؟ أو هل كان الرجال يعرضون ولاءهم لرجل الدين المفقود عن طريق أداء تحسر وندم شعائري؟ إندلعت ثورة التائبين في مدينة الكوفة في العراق، بعد مقتل الإمام الحسين في كربلاء بأربع سنوات. لم يكن الكوفيون هناك عندما كانت الحاجة إليهم: الحسين، الرجل الذي بجّله الكوفيون وكانوا قد دعوه إلى وسطهم لقي مصرعه في معركة مشؤومة ومستفردة. لم يشترك الكوفيون في المعركة. بعد أربع سنوات، انفجروا حزناً، وكرّموا ذكرى الرجل الذي لم يتقدموا إلى مساندته. بطريقة مماثلة، أحب شيعة بيروت ذكرى وأقوال رجل الدين المولود في إيران. رأوا أنفسهم فيه. الآن وبما أنه لم يعد موجوداً معهم أصبح الناس مستعدين لاتباعه وإطاعته والاعطاء من نفسهم. في العمق ربما كان الناس المخلصون قد تذكروا كيف كان الماضي الحديث في الواقع، كانوا يعرفون أن الرجل الموقّر كافح بالفعل من أجل ولائهم وولاء أقربائهم في وجه النطاق العادي للإغراءات الإنسانية: الرغبة في الأمان، الرغبة في أن يتركوا لوحدهم، الميل لرؤية نذل في كل بطل، البحث عن الإرضاء الفردي. لكن الخيال كان قد صنع العجائب، ونسب إلى رجل الدين المفقود جميع أنواع السلطات التي لم تكن له.

لم يكن أحد يريد أن يتذكر أنه في مناخ سياسي مختلف انتقل العديد من رفاق وزملاء رجل الدين ذهاباً وإياباً بين حركته وقيادته السياسية وقيادة سلطة حكومة القلة القدماء. لم يكن أبداً سهلاً على الإمام موسى الصدر الحصول على المال والولاء والمؤيدين وقيادتهم. الناس الطامحون - موظفو الدوائر الحكومية، شباب من حملة الشهادات الجامعية يحاولون شق طريقهم

إلى مناصب حكومية معتبرة، أثرياء يحلمون بمقاعد في مجلس النواب - كانوا وراء رجل الدين عندما ارتفعت أسهمه السياسية، وعندما اعتقدوا أنه يستطيع تحقيق الخدمات من الدولة أو تحسين مهنهم. غير أن هؤلاء الناس لم يكونوا موجودين وكانوا يبتعدون عن رجل الدين عندما كان يعرض عليهم الأعيان والزعماء السياسيون القدماء الرعاية أو يقطعون لهم وعوداً مسرفة أكثر. أحد الصحافيين يتذكر حادثة في سنة ١٩٧٢: كان الصحافي قد ذهب إلى مقر المجلس الشيعي الأعلى لزيارة «الإمام». هناك في ردهة كبيرة، في المبنى الذي توجب الحصول على تكاليفه من الأثرياء على مضض (العديد منهم تبرع مشترطاً توزيع صور إلى الصحافة تُظهر الإمام يستلم شيكاتهم)، وجد الصحافي الإمام موسى جالساً لوحده. تحادث الاثنان لفترة وجيزة. بعدئذٍ وبدافع اللياقة، قال الصحافي، وهو رجل يكنّ الاحترام لرجل الدين، إنه أخذ الكفاية من وقت الإمام. لكن طُلب منه البقاء. كان لدى رجل الدين متسعاً من الوقت. كان أيضاً عنده مهمة للقيام بها، وهي الذهاب لحضور أحد الاجتماعات. لكن بالرغم من أن سائقه كان موجوداً كانت سيارة رجل الدين خالية من الوقود ولم يكن المال متوفراً لشراء الوقود لا مع السائق ولا مع الإمام موسى.

حادث تذكاري آخر، سرده أحد المراقبين الذين تابعوا عمل الإمام الصدر، والذي كانت عائلته المؤلفة من الرأسماليين وأصحاب المصارف قد قدمت التبرعات المالية الأولى لعمله. في منتصف شهر حزيران سنة ١٩٧٦، هاجم مسلحون فلسطينيون منزل الإمام موسى الصدر في بيروت الغربية. تعرّض حرسه الخاص لإطلاق النيران. الإمام موسى وضيوفه لم يصابوا بأذى - لكن إنذاراً كان يُنقل من قبل قوات منظمة التحرير الفلسطينية إلى الإمام موسى الصدر. ولم يكن هناك أي ردّ شيعي على تلك الإهانة. كان الفلسطينيون، اللاجئون في لبنان، قد نظموا وفرضوا أنفسهم على الآخرين،

وكان الشيعة لا يزالون مشاهدين خائفين لسياسة بلدهم. «الإمام موسى»، يتذكر هذا المراقب، «كان عنده مثل هذه الأدوات الصعبة ليعمل بها. كان الزعماء الشيعة لا يزالون خادمين للموارنة، يركزون على الموارنة وخائفين من الفلسطينيين. صبروا على ما كان يقدم لهم، وكان الإمام موسى يعرف ذلك». بعد أقل من عقد من الزمن، كان جيل شيعي من الشباب قد قطع العلاقة بطريقة دراماتيكية مع الخوف الراسخ لدى الأكبر سناً منهم.

سواء أكانوا يندمون ويتوبون أو يُظهرون قوتهم التي حصلوا عليها حديثاً، كان الشيعة قد خرجوا من المنطقة النائية الكئيبة إلى سياسة المدينة المتنازع عليها. تمّ قذفهم إلى المدينة، فكانت أساليبها الراسخة واستجاباتها غريبة عليهم. كانت الأرض المهدّمة في الريف وعشر سنوات من الحرب الإسرائيلية ـ الفلسطينية قد أخرجتهم من قوقعتهم إلى مكان لم يكن تماماً لهم. لكن غضبهم، الذي أزعج سكان بيروت، كان الردّ على مكان أربكهم. خاصة أن الحياة في المدينة ـ في الكيان الأكبر لسوريا الذي منه اقتطع لبنان وإليه انتمى تاريخياً ـ كانت حياة الإسلام السني. كان السُنّة قد أعطوا المدن إيقاعهم وسياستهم، بينما كانت الأقليات قد استوطنت في المناطق والجبال النائية: الموارنة والدروز والشيعة في لبنان اليوم. كان الإسلام السني، سكان المدن، قد أسس هيمنة استمرت تسعة قرون منذ السنوات الأخيرة، من القرن الحادي عشر، وصدّ حملة الصليبيين وأدخل سوريا في عصرها المديني(٢٤). كان الفرنج قد نجح في قهر سوريا سنة ١٠٩٧؛ وأظهر أهل الريف والمسيحيون المحليون مقاومة رمزية أو أصبحوا متعاونين مع العدو بشكل كامل. وحده وقف الإسلام المديني بوجه الصليبيين. لقد انتصر من طريق الاتحاد مع الجنود والسلالات الحاكمة الكردية والتركية وبالاعتماد على الثقة الذاتية التي أظهرها نظام سياسي دولي متجدد للإسلام المديني في

(٢٤) سوريا في ظل الإسلام، كمال صليبي، نيويورك ١٩٧٧، صفحات ١٦٦ - ١٦٧.

الميدانين السياسي والحضاري وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر. إجتاز هذا النظام السياسي الدولي نكسة كبيرة في منتصف القرن الثالث عشر عندما اجتاح المغول منطقة نفوذ الإسلام. واستطاع الإسلام المديني النهوض ثانية، ممتصاً وجامعاً طاقات وولاء المماليك ومن بعدهم العثمانيين الذين لعبوا دور حملة رسالة الإسلام السني التقليدي من بداية القرن السادس عشر لغاية انهيار الأمبراطورية بعد الحرب العالمية الأولى. تحت مظلة النظام العثماني، حكم الأعيان من سكان المدن دمشق، ومناطقها النائية، كجزء من وحدة كاملة سياسية وحضارية أوسع، وفي ظل الانتداب الفرنسي وبعدئذٍ في ظل الاستقلال، ورثت القومية العربية شمولية الامبراطورية العثمانية وقواعدها المدينية للسلطة السياسية. غير أنه مع بداية منتصف هذا القرن، بدأ سكان الريف يزحفون نحو المدن والعواصم العربية ليأخذوا مكاناً لهم في السلطة. وفي بيروت، ومع بداية الثمانينات، كان أبناء آخرون من الريف، الشيعة في هذه الحالة، يطالبون بشكل صاخب بمكان لهم تحت الشمس. لعلّ الأمر الذي استدعى رجل دين، رجل مولود في عالم شيعي بعيد، لتحقيق هذا الشيء، هو تعبير بحد ذاته عن براعة التاريخ.

كانت بيروت العصرية، مدينة التجارة والخدمات والمرفأ، قد تكونت من طريق التجارة الدولية، ومن خلال سيطرة الغرب في بلاد الشرق. كان ذلك في سنوات ١٨٣٠ و١٨٤٠ عندما أصبحت بيروت مركزاً لشبكة تجارية، وبرزت كأهم مدينة في الكيان الأكبر لسوريا. مدينة الوسطاء والسماسرة، كانت بيروت تتمتع بكل نواحي القوى والضعف للمراقىء: كانت الاثنين معاً، نابضة بالحياة وسطحية. كانت تنتمي على حد سواء إلى منطقتها النائية وإلى العالم الغربي ما وراء البحر الأبيض المتوسط. إلى حدٍ ما، دُمرت المدينة نتيجة نجاحها الخاص. كانت قد توجهت إلى الناس الهامدين، إلى الناس المعزولين، إلى المهارات المدينية، وإلى التلهف المديني.

كان الازدهار التجاري لبيروت، وامتيازاتها كمركز للحكومة، قد جذب الناس من الجبل والمنطقة النائية إلى المدينة. لكن التقدم جلب ما وصفه أحد المؤرخين «تدفقاً مستمراً لقادمين جدد غير متشابهين»(٢٥). الموارنة من جبل لبنان، والشيعة من الجنوب جاءوا إلى بيروت ـ الأول في القرن التاسع عشر، والآخرون في منتصف القرن العشرين. غير أن هاتين الطائفتين لم تكونا، حضارياً، من سكان المدينة. وقبل أن تكشفها الحرب الأهلية أمام الجميع في السبعينات، كانت بيروت مدينة منقسمة في اتجاهات طائفية. كانت بيروت الغربية للأرثوذكس وللسنة الذين كانوا حملة حضارتها وروحها. غير أن الهيمنة المارونية بين المسيحيين تركت مجالاً ضيقاً جداً للأرثوذكس، والحرب الأهلية التي مجّدت الرجل المسلّح ورجل الميليشيا قررت نهائياً مصير الطوائف. لم يكن الأرثوذكس مسلحين ومقاتلين، والسلطة في لبنان ذهبت إلى أولئك الذين استطاعوا حمل السلاح. بالنسبة للسنة في بيروت الغربية، كانت سيطرتهم مستمدّة من سلطة العالم العربي الأكبر خارج لبنان وكانت تعتمد على همود الشيعة. كان التجار وأعضاء حكومة القلة السنّية جزءاً من الإسلام العربي المديني. اشتركوا بحضارة وعقيدة أكبر من لبنان. في وقت أو في آخر، استطاع السنة في بيروت الغربية التطلّع من أجل المساندة إلى دمشق أو إلى مصر جمال عبد الناصر في الخمسينات والستينات، أو إلى دول الخليج العربي الغنية. وأصبح الواقع السياسي للسنة في بيروت انعكاساً للتغيرات العميقة التي تحصل في الأنظمة الإقليمية العربية. وإذا كان باستطاعة دول الخليج العربي تقديم الدعم المالي للسنة في بيروت، فإنه لا يمكنهم إبطال القرار التاريخي الذي انبثق من المعطيات الواقعية للبنان أو إبطال فعالية التغيير الديموغرافي، ولا يمكنهم، في

(٢٥) التجارة والنازحون في بيروت القرن التاسع عشر، ليل طرزي فواز، سالف الذكر، صفحة ١٢٤.

أعقاب ثورة إيران، تقديم ردّ فوري على انفعال تلك الثورة، التي ظهرت أنها أطلقت شيعة لبنان.

في وقت ليس بالبعيد، في سنة ١٩٨٢، صائب سلام، من مواليد ١٩٠٥، العضو السني في حكومة القلة، تكلّم باسم بيروت المسلمة وجسّد روحها. صائب بك، الذي عمل كرئيس وزراء لبنان لعدة مرات، كان الزعيم المثالي لبيروت. كان الشخصية السائدة في جمعية المقاصد الخيرية التي تأسست سنة ١٨٧٠. كان أجداد صائب سلام، من عائلة من التجار والأعيان، قد وصلوا إلى السلطة والنفوذ في المجتمع البيروتي في أواسط القرن التاسع عشر. جده، علي سلام، كان واحداً من مواطني وتجار بيروت الرئيسيين في بداية سنة ١٨٧٠. والد صائب، سليم، ورث النفوذ السياسي والتجاري لوالده ووسّع سلطة العائلة؛ في سنة ١٩٠٩ انتخب رئيساً لجمعية المقاصد. وفي ذلك الحين، كانت عائلة بيهم العائلة الرئيسة في بيروت: غير أن سليم علي سلام قام بنوع من انقلاب داخل حكومة القلة في بيروت، متجاوزاً سلطة وهيبة عائلة بيهم. أحد المؤرخين اللبنانيين يصفه بشخص «غير مكبوت، مليء بالثقة بالنفس والجرأة، ورغم أنه تقليدي متدين، فهو غير متعصب كلياً»(٢٦)، رجل سني ذو ثروة ومنزلة سمح لأبنائه وبناته بتلقي دروس خصوصية في اللغة الفرنسية والعربية على أيدي كاهن كاثوليكي وعلى أيدي شخصية مارونية ضليعة. لغاية وفاته في سنة ١٩٣٨، بقي سليم علي سلام واحداً من وسطاء السلطة الكبار في سياسة المدينة، وأحد أعيان بيروت الذي رمى بثقله وراء هذا أو ذاك المرشح لمنصب مفتي الطائفة السنّية. كان قد اشترك في سنة ١٩٢٠، في المحاولة الفاشلة لإعلان الأمير الهاشمي فيصل ملكاً لسوريا، وعندما فشلت تلك المحاولة وأصبح كل من لبنان وسوريا

(٢٦) بيروت في ظل حكم الأتراك الشبان، كمال الصليبي، المركز الوطني للأبحاث العلمية، باريس، ١٩٧٦، صفحة ١٩٨.

تحت السيطرة الفرنسية عارض سليم علي سلام الانتداب الفرنسي وبقي بعيداً عن الفرنسيين. في سنة ١٩٢٢، وُضع في السجن من قبل الفرنسيين وبعدئذ تمّ نفيه لفترة وجيزة. إحتلّ مكانة سليم علي سلام في السياسة والمجتمع الإسلامي لبيروت ابنه صائب، ورغم أنه لم يكن الابن الأكبر فقد أصبح الوريث السياسي لوالده. في صالون صائب بك ـ في القصر المهيب الذي كان جد صائب قد اشتراه في أواخر سنوات ١٨٦٠ وجدد بنيته والده ـ كانت تُعقد الصفقات التجارية وتنجز الصفقات السياسية حول اتجاه البلد. في الخمسينات، عندما كانت أوامر وكلمة عبد الناصر المسيطرة على جداول أعمال السياسة العربية، كان صائب بك سلام رجل ناصر. سافر إلى القاهرة وعاد بالمباركة والدعم. كان صائب بك الذي قاد ثورة بيروت المسلمة في الحرب الأهلية سنة ١٩٥٨، ضد رئيس الجمهورية آنذاك كميل شمعون المدعوم من أميركا. بعد ذلك استمتع صائب بك بربع قرن من الشهرة. وعندما تقلصت سلطة القاهرة، اتجه نحو دول الخليج. جاء المال والمساعدة إلى صائب بك من نظام صدام حسين في العراق ومن الدول العربية المحافظة أكثر في الخليج. وحتى عندما استولى الفلسطينيون وعصابات الشوارع في بيروت الغربية على سلطته في منتصف السبعينات، بقي صائب بك شخصية ذات سلطة. لقد كان في منزله صيف ١٩٨٢ المروع، أثناء حصار إسرائيل الطويل وقصفها الكثيف لبيروت الغربية، حيث طلب أعيان بيروت من ياسر عرفات أن تغادر منظمة التحرير الفلسطينية المدينة وتجنبها مزيداً من المجازر. طوال فترة الحصار الإسرائيلي، كان صائب بك صلة الوصل بين فيليب حبيب، مبعوث الرئيس الأميركي ريغان وعرفات. نقل صائب بك الضمانات والتنازلات الأميركية التي كان عرفات قد طلبها كثمن لمغادرة المدينة. كان صائب بك حامل رسالة تقليد الأعيان الذين سيطروا في السابق على سياسة المدن مثل دمشق وبيروت. في صيف ١٩٨٢، فعل صائب بك ما استطاع فعله لمدينته.

كان صائب بك يعرف كيف يميل مع الريح. كان قد عارض انتخاب قائد الميليشيا الكتائبية، بشير الجميل، لرئاسة البلد في شهر آب ١٩٨٢. كان بشير الجميل شخصاً «جلفاً» فهو لم يكنّ الإحترام للألاعيب السياسية القديمة من الصفقات والتسويات التي كان يعرفها صائب بك وعاش معها. لكن بشير الجميّل انتصر وضمن انتخابه إلى الرئاسة بمساعدة الجيش الإسرائيلي الغازي. بعد «فاصل لائق» من اسبوعين، تقبل صائب بك النظام الجديد للأمور. في منزله في بيروت الغربية، جمّع خمسة وعشرين من الزعماء المسلمين في البلد وقدم غصن الزيتون إلى رجل الميليشيا الكتائبي. قاطع بعض الزعماء المسلمين الإجتماع، معلنين أن الرجل المنتخب حديثاً هو دمية إسرائيل. لكن صائب بك قرأ ميزان القوى كما كان. سوف يقبل نظام بشير الجميل طالما أن رجل الميليشيا المتطرف لم يذهب بفوزه بعيداً جداً وبشكل قاسٍ جداً. وبعد اغتيال بشير الجميل في ١٤ أيلول، وقبل أن يستطيع تسلّم المنصب الذي كان قد حصل عليه، أنتخب شقيقه أمين الجميل لرئاسة الجمهورية. ومرة ثانية، مشى صائب بك، المفترض، الصوت الأكثر سلطة بين المسلمين في لبنان، إلى جانب كتائبي آخر. كانت للبلد افتراضاته القديمة. كان التحالف الماروني ـ السنّي قد أعطى البلد استقراره السابق. وكانت العشائر والأعيان، الذين كانوا يعرفون بعضهم البعض ويتقبلون بعضهم البعض، قد رأوا البلد يجتاز أزمات سابقة. وفي عناق صائب وأمين الجميل، كان البلد ـ جزءاً منه ـ يتوق إلى أوقات أسهل.

بعد ثمانية عشر شهراً كان البلد بدون أوهامه. في مؤتمر «لأسياد الحرب» اللبنانيين، في لوزان، سويسرا، في شهر آذار سنة ١٩٨٤، التقت الشخصيات الرئيسة من السنة، الشيعة، الدروز والموارنة وغيرهم من بقية الطوائف أيضاً لمناقشة أخرى لمشاكل البلد. صائب بك كان هناك، شخصية من الطبقة القديمة، رجل في أواخر سبعيناته. كذلك كان المحامي

نبيه بري، أصغر منه بثلاثة عقود من الزمن، واحداً من ورثة الإمام موسى الصدر، ورجلاً قادماً من الريف. كان صائب بك قد جاء إلى هذا المؤتمر عاجزاً عن فعل أي شيء ماعدا المطالبة بأمن وسلامة بيروت الغربية. كان الرجل الأصغر منه، القادم من الريف، قد جاء إلى طاولة المفاوضات بعد شهر من سيطرة حركة أمل على بيروت الغربية. هذه الحركة التي يقودها نبيه بري منذ سنة ١٩٨٠ والتي كان قد أطلقها الإمام موسى الصدر[٢٧].

حصة أخرى من تراث الإمام موسى الصدر كانت هناك كي تلتقط في حالة الفوضى لمدينة مهدّمة: عباءاته الدينية السياسية. تماماً كما كان قد برز لوحده، رجل دين يشق طريقه إلى عالم السياسة، كان هناك الورثة لدوره، رجال دين زملاء له، يبحثون عن دور سياسي جديد لأنفسهم. كان هناك الرجل الذي اختاره الإمام موسى الصدر ليكون نائباً لرئيس المجلس الشيعي الأعلى، الشيخ محمد مهدي شمس الدين. لكن شمس الدين، رغم كونه مثقفاً دينياً، كانت عنده بنية الموظف البيروقراطي: كان متعلقاً بمنصبه وامتيازات المنصب، يرتاح في عقد صفقات سياسية أكثر من قيادة أناس متطرفين حديثاً. كان هناك شيء ما في شخصيته ـ متحفظ ويعرض معرفته، ولا يثق بالآخرين ـ جعله عاجزاً عن استلام ما كان قد ترك الإمام موسى الصدر. التقليد القديم لرجال الدين الذي كان الإمام موسى الصدر قد شجبه، بدا كأنه التصق بنائبه المعيّن. وكانت عنده أيضاً، الأساليب والصفات اللبنانية ـ القيل والقال والمشاجرات، والآفاق المحدودة ـ التي أدانته في نظر أولئك الذين سُحروا بالإمام موسى الصدر. علاوة على ذلك، كان المجلس الشيعي الأعلى قد انهار في أواسط السبعينات مع المؤسسات الأخرى للدولة اللبنانية؛ تحوّل إلى هيكل فارغ، إلى إسم طنان لا أكثر.

مع استمرار اختفاء الإمام موسى الصدر لم يرث العباءة الدينية أي

(٢٧) المحاضر السرية الكاملة لمؤتمر لوزان، سالف الذكر.

مجتهد. كما لم يناد بأي رجل دين إماماً من بعده في لبنان. لكن إلى السيد محمد حسين فضل الله خُيّر بعض من السلطة. كان السيد محمد حسين فضل الله، المولود في النجف سنة ١٩٣٤، إبناً لمجتهد من بلدة عيناثا الشيعية في جنوب لبنان. لقد أصبح «المرشد الروحي» لمجموعات شيعية مثل حزب الله وأثارت خطبه مشاعر المؤمنين. «الراغبون والمرتبكون» التفوا حول فضل الله، كما قال أحد الصحافيين اللبنانيين. خطبه، في ذكرى عاشوراء في أحد مساجد بيروت الكبرى، أدت المهمة ذاتها التي كانت قد أدّتها خطب الإمام موسى الصدر قبل أقل من عقد من الزمن. مثل الإمام موسى الصدر كان فضل الله قد تلقى علومه في النجف؛ كان شاعراً ومؤلفاً موهوباً، أظهر ميلاً مبكراً نحو اللغة (كانت إحدى قصائده التي كتبها في سنة ١٩٥٤، تأبيناً مؤثراً لوالد الإمام موسى، آية الله صدر الدين الصدر). خلال سنوات الخمسينات وبداية الستينات، أثناء إقامته في النجف، بقي فضل الله على اتصال وثيق مع شيعة بيروت والجنوب، حتى أنه كان يمضي أحياناً بعض الأوقات في بيروت وبنت جبيل، مشاركاً في الحياة الأدبية والإجتماعية لطائفته. في أواسط السبعينات، عند مجيئه للبقاء في لبنان، استقر في حي النبعة شمالي شرقي بيروت. خلال عقد من الزمن هناك، أفرغ إنتاجاً علمياً واسعاً من نوعية متخصصة لاقت تجاوباً من قبل عدد قليل جداً من القراء في بيروت تلك الأيام. كان أيضاً يواجه معركة مستمرة مع رجل دين محافظ، سطحي، أكبر منه سناً، كان قد سبقه إلى ذلك الحي، رجل الدين هذا، من بين الأشياء الأخرى، كان يتودد إلى نظام الشاه في إيران ويتلقى مساعدات مالية من عملائه السريين في لبنان. كان الرجلان مختلفين في كل شيء؛ كان الشيخ رضا فرحات، الأكبر سناً، رجلاً يحب رفاهيته وامتيازاته، ويسعى للحصول على الأملاك وتستهويه النساء. بينما كان فضل الله رجل دين أكثر جدية وتفان. لكن تطرّف فضل الله ولد في سنة ١٩٧٦: في تلك السنة، سقط الحي، الذي كان يسكن ويعمل فيه، في أيدي الميليشيات

المارونية وطُرد السكان الشيعة منه. لقد كان أثناء ذلك الصيف تأليف كتابه الذي كان بمثابة إيذان بالفكر القتالي للشيعة المتطرفين: «الإسلام ومنطق القوة». في معرض كلامه عن الأوضاع القاسية التي عمل فيها، يقول فضل الله: «إن هذا الكتاب قد كتب في فترات متقطعة في أجواء الحرب والقتال في المنطقة التي كنت اسكنها في ضواحي بيروت وهي منطقة النبعة تحت تأثير القذائف الكثيرة، وفي أضواء الشموع... إنها كلمة أقولها للذكرى...»

في كتاب فضل الله يمكن رؤية التغير الفكري والنفسي الذي حوّل التاريخ الشيعي المألوف من الهمود والإنكفاء السياسي إلى عقيدة الثورة والمواجهة. كان المذهب الشيعي قد روّض مناصريه على الحرمان الدنيوي، بعد أن أقرّه الفقهاء وعملوا على تطوره وغرسه في الروح بتقليد الندب. مع هذا التقليد يختلف فضل الله، بل على العكس فهو يمجّد القوة والسلطة. ويقول: «إن تملك القوة في الحياة... معناه... أن تكون نفسك لا غيرك... وأن تمسك بزمام الحياة في عملية إدارة وقيادة... أن تعطيك الحياة طاقاتها وثرواتها، لتُسخّرها كما تريد، وتفجّرها، كما تشاء، وتصنعها كما يروق لك... والعكس هو الصحيح... في حالات الضعف، فإن الحياة تبدأ في الإنهيار والتراجع إلى الخلف. أما الطاقات فإنها تتضاءل وتتكمش، وتتجمد في النطاق الضيق داخل الذات فيما يشبه الإختناق والشلل. حتى التاريخ... تاريخ الحرب والسلم، في العلم والمال وفي غير ذلك... إنه تاريخ الأقوياء».

منذ نشأته، لم يكن الفكر الشيعي قد اعتبر اكتساب السلطة كشرط لحياة صالحة وتقية. إلى هذا الموضوع يقود فكر فضل الله. يصل فضل الله إلى هناك من طريق الإعتماد على الأسس الرئيسة للعقيدة الإسلامية أكثر من اعتماده على قيود المذهب الشيعي الضيقة والمقهورة سياسياً. كما في فكر آية الله الخميني، يوجد في فكر فضل الله توجّه سني فضولي ـ الشعور بأنه يجب

التخلّص من «التقية» ويجب على الناس أن تكوّن نظاماً إسلامياً وتدافع عنه. «المقدرة» و«القوة»، يكتب فضل الله قائلاً، هما من الصفات التي يحبها الله. والرجل «القوي التقي» هو أهل للمكافأة عندالله أكثر من «الضعيف التقي». «حقيقة الدين» هي «الدعوة إلى القوة» وإن المجتمع المزدهر فقط يستطيع الإستمرار في مهمته المحددة كمجتمع عادل وتقي. ثم يستشهد فضل الله بآية من القرآن الكريم: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾(٦١:٤) ويكتب قائلاً، إن المجتمع الإسلامي مرغم بتعاليمه الخاصة على مواجهة أولئك الذين «يهددون وحدته وسلامته». ومن القرآن الكريم مرة ثانية، يعود فضل الله ويستشهد بدعوة الله إلى نبيه، محمد ﷺ: ﴿يا أيها النبي، جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾(٩:٧٣).

أما القيود القديمة التي كانت قد رافقت رجال دين آخرين خلال مراحل الإنكفاء السياسي ـ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ـ فإنها تكتسب تفسيراً جديداً في كتاب فضل الله: ليس فقط بالكلمات تنهي الناس عن المنكر، انما من خلال «القوة المسلحة» أيضاً. يوجد افتراض خاطىء، يتابع فضل الله، أن «الكلمة هي سلاح الدين، وليست الرصاصة»، وأن العلماء «ينحرفون عن مهمتهم الدينية عندما يتدخلون في السياسة، أو يلجأون إلى القوة لتغيير الأوضاع الإجتماعية والسياسية، لأن ميدانهم الملائم يُعتقد أنه المسجد وليس الحياة نفسها». مثل هذا الرأي، يقول فضل الله، هو خاطىء لأن «الإسلام هو الاثنان معاً دعوة ودولة». والشعائر الدينية ليست كافية في الإسلام: كان النبي ﷺ الإثنين معاً حاكم ومرشد ديني. والإمام علي، أمير المؤمنين، كان قد أدى ذات المهمات.

ماذا عن الفكرة الشيعية للمهدي المنتظر، يسأل فضل الله؟ هل تعني تلك الفكرة أنه يجب على الناس التخلّي عن عالم السياسة، وهل تستبعد إقامة

دولة عادلة في غياب الإمام؟ «نرفض هذا كلياً» يقول فضل الله: «المجتمع بحاجة إلى دولة، بحاجة إلى تنظيم، المسألة ليست وجود إمام معصوم إنما حاجة المجتمع المتأصلة إلى نظام حكم، لإنقاذ الناس من الإرباك والفوضى» حتى خلال أوقات «الغيبة» وغياب الإمام، «يتوجب تنظيم المجتمع، ويتوجب على الناس أن يكون عندهم المناخات الملائمة التي تمكنهم من أن يكونوا مؤمنين أتقياء واناس صالحين».

لم تنته الثورة المسلحة، يقول فضل الله، مع «ثورة الإمام الحسين»، وأن شيعة الحسين يسيئون تفسير تراثه عندما يفترضون أن التاريخ من بعده دخل «المرحلة السلمية التي تجنبت الحاكم وخضعت له». صحيح، يقول فضل الله، أن التقيّة، أصبحت الممارسة خلال الأوقات الصعبة، لكن بالتأكيد، تفادي الصراع لا يمكن أن يكون وسيلة دائمة ورداً دائماً على الظلم. كان حقيقة أن الأئمة الذين خلفوا الحسين امتنعوا عن الثورات المسلحة، نصحوا المؤمنين ضدها، وحاولوا كبح الحركات المتطرفة لأنصارهم. لكنهم فعلوا ذلك، حسب تفسير فضل الله، لأنهم كانوا يعرفون أن مثل هذه الحركات محكوم عليها بالفشل أو لأن مثل هذه الحركات لم تحمل في طياتها بذور «نظام إسلامي حق». الأئمة، يضيف فضل الله، ربما «كانوا يملكون معلومات، أو تنبؤات، تدل على النتائج السلبية لتلك الحركات»(٢٨).

في قراءة فضل الله، في ما تعلمه من الأئمة الشرعيين، ربما يكون الصمت والخضوع «تكتي ومؤقت». لا يمكن لعائلة النبي ﷺ أن تكون قد ورثت رسالة مغايرة. المذهب الشيعي نفسه، يضيف فضل الله، كان يعرف التنظيم السرّي، الخلية، والمحاولة لجمع المؤمنين ضد الاضطهاد. وأقرّ

(٢٨) الإسلام ومنطق القوة، محمد حسين فضل الله، بيروت ١٩٨٥، الطبعة الثالثة، صفحات ١٧- ٢٤٤.

المذهب الشيعي العنف في بعض الظروف التاريخية، ومنعها في ظروف أخرى.

ليس هناك من أدلة تظهر على أن كتاب فضل الله استرعى الكثير من الإهتمام عندما صدر للمرة الأولى. لم تكن الثورة الإيرانية قد حصلت بعد، وكانت الأفكار التي طرحها الكتاب لا تزال أفكار عدد قليل من المحترفين الدينيين. والحديث عن المذهب الشيعي كفلسفة ثورية ربما كان قد ظهر كجزء من فكر التمنّي. كما أننا لا نملك وسيلة لمعرفة ما إذا كان الإمام موسى الصدر قد قرأ كتاب فضل الله. الإمام موسى، بالطبع، كان يعرف مؤلف الكتاب، واحترم نتاجه العلمي. كان الإثنان تلامذة المرجع، عبد القاسم الموسوي الخوئي؛ في سنة ١٩٧٦، كان فضل الله قد عُين ممثلاً للخوئي في لبنان. وربما يكون بعض التوتر قد نشأ في العلاقة بين فضل الله والإمام موسى الصدر؛ حتى أن بعض المطلعين في لبنان يُلمّح إلى أن الرجل الأصغر ربما استاء من «صفقة النجم» للإمام موسى الصدر وبروزه السياسي. على أي حال، كانت سنوات ١٩٧٦- ١٩٧٧ مرحلة عندما كان الإمام موسى الصدر منهمكاً في رد إتهامات المنظمات الفلسطينية التي اعتبرته ألعوبة سوريا، وأنه خان التحالف اليساري ـ الفلسطيني واختار التحالف مع سوريا وإعطاء الوضع الراهن في لبنان فرصة. كان يواجه أيضاً المشاكل الإنسانية المذهلة للنازحين الشيعة الذين أخرجوا بالقوة من شمالي شرقي بيروت (النبعة) وما كان باستطاعة الإمام موسى الصدر أن يحشده من موارد واهتمامات. ربما استهلك في محاولة لحركته وبرنامجه حي خلال فترة حرجه بشكل خاص.

حصل كتاب فضل الله على نوع جديد من المصداقية بعد عدة سنوات. كانت الأحداث قد تتابعت لتعطي هذه الكلمات القتالية تأكيداً. فضل الله نفسه يعترف بذلك في مقدمة الطبعة الثالثة، التي كتبها في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٨٤. أي سنة بعد أن أصبح السائقون الانتحاريون

الشيعة الحدث العالمي. في هذه المقدمة يقول فضل الله: «وهكذا نجد أن الحديث عن القوة... ليس حديثاً تجريدياً فكرياً يحلّق في المتاهات الفلسفية الغارقة في الضباب. بل هو حديث الساعة». هناك محاولة، يقول فضل الله، لإعطاء صفة الارهاب للمواجهة الإسلامية، وتجريد المقاومة من أي نوع من الشرعية. لكن ذلك، يقول فضل الله، يحجب الواقع بأن القوى العظمى في العالم «تسن القوانين» ولا تترك للضعفاء خياراً آخر غير الطاعة. وفي عالم تسيطر عليه الدول القوية، يُنهي فضل الله كلامه قائلاً، يفعل الضعفاء ما يستطيعون فعله: «إن الحضارة لا تعني أن تواجه الصاروخ بعصا، أو الطائرة الحربية بطائرة من ورق، أو الزوارق المسلّحة بزوارق شراعية... بل هي أن تواجه القوّة الغاشمة بمثلها أو بأكبر منها، وإن الدفاع عن النفس والأرض والأمة والمصير إذا كان مشروعاً، فإن كل اسلوب يتوقف عليه ذلك يعتبر مشروعاً، في حجم الأهمية الكبيرة للدفاع أو للقضية التي ينطلق منها الدفاع»(٢٩).

معنى الحصار، أو أن تكون وسط معركة طويلة، واضح جداً بكل ما في الكلمة من معنى. هذا الكتاب، الذي كتب في أحد أحياء بيروت المحاصرة، يتكلم عن الحياة السياسية كأنها لا تعني شيئاً غير ميدان للحذر واستمرار للعداوة. لم تعد الناس تؤمن أن السلام ممكن. تُركت لتمجد الحرب وأولئك الذين خاضوها.

ثورتان شيعيتان تدحرجتا مع بعضهما البعض في لبنان: ثورة ألفية متطرفة وثورة رثّة إصلاحية. وكلا الثورتين تمّ غرسها في تراث الإمام موسى الصدر من قبل المناصرين لكل منهما. الثورة الأولى لا يمكنها التقدم. تستطيع أن تشجب العالم؛ تستطيع التحدث عن إقامة «جمهورية إسلامية» في لبنان. لكنها لا تستطيع تغيير طبيعة ذلك البلد من الطوائف المتنازعة، ولا

(٢٩) الإسلام ومنطق القوة، مقدمة الطبعة الثالثة، محمد حسين فضل الله، سالف الذكر.

تستطيع التغلب على الحدود الإقتصادية القاسية لبلد صغير عاش على التجارة والخدمات. كما أنه لا توجد في لبنان منطقة زراعية نائية، قابلة للحياة، ويمكنها دعم دولة متشددة من المؤمنين. وعلى عكس إيران، لا يملك لبنان ثروة نفطية يمكن جمعها لأولئك الذين يشقون طريقهم إلى السلطة السياسية بالنضال. المجال والموارد لبلد مثالي من أي نوع غير موجودة. الشعارات، الإيقونات، و«المال السياسي» يمكن أن تجلب إلى لبنان إنفعالات وخطط إيران. لكن الرجال والنساء في لبنان، الذين يشاركون الإيرانيين في المذهب الشيعي، يعيشون في عالم ودولة خاصة بهم. والحقيقة الشيعية في إيران، التي تمّ نقلها عبر مساحات شاسعة ومسافات طويلة، تصطدم بوقائع اجتماعية ملموسة مختلفة جداً عن وقائع قاعدتها، بيروت هي مدينة عنيدة وساخرة؛ لبنان ذاته هو بلد في ظل قوتين أكبر منه، سوريا واسرائيل. هذا البلد ليس تماماً المكان المثالي لحركة خلاص كبيرة. حتى فضل الله يستبعد فكرة إقامة دولة اسلامية في لبنان. المناخات الموضوعية، يقول فضل الله، ليست متوفرة لـ «الإسلام لأن يحكم لبنان». مثل هذه الأفكار، تابع فضل قوله، هي قفزات في الفراغ؛ وعلى الشخص أن يأخذ بعين الإعتبار «ميزان القوى الأكبر»، حدود وتركيبة البلد(٣٠).

الثورة الثانية الأشمل، التي قام بها الاتجاه الشيعي الرئيس في لبنان، كان لها أوجه مألوفة. إنها تريد للشيعة الذين هم أكبر مجموعة ديموغرافية في البلد، مفخرة المكان في توزيع السلطة والخيرات. مرة ثانية، التاريخ في لبنان غير الاتجاه. في الماضي، حكم دروز جبل لبنان المنطقة الحيوية اللبنانية كحكام اقطاعيين وأسياد حرب. بعدئذٍ، في أواسط القرن التاسع عشر، جاء الموارنة وانتصروا عليهم، شقّوا طريقهم إلى مدينة بيروت عندما بدأت تصبح مركزاً تجارياً مزدهراً، طوروا علاقاتهم مع اوروبا من خلال صناعة الحرير

(٣٠) الحركة الإسلامية في لبنان، محمد حسين فضل الله، صفحات ٢٥٩-٢٦٥.

النشطة، وتعلموا أساليب العالم الحديث. كان الدروز متشددين لدرجة يتعذر تغييرهم. بينما كان عند الموارنة شيء أكثر جوهرية وحيوية لتقديمه إلى لبنان وحتى إلى العالم العربي من خارجه. وعلى تلك الحيوية وذلك المخزون اعتمد الموارنة لأكثر من قرن.

في أعقاب سنة ١٩٨٢، بُذلت المحاولة الشيعية من أجل السلطة. وظهر الشيعة للعيان كطائفة رئيسة في البلد. غير أنهم وقادتهم لم يكونوا قد اكتسبوا بعد المهارات والمواقف التي يمنحها غالباً تقليد السلطة الطويل للناس. كان عندهم استياؤهم من مظالم وإذلال الماضي، وكانت عندهم التشكيلة المألوفة من الرجال الطموحين والمندفعين الذين يظهرون في أوقات الانهيار السياسي والاجتماعي ويسعون لبناء مراكز نفوذ وطغيان صغيرة خاصة بهم. وليدة أوقات وظروف رهيبة ـ الشعور بالحرمان والفقدان التاريخي، عقد من الحرب الإسرائيلية الفلسطينية، إحتلال اسرائيلي للجنوب ـ كانت لهذه المحاولة الشيعية الخصائص اللبنانية: الأولوية للطائفة والعشيرة الدينية، ارادة «الرجل الكبير» قائد طائفة معينة، حدة وانفعال النزاعات بين الناس، وبين الطوائف. هذا الإندفاع للتغيير واجه حدود وغبار البلد. لكن هذه الحركة الشيعية خرجت من تربة لبنان الخاصة؛ ولا يمكن نكرانها من قبل اولئك الذين عاشوا ليروها، وليعانوا على أيديها. كان رجل دين ذو ولادة أجنبية قد أعطى هذه الحركة مهاراته السياسية وبعدئذٍ، تراثه. لكن البلاد والناس تحوّل الغرباء والتراث الذي يتلقونه في وسطهم إلى شخصيات وأفكار مألوفة، إلى امتداد لأنفسهم.

قصة بزوغ السيد موسى، والإخلاص الذي لازمه عندما كان على مسرح الأحداث، زخرفت ونقحت، وحيرت، لتلبية حاجة شعب في محنة، لإمام يتمتع بسلطات وقوى مميّزة. لكن قبل العصر الألفي يوجد الرجل نفسه. أحد المؤرخين الشيعة الشبان يُجرّد القصة من سمتها الإنتصارية،

ويدعي أنه كان يعرف موسى الصدر، ويناقشه في موضوع الماركسية بوجه الإسلام في كل مرة يلتقي به. يُخبر هذا المؤرخ عن قصة بسيطة في وقت ما قبل التمجيد. يتذكر المؤرخ كآبة الرجل، الشكوك التي أحاطت به: الصعوبات التي واجهها في جمع المال والتأييد من رجال مترددين في بلد صعب. «أعطانا أكثر مما أعطيناه»، يقول المؤرخ «كان يتلمس طريقه في أرض صلبة لكن هذه الأرض تنكرت له. تأمل ما حلّ به في ليبيا، وفكر بزوجته الإيرانية التي تنتظره في لبنان».

ثم في مجموعة رائعة من الصور، إستعان المؤرخ الشاب بشخصية من مأساة يونانية استرعت الإنتباه إلى ما رآه في مأساة موسى الصدر: مأساة إيكاروس، ابن ديدالوس. حسب الإسطورة، وضع ديدالوس، المعتقل في أحد الأبراج من قبل الملك مينوس، خطة للفرار مع إبنه. قال ديدالوس: «يمكن لمينوس أن يسيطر على الأرض والبحر، لكن لا يمكنه السيطرة على مجال الجو. لذلك سأحاول تلك الوسيلة». بعدئذٍ صنع ديدالوس أجنحة له ولإبنه الشاب إيكاروس. جمع الأجنحة من الخيوط والشمع. وطلب من إيكاروس أن لا يحلق على علو منخفض لئلا تعيق الرطوبة أجنحته. وأن لا يُحلق على علو مرتفع حتى لا تذيب حرارة الشمس الشمع. كان الطيران مثيراً، وارتفع إيكاروس عالياً وكأنه يصل إلى السماء، غير أن الشمس الحارقة أذابت الشمع؛ سقط الريش وسقط إيكاروس في البحر.

في قصة رجل الدين الذي جاء إلى لبنان من وطنه الإيراني، كانت هناك محاولة للتحليق؛ كانت عندما بدا ممكناً أن التقليد الشيعي القديم يمكن أن يكون عصرياً دون أن يصبح قاسياً، وعندما يمكن التأمل بخليط من التقليد والتسامح. لكن ذلك لم يحصل: الإمام موسى ساعد على إثارة عاصفة، وعندما جاءت العاصفة، كان إحدى ضحاياها.

كان الإمام موسى قد سعى لتغيير التقاليد الشيعية الراكدة، لتجريدها

من حزنها وهمودها، ولجعلها تصل إلى تفاهم مع العالم، لكن عندما جاء التغيير، جاء بعنف. في بلد ولادته وفي البلد الذي تبنّاه، رجال الدين الشيعة المصنوعون من طينة صارمة أكثر منه، رموا بأنفسهم، حسب تعبير أحد المؤرخين: «من أخمص أقدامهم حتى عمامتهم، إلى السياسة وشؤون الناس الآخرين»[٣١]. كان السيد موسى واحداً من اولئك الذين أعادوا إحياء تراث الإمام الحسين، والذين حولوا قصة الحزن إلى قصة من الخيار والجرأة السياسية. غير أنه في السنوات التي تلت اختفاء الإمام موسى الصدر، تجاوزت حكاية الشيعة العاطفية مع الإمام الحسين حدودها وقيودها. إضافة إلى أن عدداً كبيراً جداً من الذين أعلنوا أن الحسين هو معاصر ومرشد فهموا التراث بشكل خاطىء: لم تكن كربلاء، مكان وفاته، حيث كان قد سافر؛ كان ذاهباً إلى مدينة الكوفة بدعوة من الناس الذين وعدوا بأن يكونوا بجانبه. كربلاء، كانت حيث نُصب فخ للحسين بينما كان في مهمة واجب والتزام. ومكانه المقصود كان بعيداً عن دنيا كاملة من العدالة: كان مسافراً إلى مدينة يعرف أساليبها الدنيوية كلياً.

الناس التي تتكلم عما تعتبره مثالياً، غالباً ما تتكلم عن مفهومها الخاص لنفسها، وعما تعتبره أنه القوة المحركة لحياتها الخاصة. في تأبين عالم الاجتماع الإيراني المتطرّف علي شريعتي (١٩٧٧) ـ مؤلف الكراريس الذي مزج رموز الإسلام الشيعي بالرؤية المتطرفة لفرنتز وجان بول سارتر ـ قال الإمام موسى الصدر، إن الناس التي تعيش أوقاتاً صعبة ولا تُلبى طموحاتها، تقسم إلى أربع فئات: يوجد أولئك الذين يستسلمون، ويصبحون «اركان المجتمع»، ومثل المجتمع الظالم الكبير من حولهم. الفئة الثانية ترفض النظام القائم، ولكنها تيأس من قدرتها على تغييره، «وتهاجر» في عقلها وروحها. الفئة الثالثة تؤمن في ضرورة التغيير، لكنها تؤمن أيضاً في «افلاس تراثها

(٣١) عباءة النبي، روي متهادي، سالف الذكر، صفحة ٣٥٦.

الخاص» وتتجه إلى الخارج، إلى النماذج الأجنبية، وإلى الايديولوجيات الأجنبية بهدف التغيير. هذه الفئة، يقول الإمام موسى، يجب أن لا يحكم عليها بشكل قاسٍ جداً: طالبت بالشيء الصحيح حتى إذا كانت وسائلها على خطأ. الفئة الرابعة، التي انتمى إليها علي شريعتي، كانت تؤمن في التغيير، لكنها سعت لتحقيق العدالة من خلال «ايديولوجية حقيقية إنبثقت من تربة المجتمع الإسلامي»[٣٢].

ما قاله الإمام موسى الصدر عن علي شريعتي كان تلخيصاً عادلاً عما وصل إليه الإمام موسى الصدر نفسه. وعما كان قد حاول فعله. وما كان يعرفه الإمام موسى وعمل معه، كان التقليد العلمي الشيعي والسياسي. وإن دنيا الشيعة في إيران حيث وُلد، في العراق حيث تعلّم في مدينة النجف الدينية، وفي لبنان حيث كان له «سلطته» كإمام، كلها كانت مجتمعات صعبة، وفي نواحٍ عديدة، قاسية. لقد شقّ طريقه بين سلطة الوضع الراهن الذي سعى إلى تغييره والاحتكام إليه على حدٍ سواء والطبقات الاجتماعية الدنيا التي كان مزاجها خليطاً من التكييف القدري والغضب الشديد بانتظار الفرصة الملائمة لمواجهة الأقوياء والمدللين. أعطى بعضاً من شجاعته ورحمته الخاصة للناس الذي عرفوا الحزن فقط ونوعاً من الامتعاض من الهمود. لم يكن خطؤه أن السلطة وأصحاب الامتيازات لم يعرفوا كيف يتقاسمون ما كان لديهم، وكيف يفتحون أبواب النظام الاجتماعي ويدعون المبعدين يدخلون. وبالتأكيد، لم يكن خطؤه أنه عندما اقتحم المبعدون اندفع العديد منهم بعنف مع قليل من الرحمة إذا كان هناك من رحمة للآخرين.

تباين عميق يفصل المؤسسات والفكر السائد للأكثرية عن الحضارة الشيعية المنافسة. في العالم العربي، الانشقاق بين الثروة والسلطة السياسية

(٣٢) نخبة من المحاضرات، ١٩٧٧، سالف الذكر.

من جهة والشيعة من جهة أخرى لا يقلّل من حدته وجدليته اللجوء إلى نكران وجوده واعتبار الموضوع كواحدة من «الطائفية البدائية». في أواخر القرن العشرين، تلك المعركة في كربلاء من القرن السابع يجري خوضها مرة ثانية: لقد كان الهمود والخضوع الشيعي من صنع جحيمها الخاص. بعد عملية مقايضة جرت بسرعة، تمت مقايضة الهمود والخضوع بسياسة التمجيد والاستشهاد. لذا لا يمكن لهذا التقليد الشيعي الذي لازمه الحزن والأشياء المكبوتة، من الانطلاق دون فصل طويل من الغضب والمجازر. كان الإمام موسى يريد من زملائه رجال الدين معارضة الحكام، الظالمين، وأن يكونوا إلى جانب «بؤساء الأرض». لقد كان مبشراً بالفعالية في زمن الخضوع. لكن الضراوة، التي حلت معها الكثير من التقليد الشيعي والذي كان الإمام موسى وريثاً له تجاوزت الحدود التي عرفها وعاش معها.

لبنان، أيضاً، لم يسمح بالتحليق والإمكانيات الكبيرة. حاول الإمام موسى تليين بلد صعب، وتذكير شعب لبنان كم كان بلده صغيراً، وبالتالي كيف كانت أحلام الطهارة واحتكار السلطة، التي راودت فئاته المتقاتلة، هزيمة للذات. ناشد البلد مع ادّعاءاته الخاصة ـ أنه كان مكاناً حيث تعانقت فيه العقائد الدينية، وحيث تعايشت فيه الحقائق المتنازعة. لكن في السنوات الأخيرة لعمل الإمام موسى في لبنان، وبعدئذ في السنوات التي تلت اختفائه، أصبح البلد مكاناً قاسياً أكثر. قال البلد، وداعاً للتفاصيل الدقيقة والشكليات التي كانت على حدٍ سواء قد أخفت وجعلت انقساماته الطائفية أكثر احتمالاً. لبنان لم يكن عنده الصبر على المكر: في النهاية جميع الطرق قادت إلى الحقيقة البسيطة للمعسكر المسلح.

الإمام موسى الصدر قاد أتباعه اللبنانيين في وقت كانوا يبدأون بالمطالبة بحقوقهم في بلدهم. اختفى وتركهم مع نص وذكرى وبعض المؤسسات في وقت أصبح البلد بأكمله مكاناً مدمراً. ويقف الشبان خلف أكياس الرمل،

مع صور إمامهم، يدافعون عن الخراب الذي يخصّهم ويخصّ طائفتهم. لقد تحقق مقدار من المساواة في لبنان. على الجانب الآخر، في الأمكنة التي كانت في الماضي ممنوعة على الشيعة، والتي كانت مغرورة وفخمة، يوجد دمار أيضاً.

عن التاريخ المستحيل «لكوستا غوانا»، الجمهورية الأميركية الجنوبية الخرافية، جمهورية النهب والوحشية، التي كانت مسرحاً لرواية «نوسترومو»، كتب جوزيف كونراد يقول: «انتصب العبث القاسي للأشياء واضحاً في تقلب ومعاناة ذلك الشعب الذي لا سبيل لإصلاحه، العبث القاسي للأحياء والأموات التي تهدر في المحاولة العقيمة لتحقيق حل دائم للمشكلة»[٣٣]. كان للبنانيين تاريخهم وأطباعهم: تاريخهم خذلهم. لكنهم لم ولن يستطيعوا أن يتغيروا. والرجال الذين جاهدوا لتغييرهم ربما شعروا وكأنهم يحرثون البحار.

(٣٣) نوسترومو، جوزيف كونراد، مكتبة نيو أميركان، نيويورك، ١٩٦٠، صفحة ٢٩٣.

الفهرست

الناشر

«الإمام المغيَّب» هو أكثر من قصة رجل أو بلد. هو كتاب يعالج بمفهوم عميق المنطلقات الرئيسة للمجتمع الإسلامي. ويمكن القول إنه لا توجد أية دراسة أخرى في اللغة العربية أو الإنكليزية تقدم مثل هذا الإيضاح والشرح الغني والحسّاس لعملية التحوّل السياسية والاجتماعية والحضارية التي مرت بها الطائفة الشيعية منذ سنة ١٩٦٠.

وقد أدخل في الكتاب برقيات وتقارير دبلوماسية أميركية لتكون أدلة تُعطي فكرة عميقة معبّرة حول الإمام وأسلوبه وسياسته وإنجازاته.



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع